الكاهن المصلوب

القدّيس پادري پيّو

الأب پيّو دي پْيِتْرِلْشينا

سلسلة النوابغ
١٦

الكاهن المصلوب

القدّيس پادري پيّو

أديب مصلح

٢٠٢٣

طبعة أولى

٢٠٢٣

* * *

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

إهداء

إلى ابني الحبيب "أيمن"،

فليكنْ لك "پادري پيّو" الشفيع والسند،

ورفيق الدرب،

وليقدّسْ نفسكَ،

وليواكبْ بحمايته كلَّ فردٍ من أفراد أسرتك الحبيبة!

أديب

إهداء

إلى كلِّ مصلوبٍ يئِنُّ تحت وِقرِ صليبِه،

لعلّه يتعلّم من "پادري پيّو" تقديمَ آلامِه

خلاصًا لنفسه، ولنفوس الآخرين!

إلى كلّ صابٍ إلى التحليق في أجواء الروح،

فليكنْ له مثال "پادري پيّو" جناحَيْن!

أديب

حمدًا لله الذي، وهَبَنا على امتداد قرونٍ، رجالًا ونســـاءً، تخلَّوا عن كلّ شيءٍ، وأصبحوا مناراتٍ".

(البابا پيّوس الثاني عشر)

"فلنسألِ الربَّ أن يُعطيَ حقبتَنا أشخاصًا يملكون جرأةَ هجرِ كلّ شيءٍ، لكي ينصرفوا إلى خدمة الجميع".

(البابا بينيدكتُس السادس عشر)

تقديـم

ما من شكٍّ أنّ سلسلة "النوابغ"، التي افتتحها الكاتب المبدع أديب مصلح، منذ عام ١٩٩٢، بكتابه "السياسيّ القدّيس، المهاتما غاندي"، والتي يضيف إليها اليوم، في عام ٢٠٢٣، الجزء السادس عشر منها، في كتابه هذا، عن القدّيس الإيطاليّ العجيب والمعاصر، المعروف باسم "پادري پيّو"، تشكّل في نظري، ظاهرةً ثقافيّةً وروحيّةً، فريدةً على صعيد الإنتاج الفكريّ والروحيّ العالميّ، لا على المستوى الدينيّ وحسب، بل أيضًا وخصوصًا، على المستوى الفكريّ والأدبيّ.

وإنّي لأترك بكلّ ثقةٍ، لأصحاب الشأن، ممّن تسنّى لهم حتّى اليوم، أو سيتسنّى لهم في المستقبل القريب والبعيد، أن يطّلعوا بدورهم على هذه الكنوز الروحيّة والإنسانيّة، الاستثنائيّة، أن يسعوا إلى تعريف قرّاء العربيّة بها، بل إلى تنظيم ترجمتها، على رحابتها ورقيّها، إلى اللغات الأجنبيّة، كي يسهموا بدورهم، مع مؤلّفها، في نهضةٍ روحيّةٍ، بات العالم كلّه اليوم، في أمسّ الحاجة إليها.

وأمّا كتابنا هذا، "المصلوب الحيّ، القدّيس پادري پيّو"، فإنّي أودّ أن أقصر تقديمي له، على كلماتٍ ثلاثٍ فقط. الأولى منها تخصّ الأب "پيّو" بالذات، والثانية تخصّ الربّ يسوع، والثالثة تخصّ المؤلّف. وإنّي لأريد لهذه الكلمات الثلاث، أن تكون، في آنٍ واحدٍ، وجيزةً، ولكنْ صريحةً، بل بمنتهى الصراحة.

من الواضح أنّ جميع "النوابغ"، الذين استحوذوا على اهتمام كاتبنا "المصلح"، قد حفلت حياتهم بمكرماتٍ ربّانيّةٍ، كثيرةٍ ومتنوّعةٍ، جعلت منهم، شيئًا فشيئًا، أوّلًا شهودًا ناصعين لمثالهم الأوحد، الربّ يسوع، في بلدانٍ ما، وفي أزمنةٍ ما... وجعلت منهم ثانيًا، مبدعين خارقين لمبادراتٍ إنسانيّةٍ، ترجمت هذه المحبّة الحارقة، التي حَمَلها

هو، وهو وحدَه، لجميع البشر دون استثناءٍ، وقد امتدّ تأثيرها الوفير، من "هذه" البلدان إلى العالم بأسره، ومن "هذه" الأزمنة إلى أزمنتنا الحاضرة، والقادمة بكلّ تأكيدٍ، وجعلت منهم، ثالثًا، نماذج إنسانيّةً، مدهشةً وجذّابةً، نفخت في الناس، زخمًا روحيًّا وإنسانيًّا، جبّارًا، امتدّ ويمتدّ تأثيره حتّى اليوم، وإلى أمدٍ يبدو لي بعيدًا، على الرغم ممّا واجه ويواجه، من شتّى أنواع الرفض والمقاومة، العاديّ منها والاستثنائيّ، إمّا على صعيد الموروث الاجتماعيّ والنفسيّ العامّ، وإمّا على صعيد المجتمعات "المسيحيّة" وسواها، شرقًا وغربًا، وإمّا على صعيد القوانين والمؤسّسات الكنسيّة، وإمّا أخيرًا وخصوصًا، على صعيد المسؤولين الكنسيّين، ولا سيّما الأعلين منهم! ولكم أفلح كاتبنا "المصلح"، في استعراض هذا التاريخ، النيّر والقاتم في آنٍ واحدٍ.

إلّا أنّنا نجده اليوم، في حديثه عن "الكاهن المصلوب"، يسهب على نحوٍ صارخِ الوضوح والتكرار، في ذكر الكرامات الكثيرة والمدهشة، التي خصّ بها الله "پادري پيّو"، منذ طفولته، ولا سيّما ما حباه به من عشقٍ مبكّرٍ جدًّا، وحارقٍ ليسوع، مضى متصاعدًا وثابتًا، في أدقّ تفاصيل حياته، حتّى لحظته الأخيرة، على الرغم من جميع المنغّصات، الطبيعيّة والمفتعلة، التي حلّت به دون انقطاعٍ...

ومن فقرٍ مدقعٍ في بيت ذويه...

ومن تضييقٍ منفّرٍ من الرهبانيّة، التي اختار في سنٍّ مبكّرةٍ، أن ينتمي إليها...

ومن أمراضٍ متواصلةٍ ومضنيةٍ، حيّرت الأطبّاء والرهبان الذين كان يعيش في وسطهم...

ومن جراحٍ خمسةٍ، ظهرت في يدَيْه وقدمَيْه وخاصرته، خصّه بها الربّ يسوع، بعد سيامته الكهنوتيّة بفترةٍ وجيزةٍ، في حين أنّه لم يخصّ بمثلها أيَّ كاهنٍ آخر على الإطلاق، منذ ألفَي عامٍ إلى اليوم، وهي جراحٌ ظلّت تنزف حتّى قُبيل وفاته بساعاتٍ، حيث التأمت من تلقاء ذاتها، ودون أيّ مضاعفاتٍ، لا عضويةٍ، ولا مرضيّةٍ على الإطلاق...

ومن عشقٍ لا حدود له، للصلاة، كان يتجلّى على نحوٍ خارقٍ، كلّما كان يُقيم قدّاسه اليوميّ، حتّى بات يشدّ إليه الكثير من الناس، من شتّى الطبقات والمشارب والمناطق، إلى أن حلّ يومٌ بات فيه الآلاف يقبلون، تلقائيًّا، على الاعتراف لديه بخطاياهم، وإن اضطرّوا للانتظار، أيّامًا طويلةً، قبل أن يحين دورهم...

ومن حبٍّ طاغٍ وعفيفٍ بالمطلق، للإنسان كلّ إنسانٍ، ولا سيّما الإنسان المعذّب والمريض، حبٍّ تجلّى في إنشاء مشروعٍ إنسانيّ، طبّيّ وعلميّ، على درجةٍ من الضخامة والإتقان والتطوّر، ما كان لأحدٍ أن يحلم به، تحت اسمٍ في غاية التواضع، هو "بيت تخفيف الألم"...

ومن شعورٍ عميقٍ بحاجة البشريّة كلّها إلى الصلاة، حتّى جاء يومٌ، أوتي فيه أن يطلق حركةً روحيّةً جبّارةً، طوّقت الأرض كلّها في فترةٍ قياسيّةٍ، بمئات الألوف من المصلّين، المتّحدين في شتّى أرجاء الأرض، في صلاةٍ مشتركةٍ، ومتواصلةٍ، سمّاها بكلّ تواضعٍ "جماعة الصلاة"...

وأخيرًا، وليس آخرًا، من موهبةٍ خارقةٍ، قلّما نعمَ بها آخرون، وهي نعمة التواجد الجسديّ في مكانَيْن مختلفَيْن ومتباعدَيْن، في آنٍ واحدٍ، وفي مناسباتٍ بالغة الأهمّيّة على الصعيد الكنسيّ، في شؤونٍ تخصّه شخصيًّا، وتخصّ الكنيسة العامّة في آنٍ معًا!

والجدير بالذكر، أنّ كلّ ذلك حدث للأب بيّو، طوال عشرات السنين، فيما هو قابعٌ في ديره النائي، لا يخرج منه البتّة، تحت وابلٍ من الاتّهامات الدنيئة والمتصاعدة، تنهال عليه من أقرب زملائه الرهبان، وأحيانًا كثيرةً من المسؤولين المقرّبين أو الأعلين في الرهبانيّة التي ينتمي إليها، بل ومن بعض أعلى المسؤولين في الكنيسة الكاثوليكيّة، من أساقفةٍ وكرادلةٍ وسواهم!

إنّ هذه السيرة الاستثنائيّة بكلّ المقاييس، إذا ما قورنت بسير "النوابغ" الكثيرين، الذين ملأوا تاريخ المسيحيّة، شرقًا وغربًا، دفعتني لطرح أسئلةٍ جليّةٍ على الربّ يسوع،

أعتقد جازمًا أنّها ستتزاحم في فكر كلّ مَن سينعم بقراءتها. وإنّي لأرى أنّ مجرّد طرحها، ينطوي على الإجابة الصارخة، التي جسّدها في حياته كلّها، "الپادري پيّو"، والتي أرادها الربّ يسوع، كما أرى، نموذجًا جديدًا، للكهنة والأساقفة أوّلًا، وللمؤمنين عمومًا، في سبيل الاقتداء به، في عالمٍ فقد كلّ مرجعيّةٍ روحيّةٍ وأخلاقيّةٍ، فيما الكنائس كلّها غائبةٌ!

تُرى، لِمَ خصَّ الربّ يسوع بعشقٍ له غير عاديّ، وبهوًى مبكرٍ للصلاة، منذ طفولته الأولى، مَن سيصبح بعد سنواتٍ قصيرةٍ من عمر الزمان، "البادرة پيّو".

ولِمَ تراه، دفعه منذ فتوّته الأولى، لأن يختار نمطًا من العيش الرهبانيّ، لا يتحمّل قسوته، سوى الموغلين من رجالٍ ونساءٍ، في حياةٍ روحيّةٍ عاليةٍ؟

ولِمَ تراه جعله يهوى نمطًا من إقامة القدّاس اليوميّ، يختلف عن سواه من الأنماط المألوفة وشبه الآليّة، وقد وجد لدى الناس الغارقين في الحرمانات وشتّى هموم الأرض، تجاوبًا خارقًا وثابتًا، ولدى أناسٍ علماء ولاهوتيّين هوًى في نفوسهم، حوّلهم بعد سنواتٍ قليلةٍ، إلى عائلةٍ روحيّةٍ، طوّقت العالم كلّه، بما سمّاه بكلّ تواضعٍ، "جماعة الصلاة"؟

ولِمَ تراه وَهَبَه وحدَه، دون جميع الكهنة الذين عَرَفتهم الكنيسة، منذ ألفَي عامٍ إلى مطلع القرن العشرين، بُعَيد سيامته الكهنوتيّة بسنواتٍ قليلةٍ، جراحَه الخمسة إيّاها، تنفتح في يدَيْه وقدمَيْه وجنبه، وتنزف دونما انقطاعٍ، حتى التأمت، تلقائيًّا، قُبَيْل موته بساعاتٍ؟

ولِمَ تراه جعل أناسًا عاديّين وأطبّاء، وملحدين اهتدوا على يده، يعترفون في فخرٍ وتواضعٍ جمٍّ، بوجود هذه السمات وقدسيّتها، فيما معظم الرهبان في جمعيّته، والعدد الكبير من المسؤولين الكنسيّين في إيطاليا، بل في الڤاتيكان نفسه، ظلّوا يمطرونه، حتّى ساعاته الأخيرة، بوابلٍ من الافتراءات القبيحة، والاتّهامات المختلفة، بل بإجراءاتٍ ظالمةٍ وخارجةٍ عن كلّ قانونٍ كنسيٍّ؟

ولِمَ تراه، وَهَبه من الغنى الروحيّ، منعةً فائقةً ودائمةً، حالت دون إغواء الأموال الطائلة له، المتدفّقة عليه، من أجل إنشاء معجزة "بيت تخفيف الألم"، فيما العدد الكبير من المسؤولين في جمعيّته الرهبانيّة، بل من المسؤولين الكنسيّين الكبار، يؤخذون بشهوة المال والدنيا؟

ولِمَ تراه، أخيرًا، منع جسده، بعد موته، من الفناء السّاري على كلّ مخلوقٍ، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، حتّى جعله قبلةً، أكاد أقول حيّةً، للساعين وراء معنى الوجود؟

وأمّا كلمتي الثالثة والأخيرة، فلصديقي وأخي، أديب، مؤلّف هذا الكتاب. وإنّي لأهمس بها في أذنه، بكلّ حبٍّ:

الشكر لك، ربّي يسوع، لأنّكَ وَهَبتَ كنيستَك العربيّة المرجوّة، عاشقًا لك بحجم ولدك أديب، إيمانًا، وفكرًا وقلمًا واتّضاعًا!

وأطلب إليك، أن تمدّ ولدَكَ أديب، بالصحّة والهمّة، فما زالت الأسماء عديدةً، بل كثيرةً، تلك التي تنتظر حصّتها من قلمه المبدع، ومكانها في سلسلة "النوابغ" الرائدة.

الأب الياس زحلاوي

دمشق في ٢٠٢٣/٧/٩

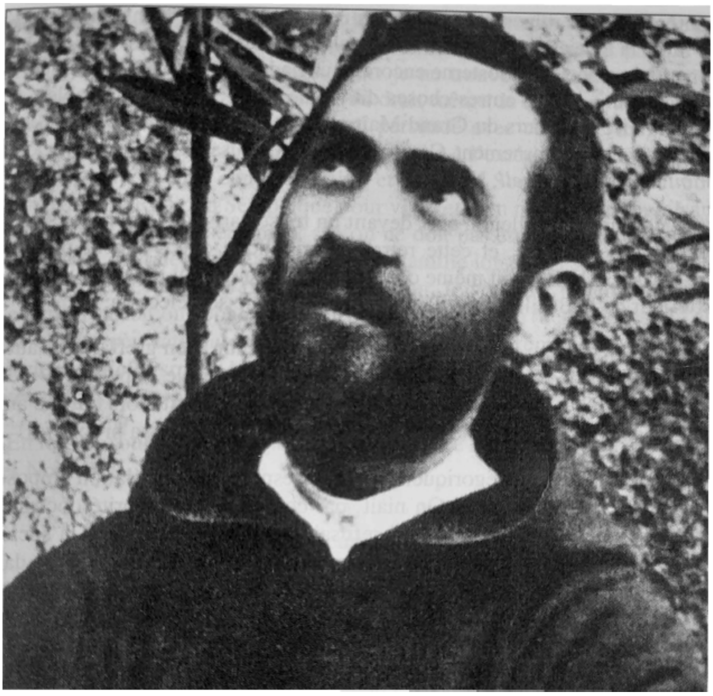

الجُزْءُ الأَوَّل

نشأةٌ فقيرةٌ ورعةٌ، وسعيٌ إلى الكهنوت

نشأته

"فرنشيسكو فُرجونِه" (Forgione) هو الاسم المدنيّ للذي أصبح پادري پيّو، أي (الأب پيّو).

وُلد في قرية "پيْترِلْشينا،" (Pietralcina)، الرابضة على أحد سفوح جبل "غرغانو" (Gargano) في منطقة "فوجّا" (Foggia)، بجنوب إيطاليا، على مسافة تسعين كيلومترًا من مدينة ناپولي، جنوبًا، وعلى بعد ثلاثة عشر كيلومترًا من مدينة "بِنِڤينتو" (Benevento) مركز الإقليم.

لفظة "پيْترِلْشينا،" تعني الصخرة التي تنبت سندِيانًا. والقرية المعروفة بهذا الاسم جاثمةٌ على تلّةٍ جرداء صخريّةٍ، قليلة الخصب. ولكنّ تعرّضها للشمس، في معظم أيّام السنة، يؤهّلها لزراعة القمح، ولغرس أشجار الزيتون والتّين. أمّا التّربة القليلة فيها فتنظّم مساكب صغيرةً، وتُخدَم بعنايةٍ، وتُستنبَت فيها الخضراوات الأساسيّة التي يقوم عليها الغذاء اليوميّ.

يسكن پيْترِلْشينا، زهاء ثلاثة آلاف نسمةٍ، ويتقاسم معظم أراضيها أربعة ملّاكين كبارٌ، يستأجرون للعمل فيها سواعد أبناء قريتهم. ولكنّ طموح بعض هؤلاء العمّال الزراعيّين دفعهم إلى الاستقلال بأرضٍ تخصّهم، يكدّون فيها من أجل أُسَرِهم، فقتّروا، واقتصدوا، وابتاعوا رُقع أرضٍ صغيرةً، ودأبوا على توسيعها، بابتياع المزيد، رُقعةً صغيرةً، فرقعةً صغيرةً، إلى أن امتلكوا ما يكفي لتأمين الغذاء الكافي لأُسرهم. وكانت أسرة فُرجونِه من تلك الفئة التي قتّرت، واقتصدت، وابتاعت أمتارًا وأمتارًا، حتّى بات لها ما يكفيها لعيشها.

والد فرنشيسكو "غراسيو فُرجونِه" (Grazio Forgione) كان يمتلك رقعتي أرضٍ صغيرتَيْن. وعام ١٨٨١، وهو في سنّ العشرين، تزوّج ابنة مزارعٍ من قريةٍ مجاورةٍ، تدعى "ماريّا جيوزيپا دي نونسيو" (Maria Giuseppa di Nunzio). كانت تكبر زوجها سنةً واحدةً، وقد أحبّت فيه شهامته، ووسامته، واستقامته، ودأبه على العمل، وحسن معشره. وأهدته، بمثابة مهرٍ، مزرعةً صغيرةً، لا تتعدّى مساحتها هكتارًا، وتحتوي كرمًا، وأشجارًا مثمرةً، ومساكب لزراعة الخضراوات.

لم تكن الأُسرة تملك مالًا، ولكنّها بفضل كدح الوالد، وحُسْن تدبير الوالدة، لم يُعانِ أحدٌ من أفرادها جوعًا. فقد كانت أراضي الأُسرة التي يبرع الوالد في استثمارها توفّر لهم حاجاتهم من القمح والذرة والزيتون والتين والخضراوات الضروريّة للغذاء اليوميّ، وكانت تستعين الأُسرة أيضًا بإنتاج الإوزّ والدجاج والنعاج والأرانب.

كان غراسيو فُرجونِه يسير، كلّ صباحٍ، نحو ساعةٍ إلى مزارعه الصغيرة ساهرًا على مزروعاته، ويسير ساعةً أخرى، مساءً، عائدًا إلى بيته. وفي مواسم الحصاد والقطاف، عندما كانت الأعمال لا تحتمل تأجيلًا أو تريُّثًا، كانت ترافقه زوجته وبناته مزوّداتٍ بالطعام والشراب اللازم، ويقضون ليلتهم في الحقل كي يستأنفوا العمل مع انبثاق الفجر.

وبالإجمال، كانت الأسرة مكتفيةً، ولكنّ ربّما كان يطمح في توفير المزيد من اليُسر والبحبوحة لها.

بادئ الأمر، سكن الزوجان في بيت والد الزوج، حيث أنجبا بكرهما "ميكيلي". ثمّ انتقلا إلى منزلٍ خاصٍّ ورثه غراسيو من ذويه، مؤلّفٍ من أربع حُجَرٍ مبعثرةٍ على جانبي الحيّ. وفيه أنجبا ثلاثة أبناءٍ سرعان ما خطفتهم المنيّة. ويوم ١٨٨٧/٥/٢٥، رُزقا صبيًّا أبقاه الله حيًّا، ولكنّه استأثر به تمجيدًا له وللكنيسة. وفي الغداة نال الطفل سرّ العماد، وأطلقت عليه والدته اسم فرنشيسكو تيمّنًا بالقدّيس الذي كانت تخصّه بأعمق تكريمٍ، الملائكيّ فرنسيس الأسّيزيّ.

وقد تمّت عمادته في كنيسة القدّيسة مريم سيّدة الملائكة، المحتوية على تمثالٍ للعذراء "سيّدة التحرير"، تخليدًا لذكرى ظهورها في الجوّ، أثناء حصار جيش الملك قسطنطين لمدينة "بِنِڤينتو" (Benevento) مركز الإقليم، عام ٦٣٣. وقد زرع ظهورها هذا الرعب في قلوب الجنود البيزنطيّين، وأكرههم على رفع الحصار، والعودة إلى حيث أتوا! ومنذئذٍ، غدا أبناء المنطقة يلتمسون شفاعة سيّدة التحرير، كلّما ألمّت بهم كارثةٌ أو أزمةٌ أو وباءٌ، وكانت تنقذهم منها. وما الزّينة الثمينة والوفيرة التي تغطّي كلّ تمثالها سوى الدليل على تكريم أهالي تلك المنطقة لها، والتعبير عن عرفانهم لجمائلها.

وُلد فرنشيسكو هشًّا نحيلًا. وكان، في أيّامه الأولى، لا يكفّ عن البكاء، فكانت والدته تقضي لياليها مصلّيةً كي يصمت رضيعها قليلًا. أمّا والده فكان يضيق ذرعًا من بكائه المتواصل، الذي كان يحرمه سُويْعات نومٍ كان في أشدّ حاجةٍ إليها كي يريح جسده المكدود من نَصَب النهار. وبلغ به الضيق، ذات ليلةٍ، أن انتزعه من مهده وألقاه على السرير وهو يدمدم: "لقد وُلِد شيطانٌ لا يكفّ عن النحيب".

وعلّق الأب پيّو لاحقًا على هذا الحدث، مازحًا، بقوله: "منذ تلك الليلة انقطعت عن البكاء". وعن طفولته قال: "كنتُ معكرونةً بلا ملحٍ، ولم ألعب قطّ".

فهو مذ ترعرع قليلًا، لم يُطِقِ الاختلاط بأترابه، لأنّه لم يكن يحتمل سماع شتائمهم وتجاديفهم. وكان يؤثر الانزواء وحيدًا في كنيسة سيّدة الملائكة، على مقربةٍ من مدفنٍ يضمّ ذخائر البابا پيّوس الذي استشهد عام ١٥٥، وأهدى البابا پيّوس السابع، عام ١٨٠١ ذخائره إلى وجيهٍ، أهداها بدوره لكنيسة پِيتِرِلْشينا، وربّما هذا ما يفسّر اختيار فرنشيسكو اسم پيّو لكهنوته.

ومنذ طفولته لوحظت لديه نزعةٌ إلى التمثّل بيسوع، وقد فوجئت والدته، يومًا، برؤيته راقدًا على الحضيض متوسّدًا حجرًا، وفي مرّةٍ أُخرى وجدته منعزلًا في حجرةٍ

يجلد نفسه بسلسلةٍ حديديّةٍ. واستفسرته عن سبب فعلته، فأجاب أنّه يريد التمثّل بيسوع الذي جلده الجنود الرومانيّون.

ولطالما روى فرنشيسكو لوالدته رؤيته ليسوع والعذراء، وتحدّثهما إليه، وتوجيهاتهما له. وهو، في براءته، كان يظنّ أنّ ذلك يحدث لكلّ الأطفال، ولطالما روى لوالدته أنّ ملاكه الحارس يأتي، غالبًا، كي يحميه ويرشده ويلعب معه.

ويشهد مرشده الروحيّ، الأب بينيديتّو أنّه، لمّا كان بين سنّ الخامسة والسادسة ظهر له يسوع، وكشف له عن قلبه، ودعاه إلى الاقتراب من الهيكل، ووضع يده على رأسه، مرحّبًا بتقديمه ذاته له ولحبّه، ولخلاص الخطأة. ومنذئذٍ، ما انفكّت تلك الرغبة تترسّخ في نفسه، وما فتئت شعلة حبّه ليسوع تزداد اضطرامًا، وعزمه على تقديم ذاته ضحيّة فداءٍ تتنامى. وازداد ميلًا إلى العزلة والخلوة في كنيسةٍ خاويةٍ، أو في حقلٍ يصلّي فيه بهدوءٍ.

ومع ميله إلى الانزواء، لم يتردَّ إلى الكآبة والفظاظة، بل كان يحبّ المزاح، وإغداق الكلمات الطيّبة، حتّى على الذين يسخرون من براءته وهدوئه.

ومن جرّاء ثقة والديه به أوكلا إليه رعاية أغنام الأُسرة وخرافها، في التلال المجاورة، فكان ينطلق بها كلَّ صباحٍ، مزوَّدًا بشيءٍ من الخبز والجبن، مع رفيقه لويجي، وعند عودتهما بُعَيْد الظهر كانا يقصدان، مع ثلّةٍ من الرفاق، رجلًا في القرية، ملمًّا بالقراءة، فيتعلّمون منه "فكّ الحرف"، بأسلوبٍ بدائيٍّ. ولكنّ فرنشيسكو الذي كان يتطلّع إلى اعتناق الكهنوت، لم يكتفِ بهذا العلم.

وفي تلك الحقبة كان ما زال للمنجّمين والسحرة والمشعوذين تأثيرٌ، فكانت والدة فرنشيسكو، كلّما توجّع طفلها، ولم تجد إلى إزالة وجعه سبيلًا، تفزع إلى مطبّبٍ مشعوذٍ يقرأ له تعويذةً، أو يكتب له رقيّةً، أو يحرّكه حركاتٍ بهلوانيّةً، وكان الطفل يشفى أحيانًا من وجعٍ عارضٍ.

واتّفق أن سكن، على مقربةٍ من منزل الأُسرة، رجلٌ مسنٌّ مولعٌ بمتابعة حركات الكواكب وتأثيرها على البشر، واشتهر بامتلاك قدرات فراسةٍ، واعتملت في نفس جيوزيبا فُرجونِه الرغبة في استطلاع مصير طفلها فرنشيسكو فأخذته إليه، وحدّق إليه الرجل المسنّ بعمقٍ، وتنبّأ بأنّ العالم كلّه سيكرّم هذا الطفل، وبأنّ أموالًا طائلةً ستمرّ بين يديه، ولكنّه لن يمتلك شيئًا منها.

في تلك المرّة صدق المنجّم، غير أنّ والدة فرنشيسكو، في سذاجتها، لم تدرك مغزى النبوءة البعيد، بل ظنّت أنّ ابنها سيهاجر إلى أميركا، أُسوةً بقروييّن كُثُرٍ، وأنّه سيعمل في مهنةٍ تتعلّق بإدارة الأموال.

ومع ذلك، كانت أُسرة فُرجونِه تحيا في جوٍّ مسيحيٍّ متينٍ، حارّ الإيمان، وكان أفراد الأُسرة يلتئمون كلّ مساءٍ لتلاوة المسبحة. ونما فرنشيسكو تحت أنظار والدته، وتعلّم باكرًا الصلوات الأساسيّة، واعتاد الشخوص اليوميّ إلى الكنيسة.

ورأفةً بهشاشته، لم يُلزمه والده بأعمال الحقل الشاقّة، بل اقتصر على تكليفه برعاية نعاج الأُسرة وخرافها، في التلال القريبة، حيث كان يتابع في الفلاة، وفي أحضان الطبيعة، تأمّلاته، وأحلامه في مستقبلٍ مكرّسٍ لخدمة الله.

وفي سنّ التاسعة استصحبه والده إلى كنيسة قريةٍ قريبةٍ، كانت تحتفل بعيد شفيعها القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ. فتسنّت له مشاهدة عجيبة شفاءٍ انحفرت صورتها في ذاكرته وقلبه. فقد كانت في الكنيسة امرأةٌ تمسك بين يديها طفلًا مشوّهًا، مشلولًا، مصابًا بإعاقاتٍ عديدةٍ، وكانت تلتمس من القدّيس فرنسيس شفاعته من أجل شفاء ابنها، وتكرّر التماساتها بحرقةٍ، والحزن يكاد يذهب بعقلها. وبعد لأيٍ، صمتت، بغتةً، وجثَت أمام الهيكل، ثمّ نهضت ورمَت بابنها أمام تمثال القدّيس صارخةً: "بما أنّك لا تريد شفاءه، فأنا أُعطيك إيّاه". وحينئذٍ، ضمّ الفتى فرنشيسكو دعاءه الملتهب إلى

لهفة دعاء الوالدة، سائلًا شفيعه الحبيب والربّ يسوع أن يعزّيا قلب أمٍّ جريحًا. وإذ بالطفل ينهض على قدميه معافًى صحيحًا. وسارع غراسيو فُرجونِه إلى رفْع فرنشيسكو على كتفَيْه، مخافةَ أن يُداس تحت أقدام الجمع الذي أذهلته المعجزة.

وترسّخ لدى الفتى فرنشيسكو قرار تكريس ذاته لخدمة الربّ.

استعدادٌ للكهنوت

استحوذت على نفس فرنشيسكو دعوةٌ آسِرةٌ إلى تكريس نفسِه للربّ، ولمس والده رغبة ابنِه الحارقة هذه. وكان الوالد أيضًا يتمنّى أن يرى فرنشيسكو كاهنًا كبّوشيًّا، فآلى على نفسه تحقيق هذا الهدف، مهما اقتضى من تضحياتٍ، ولا سيّما أنّ رغبة فرنشيسكو ووالده، تلاقت مع رغبة الوالدة، التي طالما حلمت في رؤية ابنها راهبًا في إطار الأُسرة الفرنسيسكانيّة.

وكانت مبادرة غراسيو فُرجونِه الأولى قيامه برحلةٍ إلى مدينة بولونيا حيث ابتاع لابنه كتاب قواعد اللغة اللاتينيّة، ودفع ثمَنَه أربع عشرة ليرةً، وهو مبلغ يبهظ ميزانيّة فلّاحٍ، في ذلك الزمن. فبذلك المبلغ كان يمكنه شراء مجموعة أدواتٍ زراعيّةٍ، تريحه في عمله، وتضاعف مردودَ إنتاجِه. وقد انحفرت هذه التضحية في أعماق نفس فرنشيسكو، ولـمّا زاره والده في ديره بعد ثلاثين سنةً، قدّم الأب پيّو لوالده أربع عشرة ليرةً، بحجّة أنّها نفقة سفره. ولـمّا امتنع والده عن قبول المبلغ صارحه ابنه بأنّه يسدّد دينًا، لأنّه لا يطيق أن يكون مدينًا. ثمّ أوكل غراسيو ابنه إلى معلّمٍ، كان قد استقرّ حديثًا في القرية، وأعلن تمكّنه من تدريس اللغات، وكلّفه بتعليم فرنشيسكو اللغتَيْن اللاتينيّة والإيطاليّة الرسميّة، لقاء خمس ليراتٍ في الشهر، وهو أيضًا مبلغٌ باهظٌ، إذ كان كفيلًا بشراء عشرين كيلوغرام حنطةٍ.

ولكي يتمكّن غراسيو من مواصلة دفع نفقات تعليم فتاه، أوكل إلى ابنه البكر "ميكيلي" العناية بمزارع الأُسرة الصغيرة، وهاجر إلى أميركا، أُسوةً بالعديد من مواطنيه. ولا ريب أنّ هذا القرار كان له تضحيةً كبرى. فهو، مع ضآلة موارده من أراضيه الشحيحة، كان ربّ مزرعته، ومع ذلك، ارتضى العمل أجيرًا لدى أسيادٍ غرباء، من أجل تعليم ابنه.

وخفيَ على غراسيو أنّ اختياره لمعلّم ابنه لم يكن موفّقًا. فنجاح التعليم يحتاج إلى تناغمٍ بين المعلّم والتلميذ، أكثر من احتياجه إلى معارف المعلّم. وسرعان ما استشفّت نفس فرنشيسكو الطاهرة افتقار المعلّم إلى الطهر وإلى روحِ الله. وربّما شعر المعلّم، في سريرة نفسه، أنّ رفض التلميذ لتعليمه هو رفضٌ لماضيه المخزي. ومع ذلك، أغلظ المعلّم القول لفرنشيسكو، ووَصَفه بالحمار، وأعاده إلى والدته.

ودلّ حسّ الوالدة المسيحيّ الصرف، وثقتها بذكاء ابنها ونباهته وبرغبته العارمة إلى التعلّم، تأهّلًا للكهنوت، وورَعه الصادق، وحكمه السديد في جميع الأمور، إلى أنّ في الأمر سرًّا، وأماط ابنها اللثامَ عن ذلك السرّ بقوله: "لقد أُوصِد ذهني رفضًا لتلقّي العلم من معلّمٍ فاسدٍ".

واتّضح لاحقًا أنّ ذلك المعلّم الغريب كان كاهنًا، وعشق إحدى فتيات رعيّته، فتخلّى عن كهنوته وتزوّجها، وسكن في قريةٍ غريبةٍ حيث أخفى حقيقته عن الجميع.

وأوكلت جيوزيپا فُرجونِه ابنها، إلى معلّمٍ آخر، تبيّنَ، منذ اللحظة الأولى، لدى فرنشيسكو قدرةً مدهشةً على الاستيعاب، ورغبةً حارقةً إلى التعلّم، ودأبًا على الاستذكار والمطالعة، وانتظامًا ومنهجيّةً مثاليَّيْن. فقد كان ينزوي، ساعاتٍ، في حجرته الضّنكة الجاثمة فوق صخرةٍ، عاكفًا على الدراسة، واستعاضة الوقت الضائع.

وبعد بضعة أشهرٍ، بذل فيها التلميذ جهدًا دؤوبًا، وسهر المعلّم عليه سهرًا يقظًا، صارح المعلّم والدة فرنشيسكو: "لم يبقَ لديّ ما أُعلّمه إيّاه، فقد أمسى يعلم بقدر ما أنا أعلم، وعن قريبٍ سيعلّمني".

نَهم فرنشيسكو إلى العلم، ودأبه الجاهد في تحصيله، لم يخفّف، في شيءٍ، من حرارة تقواه. وكان توقه إلى الحياة الكلّيّة في المسيح، قد دفعه إلى طلب حصوله على المناولة

الأولى في سنّ التاسعة. ولكنّ طلبَه رُفض، التزامًا بالقوانين الكنسيّة السائدة آنذاك. وكان عليه بلوغ الثانية عشرة كي يحقّق أمنيّته، وحقّقها مضاعفةً. فيوم ١٨٩٩/٩/٢٧، نال المناولة الأولى وسرّ التثبيت، في يومٍ واحدٍ، من يد رئيس الأساقفة. وحفر ذلك الحدث في نفسه أثرًا بليغًا عبّر عنه بعد أن أصبح كاهنًا، وأعدّ أربع مئةٍ وخمسين فتًى من قريته لنيل نعمة التثبيت، وكتب، حينئذٍ، لمرشده الروحيّ:

«كم بكيتُ في قلبي عزاءً، أثناء ذلك الاحتفال المقدّس، وأنا أتذكّر الشعور الذي أشاعه الرّوح القدس في قلبي، يوم تلقّيت سرّ التثبيت. يستحيل عليّ، مدى الحياة، نسيان المباهج العذبة الجمّة التي أذاقني إيّاها الروح المعزّي. وما زلتُ، كلّما استذكرتُ ذلك اليوم، ينتابني شعورٌ بغرامٍ حادٍّ يلتهمني، ويحرقني، ولكنّه لا يؤلمني».

انتهت، إذن فترة التأهّب، وفتح المستقبل أبوابه لفرنشيسكو فُرجونِه الذي بلغ الخامسة عشرة، فتقدّم بثقةٍ إلى المدرسة الكبّوشيّة.

وعلى عتبة انضمامه إلى الرهبنة الكبّوشيّة، خطرت له ثلاث رؤًى، كانت بمثابة إشاراتٍ وصوًى لمسيرته المكرّسة، وملخّصٍ لمستقبله. وهو، امتثالًا لأمر رؤسائه، دوّنها كالتالي:

الرؤيا الأولى جرت في أواخر عام ١٩٠٢، إذ كان فرنشيسكو يُعمل الفكر في المسيرة التي كان عازمًا على انتهاجها، واقتراب دخوله الدير.

رأى، إذن، إلى جانبه رجلًا جليلًا، فائق الجمال، أبهى من الشمس، أمسك بيده، ودعاه إلى مرافقته، وقال له: "عليك أن تصارع محاربًا شديد المنعة". واقتاده إلى فلاةٍ شاسعةٍ حيث احتشد جمعٌ غفيرٌ، من فريقَيْن. فمن جانبٍ رجالٌ جميلو المحيّا، يرتدون ثيابًا بيضاء، في مثل نصاعة الثلج، وفي الجانب الآخر قومٌ قبيحو المنظر، يرتدون ثيابًا سوداء، ويبدون كالأشباح.

وحرّضه مرافقه، فائق الجمال، على مصارعة رجلٍ شاهق القامة، يلامس جبينه الغيوم، شديد القباحة. وتوسّل فرنشيسكو إعفاءه من هذه المهمّة بلا طائلٍ، واكتفى مرافقه بالقول: "لا تخفْ، لن أسمح له بالتغلّب عليك". هُزِم الخصم الجبّار. وحينئذٍ، تُوِّجت هامة الفتى فرنشيسكو بإكليلٍ يصعب وصف روعته، ولكنّه ما لبث أن أُزيل، ووعده مرافقه بإكليلٍ أجمل، كان يُعَدُّ له، وأنذره بأنّ الجبّار الذي صارعه وقهره لن يكفّ عن مهاجمته. ولكن عليه ألّا يخشى نتيجة النزال، لأنّه سيكون منتصرًا دائمًا.

أثناء المصارعة كان فريق دميمي الوجوه ينبحون، ويجدّفون، ويُطلقون اللعنات. فيما كان بهيّو المحيّا يصفّقون، ويُنشدون، ويُرتِّلون مسبّحين الكائن النيّر المرافق لفرنشيسكو.

هكذا انتهت الرؤيا الأولى، ولكنّ ما زخرت به من صراعاتٍ أقلق الفتى فرنشيسكو، واستبهم عليه مغزاها.

وفي مطلع عام ١٩٠٣، خطرت له رؤيا ثانيةٌ، إثر تناوله الإفخارستيّا، وصفها بنورٍ داخليٍّ، غمره لحظاتٍ، ولكأنّه كان إضاءةً للرؤيا السابقة، وأفهمته أنّه مُقدِمٌ على الانخراط في جيش يسوع الذي يُصارع إبليس.

في الخامس من شهر كانون الثاني ١٩٠٣، كانت قد اكتملت جميع الوثائق المطلوبة، وحُدِّد موعد دخوله الدير في اليوم التالي. وفي ليلة الخامس إلى السادس من كانون الثاني رأى يسوع ومريم يغدقان عليه أقوال التحفيز والدعم والعطف.

الكبّوشيّ المبتدئ

يوم السادس من كانون الثاني ١٩٠٣، إثر حضوره القدّاس، ودّع فرنشيسكو فُرجونِه جميع أفراد أُسرته، وأقرباءه الذين التأموا لهذه المناسبة، التي كانت، على حدّ قول والدته، أشبه بمأتمٍ.

وواكبه، سيرًا على الأقدام، إلى محطّة القطار التي كانت تبعد نحو كيلومترين عن المنزل، والدته ومعلّمه، واثنان من رفاق دراسته. قبل صعوده إلى القطار جثا فرنشيسكو أمام والدته طالبًا بركتها، فردّت، منتحبةً: "يا بنيّ، أنت تحطّم قلبي... ولكن، بعد الآن، لا تفكّر بألم أمّك، فالقدّيس فرنسيس قد دعاك، فامضِ إليه".

وما إن انطلق القطار حتّى أُغمي على جيوزيپا فُرجونِه، أمّه.

دير مُركونِه، حيث أمضى فرنشيسكو مرحلة الابتداء، في منطقة ناپولي، كان يصار إليه عبر دروبٍ مفروشةٍ بحصًى. وكانت صوامع الدير مُغرقةً في الضيق، قائمةً على قناطر واطئةٍ، وعلى تباينٍ سافرٍ مع الحديقة المحيطة بالدير، المزدانة بالأشجار الباسقة، والنباتات المتنوّعة، ومناهل الماء العديدة.

مفاجأةٌ سارّةٌ، كانت تنتظر القادم الجديد عند باب الدير، حيث رحّب به الأخ البوّاب، وتعرّف فيه وجهًا مألوفًا وجه راهبٍ مُسِنٍّ، ذي لحيةٍ بيضاء تلامس صدره، طالما كان قد طرق باب ذويه، لسنواتٍ خلت، مستعطيًا من أجل ديره، عملًا بالنظام الفرنسيسكانيّ. فعندما كان ذلك الراهب يطرق باب ذويه كان فرنشيسكو الفتى يزداد إعجابًا بالثوب الفرنسيسكانيّ الخشن، وبالفقر الطوعيّ الرهبانيّ، الذي رغب في ممارسته إضافةً إلى الفقر القسريّ الذي نشأ في أحضانه.

وعندما كانت والدته تعود مساءً من الحقل، كان فرنشيسكو يروي لها بسرورٍ زيارة الراهب، ويقول: "أنا، أيضًا، أريد أن أكون راهبًا بلحيةٍ".

ضمّه، إذن، الأخ البوّاب بمودّةٍ، إلى صدره، ورحّب به أترابه الرهبان، وباشر ابتداءً في الحياة الرهبانيّة في جوٍّ من التفاؤل والاندفاع. فكان أوّل المستيقظين صباحًا، والمثابرين على مقاعد الدرس. وتميّز بكونه آخر مغادرٍ للمعبد. ولـمّا زارته والدته، بعد بضعة أشهرٍ، أسهب الرؤساء في امتداحه.

وقد باح الأخ پيّو، لاحقًا، أنّ عظامه، في تلك اللحظات كانت تتحطّم داخله، وذكر أيضًا، أنّ يسوع وأُمّه العذراء قد زاراه في الحلم، ليلة ذهابه إلى الدير، ووعداه بإحاطته بحبّهما وإيثارهما. وأنّ يسوع وضع يده على رأسه، وباركه.

وكتب الأخ پيّو، لاحقًا: "... لا بدّ من دعمٍ منيعٍ للصمود في الدعوة. أنا لم تساورني، قطّ، تجربةٌ ضدّ دعوتي. وعندما يظهر لي إبليس أستذكر مشهد وداع والدتي، وأستعيد عزيمتي". وكان ذكرى وداعه الممزّق لوالدته، يطوف في خاطره كلّما اشتدّت عليه تجارب إبليس ولوعات الاشتياق.

كان على القادمين الجدد، قبل ارتدائهم الثوب الرهبانيّ، والشروع في مرحلة الابتداء، قضاء خمسة عشر يومًا في خلوةٍ روحيّةٍ، صامتين، متأمّلين في الحياة الرهبانيّة، والنظام الكبّوشيّ.

على باب الدير، كانت لافتةٌ، بحروفٍ جسيمةٍ، تقول: "التّوبة أو جهنّم". و"التّوبة" كانت تعني قسوةً وممارساتٍ موروثةً من القرون الوسطى. فالصوامع الضّنكة كان قيظها الخانق صيفًا، وخلّوها من كلّ نسمةٍ منعشةٍ، وبردها القارس اللاذع الذي ينخر العظام شتاءً، وافتقار الصومعة إلى أيّة وسيلة تدفئةٍ، مصدر استشهادٍ يوميّ. وبالإجمال، كانت الصّومعة زنزانةً، وكان فرنشيسكو يعيش فيها سعيدًا، مشاركًا الربّ آلامه.

فوق سرير المبتدئ، كان صليبٌ خشبيٌّ، ينبغي أن يضعه على صدره أثناء سويعات نومه، وهو مرتدٍ كامل ثيابه.

واتّفق أن كان فرنشيسكو، يومًا، مع زميلٍ له، أصبح، لاحقًا، الأب "أنستازيو" وحيدَيْن في الكنيسة، ولحظا في خزائن رهبانٍ وإخوةٍ أدوات جَلْدٍ مكوّنةً من حبالٍ أو جلودٍ عُقِدت في أطرافها كتلات حديدٍ، فعرّيا ظهرَيْهما، وأنزلا عليهما جلداتٍ قاسيةً، إلى أن هتف رفيقه: "كفى، اليومَ!"، فأعادا المجالد إلى أماكنها، وأكملا تأمّلاتهما.

بيد أنّ رفيقه ذاك، ما لبث أن سئم الجَلْد الطوعيّ، ولذعات البرد، والاستيقاظ في عزّ الليل للصلاة، وقول "نعم" في حين يقول الكيان كلّه "لا"، وسئم الصمت المنافي للطبيعة النابوليّة الضاجّة الصّاخبة، فقال لفرنشيسكو: "هذه القسوة ليست لنا. فلنرحل غدًا، وخُيِّل إلى فرنشيسكو أنّ شيطانًا استحوذ على نفس رفيقه، فردّ بعزيمةٍ: "لقد فعلنا المستحيل كي نصل إلى هنا، فكيف نرحل؟ وماذا سيقول الذين ساعدونا على المجيء إلى هنا، ولم يمضِ على مجيئنا سوى أيّامٍ معدوداتٍ؟ ثقْ أنّنا، شيئًا فشيئًا، بمعونة العذراء، والقدّيس فرنسيس، سنعتاد هذه الحياة، مثلما اعتادها آخرون. ألا تظنّ أنّ جميع مَن هم في هذا الدير قد عانوا ما نعانية الآن، وأنّ ما من إنسانٍ يولد "راهبًا كاملًا؟".

كلّ تأمّلات فرنشيسكو، آنذاك، كانت تدور حول آلام الربّ، وكان أثناءَها يظلّ راكعًا، ودموعه تنهمر على الأرض، وكان يتابعها في ممرّات الدير، وفي الحديقة، وفي صومعته. ولمّا لاحظ أنّ بعض رفاقه يسخرون منه لأنّ المكان الذي يركع فيه للصلاة كان يطوف بوابل دموعه، اعتاد أن يبسط أمامه منديلًا أمام ركبتيه، وينتزعه مبلّلًا يعصر ماءً عند الانتهاء من تأمّله.

ورغبةً في قضاء مزيدٍ من الوقت للتأمّل والصّلاة، كان يستأذن إعفاءه من الاستراحة والنّزهات، وأحيانًا من العشاء كي يتابع الصّلوات في الكنيسة أو في صومعته.

وكان الأوفرَ دأبًا على التعبّد للقربان المقدّس، والتخشّع أمام إيقونات العذراء، والقدّيسين.

ومع أنّ الطعام المقدّم، في مرحلة الابتداء، كان شظِفًا، إلّا أنّه كان كافيًا لإشباع مِعَدِ مراهقِين. غير أنّ وجبات الطعام كانت لفرنشيسكو تضحيةً قاسيةً، ولطالما استبدل طبقه الملآن بطبق جاره الفارغ.

وبالإجمال، كان الابتداء امتحانًا صعب الاحتمال. ولكنّه كان للّذين يحتملونه بوتقةً تُخرج معدنًا فولاذيًّا بالغ الصلابة، وروحانيّةً ساميةً منيعةً.

ومن ذكريات فرنشيسكو الحزينة عن تلك الفترة، أنّ مطالعتهم اليوميّة كانت محصورةً في خمسة عشر سطرًا من كتابٍ عتيقٍ، يعيدون قراءته كلّ النهار؛ ومن تلك الذكريات كان إكراههم على ارتداء الألبسة التي يُعطَوْنَها اعتباطًا، إذ كان بعضها يفيض عن مقاسهم، وبعضها من الضيق، بحيث يتمزّق أثناء ارتدائه.

وكان على المبتدئين أن يُبقوا أنظارهم منخفضةً نحو الأرض، لكي لا يلهيهم شيءٌ عن الخواطر الروحيّة. وبالتالي لم يرَ فرنشيسكو، قطّ، سقف الدير، وشوارع مدينة مُركونه.

وكتب الأب پيّو، لاحقًا، في هذا الشأن: "كم ارتاعت والدتي عندما جاءت لزيارتي مع والدي وشقيقي الأكبر، وانحدرتُ إلى قاعة الاستقبال مع معلّم الابتداء، ولكنّي لم أرفع أنظاري إليهم، ولم أوجّه كلمةً إليهم، قبل أن يأذن لي معلّم الابتداء بذلك. فخُيِّل إليهم أنّي فقدتُ عقلي، في حين كنتُ أتحرّق شوقًا إلى الارتماء على أعناقهم وتقبيلهم".

ومع ذلك، أحبّ الأخ پيّو حياة الابتداء هذه، لا حبًّا بالتألّم ذاته، بل لأنّه رأى فيه وسيلةً للتكفير عن الخطيئة، وللتمثّل بآلام الربّ، ولتحرير الرّوح من عبوديّة الجسد، تحريرًا يؤهّله للتحليق، بلا عائقٍ، في رحاب التأمّل، ومشاركة الربّ آلامه الفدائيّة.

وكان فرنشيسكو، آنذاك، ما زال في الخامسة عشرة.

انتهت، إذن، فترة الابتداء، ويوم ١٩٠٣/١/٢٢، خلع فرنشيسكو ثيابه المدنيّة، وارتدى الثوب البنّيّ الخشن، الذي يرمز إلى حياةٍ جديدةٍ قوامها الفقر والانتظام. والثّوب مزوّدٌ بغطاء رأسٍ يرمز إلى الحماية التي سيحيطه بها الله، وإلى التواضع الذي لن يحيد عنه، ويشدّ خصر الثوب حبلٌ أبيض دليلًا على القوّة التي سيهبه الله إيّاها، والطهر الذي سيلازمه.

وإثر ارتدائه الزيّ الكبّوشيّ الكامل أُعطي شمعةً، مرفقةً بهذا القول: "تقبّل نور المسيح، عربون الخلود، كي تموت عن العالم، وتحيا في الله. قمْ من بين الأموات، وليُضئ المسيح حياتَك".

وإكمالًا للموت عن العالم، تخلّى عن اسم فرنشيسكو فُرجونِه الذي عُرِف به، حتّئذٍ، واعتنق اسم پيّو، مضافًا إليه "دي پْيِترِلْشينا". وهو اسم مسقط رأسه، تمييزًا له عن رهبان آخرين، قد يعتنقون اسم پيّو تيمّنًا بالبابا الأوّل الذي حمل اسم پيّو، واستُشهِد عام ١٥٥، والباباوَيْن القدّيسَيْن پيّوس الخامس وپيّوس العاشر.

فوق باب صومعته، كانت معلّقةً لوحةٌ من موزاييك، دوّن عليها: "لقد متَّ، واختفتْ حياتُك، مع المسيح، في الله".

سريره كان مجموعةً من أربعة ألواح خشبٍ، وفراشه كان كيسًا محشوًّا قشور عرانيس ذرةٍ. وكان الراهب ينام على ظهره، مرتديًا زيَّه الرهبانيّ، ويداه مكتوفتان على صدره. أثاث صومعته كان منضدةً صغيرةً، وكرسيًّا، وصليبًا خشبيًّا كبيرًا، وكانت نوافذ جميع حجر الرهبان الضيّقة، تطلّ على الدير.

من ديرٍ إلى ديرٍ

يوم ١٩٠٤/١/٢٥، أُرسل الأخ پيّو، مع زملاء له، إلى ديرٍ كبّوشيٍّ آخر، في مدينة "پيانيزي" (Pianisi)، من أجل إكمال دراسته الثانويّة، قبل مباشرة الدراسات الكهنوتيّة. وكان معرّفَه، في ذلك الدير، راهبٌ شابٌّ يُدعى الأب "رفّائيلِه"، الذي شهد: "منذ لقائنا الأوّل، خلّف في نفسي انطباعًا فريدًا، وإعجابًا بسلوكه المثاليّ. كنتُ ما زلت شابًّا، مفتقرًا إلى الخبرة بالفضائل، ولكنيّ لحظت لديه ما يُميّزه عن سائر المكرَّسين". وكان الشعب الذي يؤمّ كنيسة الدير، يلحظ لدى ذلك الطالب تميّزه بتواضعه، وتضحياته، وخشوعه، وبمحبّته، وعذوبة معشره، وتحفّظه، وذوبانه في الله، الذي لا يطويه على ذاته.

وقد شهد أحد زملائه، أنّه كلّما دخل إلى صومعته، كان يجده، وكأنّه في فترة الابتداء، راكعًا أمام سريره، مغطّيًا وجنتَيْه براحتَيْه، مستغرقًا في التأمّل. ولم يتململ، يومًا، من بردٍ أو حرٍّ، أو شظف طعامٍ.

وقد لازمته موهبة الدموع، فكان مكان ركوعه، بعد المناولة، يتحوّل إلى ساقية دموعٍ، ولكنّه كان يتهرّب من إيضاح سبب بكائه، إلى أن أَمَره، يومًا، مرشده الروحيّ بتفسير دواعي بكائه، فأجاب: "أبكي خطاياي وخطايا البشر أجمعين". ولكأنّه صورةٌ لشفيعه الأسّيزيّ، الذي كان يبكي هاتفًا: "الحبّ المصلوب ليس محبوبًا!".

مناخ "پيانيزي" كان أفضل تأثيرًا على صحّة الأخ پيّو. غير أنّ حرص پيّو على إتمام كلّ مهمّةٍ على أكبر قدرٍ من الكمال، قد دفعه إلى الإسراف في الجهد، قارنًا العمل الذهنيّ الجادّ بالزهد والتّضحيات الجسديّة المضنية، حتّى أُصيب بالأرق، وفقدان شهيّة الطعام، والصّداع، وانتهى إلى انهيارٍ صحّيٍّ تامٍّ.

وذات يومٍ تلقّى والده رسالةً تنذره بأنّه إذا كان حريصًا على رؤية ابنه قبل وفاته، فليُسرع إلى استعادته. وهرع والده إلى الدير، واستفسر أوّل راهبٍ صادفه: "كيف حال الأخ پيّو؟".

– في غاية السوء. فهو منذ ثلاثة أسابيع، لم يتناول طعامًا، وغدت ساقاه عاجزتَيْن عن حمله، ولا أظنّ أنّك ستتركه هنا على هذه الحال!".

– بل سآخذه في الحال، وإن كان عليه أن يموت، فليمتْ في بيته".

وبما أنّ الأخ پيّو كان عاجزًا عن السير، فقد استدعى والده عربةً أوصلته إلى محطّة القطار، حيث استأجر مقاعد في الدرجة الأولى كي يوفّر له أكبر قدرٍ من الراحة. وعند وصولهما إلى قرية پِيترِلْشينا، كان الراهب الشابّ قد تحسّن، فأدخله والده إلى مقهًى، واقترح عليه كأس شرابٍ يشدّد عزيمته، فرفض، ولكنّ حاله كانت قد تحسّنت. فاستأجرا عربةً، وتوقّلا التلّة، ولمّا انتهت العربة إلى بيت شقيقته المتزوّجة، انحدر الراهب كي يحيّيها، وقال لوالده: "بلّغ والدتي أنّني قادمٌ سيرًا، عند الظهر". وجاء إلى البيت بعد نصف ساعةٍ، وعانق والدته التي كانت تُعِدّ له غداءً، قوامه نوعٌ من القرنبيط، فتناول منه حتّى امتلأ. وحينئذٍ سأله والده عن حاله، فقال: "ممتازةٌ جدًّا". لقد قام المحتضر معافًى!

نسيم القرية النقيّ، وطعام والدته والشراب الساخن الذي أعدّته له، من أزهارٍ انتقتها بعنايةٍ، كانت أجدى من كلّ عقاقير الأطبّاء.

غير أنّ مِحَنًا أخرى كانت تنتظره في الدير، فقد استأنف إبليس هجماته عليه بمزيجٍ من العنف والخداع، لا سيّما وقد توسّم عدوّ الله، في ذلك الراهب الشابّ، خصمًا خطيرًا سيسلبه آلافًا من ضحاياه.

ومن المراوغات الشيطانيّة التي تعرّض لها الأخ پيّو، في تلك المرحلة، أنّ النوم جفاه

في ليلةٍ خانقة الحرّ، وسمِعَ في الصومعة الملاصقة لصومعته ضجيجًا، فظنّ أنّ أخاه "أنستازيو" المقيم في تلك الصومعة، يعاني الأرق أيضًا، ففتح نافذته كي يناديه، ويتبادل معه أحاديث تساعدهما على مقاومة السهاد. ولمّا همّ بنداداته، أصابه الخَرَس، فقد رأى على حافّة نافذة الأخ أنستازيو كلبًا أسود ضخم الرأس، محدّقًا إليه بعينَيْن مفترستَيْن. وسرعان ما قفز، بقوّة هائلةٍ، إلى السطح، قبل أن يتلفّظ الأخ پيّو بكلمةٍ. وفي الصباح تبيّن أنّ الأخ "أنستازيو"، لم يكن في صومعته، لأنّه تلقّى أمرًا مباغتًا بالمثول إلى ديرٍ آخر.

وفي مرّةٍ أخرى، قُرِع بابُ صومعته، برقّةٍ، ودخل مرشده الروحيّ الأب "أغوستينو" باشّ الأسارير، ولكن ملتزمًا بوقاره. وإثر عبارات مجاملةٍ فارغة المضمون، شرع يؤنّبه، جاهدًا في إقناعه بعدم أهليّته للحياة النسكيّة، فصحّته المهترئة لن تصمد في مواجهة قسوة الحياة الكبّوشيّة، ولا سيّما عندما سيصبح كاهنًا، ويتعيّن عليه معاناة شظف العيش مدى العمر كلّه، في أماكن خاليةٍ من أيّ عزاءٍ. وفي الآن عينه، أكّد له أنّ تقديس النفس في الحياة العلمانيّة ممكنٌ، وأنّ الرسالة، فيها، رحبةُ الآفاق. أمّا ما يدّعيه الأخ پيّو عن هجماتٍ شيطانيّةٍ، فإن هو سوى مرضٍ نفسيٍّ، ناتجٍ عن خيالٍ جامحٍ، وإنّ إعلانه سيُلحق الأذى بسمعة الجمعيّة الكبّوشيّة.

بادئ الأمر، استمع الأخ پيّو باهتمامٍ إلى محدّثه، ولكن سرعان ما انتابه ارتيابٌ من جرّاء التباين الكلّيّ بين حديث ضيفه، مع موقف مرشده من رسالته، التي طالما شجّعه على المضيّ فيها إلى غاية الشوط. فاستنجد، داخليًّا، بالروح القدس، وبعد لحظة صمتٍ، صارح محدّثه: "أنت تعلم، يا أبتِ، أنّني لا أعتمد إلّا على مشيئة الربّ، وتبيُّنًا لهذه المشيئة، أرجوك أن نهتف، معًا: "يحيا يسوع!". وكان ذلك القول كافيًا لكي يتبخّر الزائر مخلّفًا وراءه رائحةً كريهةً.

ولكن، بالتزامن مع محاولة قوى الجحيم تحطيم عدوٍّ ناشئٍ، شرع الربّ يُغدِق على مختاره قدراتٍ تفوق الطبيعة، ويدعمه بها على تحقيق رسالته. فيوم ١٩٠٥/١/١٨، وهبه الله نعمة ثنائيّة الحضور، أي السفر إلى بعيدٍ، من أجل أداء مهمّةٍ رسوليّةٍ، وهو ما زال مقيمًا في ديره دائبًا على عمله اليوميّ. وقد روى الأخ پيّو تلك الظاهرة كالتالي:

"عند الساعة ٢٣ ليلًا، كنت في الكنيسة مع الأخ "أنستازيو"، وبغتةً وجدتُ نفسي في منزلٍ بورجوازيٍّ، تولد فيه فتاةٌ، وفي الآن عينه، كان والدها يفارق الحياة. وحينئذٍ ظهرت لي العذراء القدّيسة مريم، وقالت لي: "أوكل إلى عنايتك هذه الوليدة، فهي جوهرةٌ ثمينةٌ خامٌ. فاعمل عليها، واصقلها، وأضفِ عليها أكبر قدرٍ من التألّق، لأنّي أريد أن أتزيّن بها، ذات يومٍ. لا تحتَرْ، فهي ستأتي إليك، ولكنّك ستلقاها، أوّلًا، في كاتدرائيّة القدّيس بطرس بروما". وكنتُ ما زلت في كنيسة الدير".

كان الأخ پيّو، آنذاك، على مشارف الثامنة عشرة. وأدهشه ما حدث، حدوث حلمٍ وخيالٍ. وسارع إلى تدوينه، وسلّم التدوين، لاحقًا، إلى مرشده، الأب "أغوستينو". وكان الأشدّ إدهاشًا ما حدث، لاحقًا، فالآنسة "رتْساني" (Rizzani) التي كان الأخ پيّو حاضرًا في بيت ذويها، ساعة ولادتها، زارت كاتدرائيّة القدّيس بطرس، بعد ظهر يومٍ من عام ١٩٢٢، ورغبت في الاعتراف، ولكنّ كلّ كراسي الاعتراف كانت خاليةً من معرّفين، في تلك الساعة. وفجأةً دخل راهبٌ كبّوشيٌّ، وجلس في كرسيّ اعترافٍ، فاعترفت لديه. وحينئذٍ نصحها بزيارة ديرٍ كبّوشيٍّ، في سان جُوڤانّي رُتونّدو. ولمّا عملت بنصيحته، ذُهلت بتعرّف پادري پيّو في الكاهن الذي عرّفها في روما. وتعاظم ذهولها عندما بلّغها الأب پيّو أنّه كان حاضرًا في منزل ذويها، في مدينة "أُودينِه" (Udine)، لحظة ولادتها، ووفاة والدها، ووصف لها بدقّةٍ المنزل وأثاثه. وسنروي تفاصيل الحدث مفصّلًا في كتيّبٍ ملحقٍ.

ولا بدّ من التنويه بأنّ الأب پيّو لم يغادر ديره، لا عام ١٩٠٥، ولا في أيّ وقتٍ آخر، سوى مرّةٍ واحدةٍ، عندما رافق شقيقته "غراسِيِيلّا" إلى روما، حيث دخلت ديرًا رهبانيًّا، عام ١٩١٧. ومن المؤكّد أنّه لم يزُرْ، قطّ، مدينة "أودينِه"، التي تبعد أكثر من سبع مئة كيلومترٍ عن سان جُوڤانّي رُتونّدو.

وقد جرت للأخ پيّو عدّة أحداثٍ مماثلةٍ، في السنوات التالية. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّها لم تحدث، قطّ، تنفيذًا لرغبته الذاتيّة، بل كان يقتاده الله إليها، في حالاتٍ طارئةٍ، من أجل عملٍ خلاصيٍّ، لا يحتمل إرجاءً أو تلكّؤًا.

اندرجت، إذن، سنتا الدراسة الثانويّة في الجهد الدراسيّ، والصراع النفسيّ من أجل التوغّل في معرفة يسوع والتمثّل به، والمقاومة الشيطانيّة الشرسة. وبما أنّ الدير الذي أكمل فيه الأخ پيّو دراسته الثانويّة، أقدم على أعمال ترميمٍ في بنائه، فقد انتقل الأخ پيّو ورفاقه إلى ديرٍ آخر، من أجل مباشرة دراسة الفلسفة واللاهوت. وهناك عقد صداقةً مع معلّمه الأب "أغوستينو"، مرشده الروحيّ السابق.

ومنذئذٍ، بات رهبان الدير يرون في أخيهم پيّو "صوفيًّا"، فإلى جانب المواهب الخارقة التي تميّز بها، شرع يتنبّأ بحدوث ما لم يخطر بخيال أحدٍ. ومن نبوءاته في تلك الفترة، إعادة فتح دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، الذي كان قد أُغلق منذ سنواتٍ عديدةٍ، وأنّه سيكمل حياته فيه. وتحقّقت النبوءة الأولى عام ١٩٠٩، والثانية عام ١٩١٦.

وقبل مباشرته الدراسة الكهنوتيّة، ارتبط الأخ پيّو بنُذُره الرهبانيّة العلنيّة، يوم الأحد الواقع في ٢٧/١/١٩٠٧، ووقّع الوثيقة التالية:

"أنا الأخ پيّو دي پِيترِلْشينا، الطالب الكبّوشيّ، بعد إتمامي السنوات الرهبانيّة الأربع المحدّدة من قِبَل الرؤساء الكنسيّين، وبعد النذور البسيطة التي ارتبطتُ

بها، عقب ســـنة الابتداء في دير مُركونِه، يوم ١٩٠٤/١/٢٢، وأنا اليوم وقد بلغتُ من العمر تســع عشــرة ســنةً، وثمانية أشــهرٍ ويومين، أعلنت، نذوري، بإرادتي الحرّة، ومن ثمّ أعتبر ذاتي مرتبطًا إلى الأبد بالنظام الكبّوشـــيّ، التابع لنظام الأب الســيرافيميّ فرنســيس الأسّــيزيّ، لغايةٍ وحيدةٍ، هي العناية بخلاص نفسي، وتكريسها كلّيًا، لخدمة الربّ".

وكان حينذاك، على الأخ پيّو الذي أضحى، إلى الأبد، راهبًا كبّوشيًّا، متابعة الدروس المؤهّلة للكهنوت.

أنهى دراسة الفلسفة يوم ١٩٠٧/١٠/١٠، وانتقل إلى دير "سيرّاكاپريولا" (Serracapriola)، كي يتمّ دراسة اللاهوت بإدارة الأب أغوستينو، الذي أصبح، مع الأب "بينيديتّو" مرشدًا روحيًّا آخر، حتّى عام ١٩٢٢، وكان الأب أغوستينو شاهدًا على مسيرته الصوفيّة الاستثنائيّة. وقد وصَفَه بقوله: "إنّه طيّبٌ، مطيعٌ، مجتهدٌ، غير أنّه معتلُّ الصحّة، جسديًّا".

فقد كان موقع الدير الذي انتقل إليه ساحليًّا، ولم يلائم المناخ البحريّ رئتَيْه المعتلَّتَيْن. وهو، مع ذلك، لم يُنقِصْ ذرّةً من أصوامه، والإماتات الجسديّة، فضلًا عن انغماسه، بكلّ طاقاته، في الدراسة المرهقة، حتّى انهارت صحّته، انهيارًا مقلقًا. فاضطرّ رؤساؤه لإعادته إلى مسقط رأسه، أملًا في أن يعيد إليه الهواء الجافّ، ورعاية والدته قسطًا من الصحّة والعافية.

وفي پْيتِرِلْشينا، اختار الأخ پيّو الإقامة في حجرةٍ ضيّقةٍ جاثمةٍ فوق صخرةٍ، بمثابة صومعةٍ، حيث كان ينزوي، لمتابعة دراسته، وللتأمّل والصلاة، ولكأنّه في الدير. وقد ثابر، في پْيتِرِلْشينا، على التقيّد بنظام صلوات الدير وأوقاتها، قاضيًا ساعاتٍ طويلةً،

وحيدًا في كنيسة القدّيسة مريم سيّدة الملائكة، حيث كان قد نال سرّ العماد. وكان الأب أغوستينو يزوره بين حينٍ وآخر، ويتابع معه دراسة اللاهوت، ويراقب تقدّمه علمًا وقداسةً.

وسُرّ أبناء قريته براهبهم الصغير، الذي غادرهم صبيًّا، يضجّ عافيةً وصحّةً، وعاد معتلًّا، نحيفًا، في ثوبٍ رهبانيّ خشنٍ، وقد شرعت لحيتُه تَنبُت. وقد اجتذبهم بورعه ووقاره، فكانوا يبوحون له بهواجسهم، ومشاكلهم، ويسترشدون بنصائحه. فكانت فترة النقاهة تلك إعدادًا لمهمّة إدارة النفوس، ومعالجة أسقامها التي ستصبح نسيج رسالته الكهنوتيّة.

في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٠٨، كان قد استعاد شيئًا من عافيته وقواه، فعاد كي يتابع دراسته اللاهوتيّة في ديرٍ، كان مناخه أوفر ملاءمةً لرئَتَيْه المتعبتَيْن. وفي شهر كانون الأوّل من تلك السنة عينها، تلقّى الدرجات الكهنوتيّة الصغرى، عن يد رئيس أساقفة "بِنِڤينتو" (Benevento). وبعد يومَيْن نال رتبة شمّاسٍ رسائليٍّ، على يد أُسقفٍ آخر، وأمست خطواته نحو الكهنوت معدوداتٍ.

ولكنّ طريق وصوله إلى الكهنوت كان مفروشًا بالأشواك. فقد تفاقمت حالته الصحّيّة سوءًا وخطرًا، فاقتيد إلى مدينة نابولي، حيث أعلن البروفسّور الذي شخّص مرضه، أنّ وفاته لن تتأخّر أكثر من شهرٍ واحدٍ. فسارع رئيسه الإقليميّ إلى نقله إلى دير "ڤينافرو"، حيث مكث أربعين يومًا، قضى منها واحدًا وعشرين يومًا بلا طعامٍ على الإطلاق.

عام ١٩١٠، كانت حالته الصحّيّة كارثيّةً، إذ كانت حرارته ترتقي كلّ مساءٍ إلى درجاتٍ غير معهودةٍ، وتنتابه آلامٌ حادّةٌ في صدره، وسُعالٌ متواصلٌ.

في شهر تمّوز عاد إلى دير مُركونِه، حيث مكث بضعة أيّامٍ، قبل عودته القسريّة إلى پيِترِلْشينا. وفيما كان ينتظر ساعة موته كانت الأمنيّة الغالية على نفسه أن يموت كاهنًا. فالتمس من رئيسه تسبيق موعد سيامته الكهنوتيّة، فاستُجِيب طلبه، وفي نهاية شهر تمّوز ١٩١٠، اجتاز بنجاحٍ امتحان اللاهوت.

وجديرٌ بالتنويه، أنّ الأب پيّو لم يكن، قطّ، لاهوتيًّا مرموقًا بالمفهوم الأكّاديميّ، ولكنّه توغّل في إيمانٍ لم يكن من إيحاءات العقل، بل من ممارساتٍ روحيّةٍ يُغذّيها التأمّل.

كان الأخ پيّو يدرك، بالسليقة، أنّ بعض زملائه لا يستسيغون رؤية أحدهم يتميّز عن الآخرين، وهو بدافعٍ من تواضعه السحيق، جهد أن يبقى، دائمًا، في الظلّ، بعيدًا عن الأنظار، إلّا أنّه لم يستطع إلّا لفت نظر الآخرين إليه، على غير قصدٍ. فقد كان الجميع يلحظون ذوبان جسده، وكانت تعتريه، نوبات حمًّى تبلغ درجاتٍ غير معهودةٍ حيّرت الأطبّاء، وكان موغلًا في الدأب على عمله، لا يتيح لذاته هدنةً أو متنفّسًا، وكان متشدّدًا في التزام قسوة النظام الرهبانيّ، عملًا بالشعار الكبّوشيّ "التوبة أو جهنّم". وكان يمارس أصوامًا طويلةً، لم تكن دائمًا إراديّةً، فقد صام، مرّةً، واحدًا وعشرين يومًا، صومًا متواصلًا، لم يتناول أثناءها أيّ طعامٍ، إلى أن أَمَره معلّم الابتداء بتناول طعامٍ، فامتثل لأمر الطاعة، ولكنّه بعد ثوانٍ معدوداتٍ تقيّأ كلّ ما تناوله. ولم يصدّق معلّم الابتداء أنّه بقي على قيد الحياة ثلاثة أسابيع، بلا طعامٍ سوى الإفخارستيّا، فمنعه عن المناولة، وحينئذٍ انهارت صحّته حتّى خُشي أن يقضي نحبه.

والأنكى أنّه كان هدفًا دائمًا لهجماتٍ شرسةٍ، يشنّها عليه الأبالسة التي لم تطقْ رؤية نفسٍ طاهرةٍ سخيّةٍ، تضحّي بذاتها من أجل إنقاذ آخرين من براثنها. ولربّما مال زملاؤه إلى عدم تصديق تلك الهجمات، أو لربّما ظنّوه مهووسًا، أو فاقد العقل، لو لم يعاينوا شواهد عليها ويلمسوها. فقد رأوا في أثناء غيابه عن صومعته، كيف بُعثِرت

كلّ أغراضها، وكيف رُمي فراشه وأغطيتُه أرضًا، وشُقَّت كتبه ودفاتره، ودُلِق محتوى محبرته على الجدران. وسمعوا، ليلًا، وهو راقدٌ في صومعته، ضجيجًا جهنّميًّا ينبعث منها، وشاهدوا، في الصباح، آثار العنف على جسمه، وعلى ثيابه الممزّقة. ومع ذلك، لم يشكُ قطّ، ولم يتذمّر.

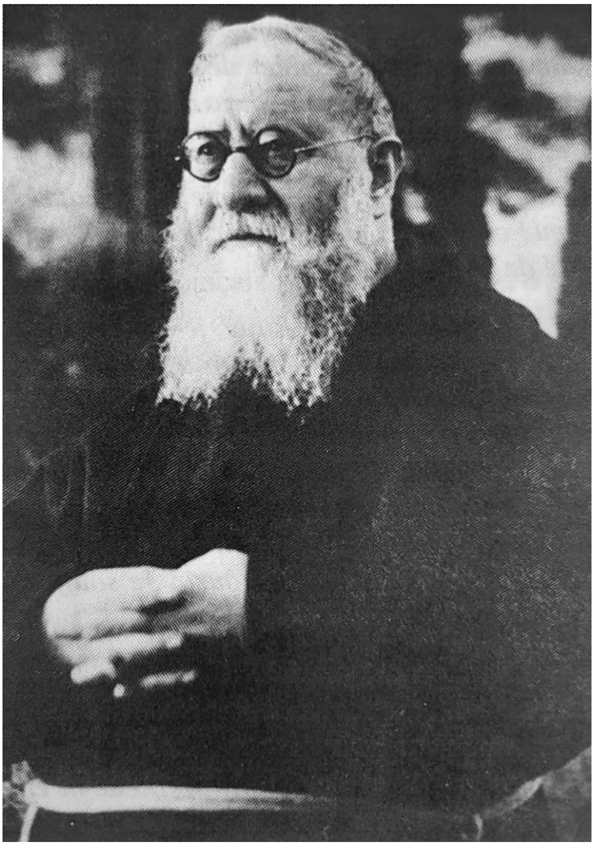

الأب أغوستينو مرشد پادري پيّو الرئيس

صراعٌ مع الشرّير

منذ بدء حياته الرهبانيّة خاض الأب پيّو صراعًا يوميًّا مضنيًا مع الشرّير الذي كان الراهب يدعوه "القوقازيّ"، للدلالة على أنّه محاربٌ شرسٌ.

وكان الشرّير قد أنذره، منذ عام ١٩١١: "إذا أصررتَ على رفض الخضوعِ لي، فسأعملُ بك أعمالًا يعجز العقل البشريّ عن تخيّلها".

فبغيةَ تشويش عمق حياته الروحيّة، كان الشرّير يرسل إليه أعوانَه لابسين أشكالًا مريعةً. ولمّا لم تُجدِ هذه المحاولة نفعًا، أمسوا يتنكّرون بزيّ ملائكةٍ، وأحيانًا، بهيئة العذراء مريم. ولكنّ الراهب القدّيس، المفعَم بروحِ الربّ، قد واجه، دائمًا، كلّ تلك المحاولات الماكرة بثباتٍ ورباطة جأشٍ، وببصيرةٍ تُنيرها الصلاة والأدعية الحارّة، طاردةً المهاجمين خاسئين، ومُريحةً قلب عاشق يسوع.

من المحقّق أنّ أشدّ ما ألهبَ حفيظةَ إبليس على الأب پيّو، تكريمُه السحيق للعذراء القدّيسة أمّ الربّ، واستعانته الدائمة بها. ولذلك جرّد كلّ أسلحته للقضاء عليه، ولوَأْدِ مهمّتِه الفدائيّة في مهدها. وهذا ما عبّر عنه الأب پيّو في رسالةٍ إلى مُعرّفه، تحمل تاريخ ١٩١١/٦/٢٦، قال فيها: "إنّ عدوّنا المشترك دائبٌ على محاربتي، ويبدو أنّه عازمٌ على إهلاكي بأيّ ثمنٍ، رافضًا الاستسلام، متنكّرًا بأشكالٍ مختلفةٍ. وهو، منذ أيّامٍ عديدةٍ، يزورني بصحبة موكبٍ من أعوانه المسلّحين بهراوات وقضبانٍ حديديّةٍ. ولطالما رماني عن سريري، وجرّني على أرض صومعتي. ولكنّ يسوع، وأمّه، وملاكي الحارس، والقدّيس يوسف، والقدّيس فرنسيس، غالبًا ما يقفون إلى جانبي".

بيد أنّ استمرار هذه التجارب، سرّبتْ إلى نفسه خشية أنّ ارتكابه خطايا هو سبب هذه المِحن. واستجلاءً لذلك كتب إلى مرشده الروحيّ: "إنّي أجهل سبب إعراض الله، حتّى الآن عن الرأفة بي، وعن تحريري. الأمر الوحيد الذي أعرفه هو أنّ الله لا يفعل

شيئًا بلا غايةٍ مقدّسةٍ لصالحنا... والآن، حبًّا بيسوع وبعذراء الآلام الجميلة، أطلعني، يا أبتِ، على أيّ خطأٍ، مهما كان طفيفًا، لا يروق لله. وإنّي، بمساعدتك سأنتزعه، مهما غَلَتْ كلفة انتزاعه. في هذه الأيّام يُنزل بي إبليس، من أذاه، ألوانًا، ويضاعف جهوده كي يضاعف إيذائي، ويبدو أنّه ناقمٌ عليّ ويسعى إلى حرماني من إرشادك. فقد استهدفت إحدى تجارب الشرّير انتزاع الأب پيّو من ذارعَيْ مرشدَيْه الروحيَّيْن "بينيديتّو" و"أوغوستينو"، وإيكاله إلى آخرين أرفع مرتبةً في الجمعيّة الكبّوشيّة، ولكن أقلّ تبصّرًا وإدراكًا، لمرامي الربّ في مختاره پيّو.

وقد جاء في رسالةٍ إلى معرّفه، مؤرّخةٍ في الأوّل من شباط ١٩١٣: "تلقّيتُ رسالتك، ولمّا هممتُ بفتحها طلب منّي أعوان "القوقازيّ" أن أمزّقها، واعدين، إذا استجبتُ لطلبهم، أن ينسحبوا انسحابًا نهائيًّا، وأن يكفّوا عن مضايقتي إلى الأبد. فالتزمتُ الصمت، ولم أردّ عليهم بكلمةٍ، وازدريتُهم، في سرّي. حينئذٍ، استأنفوا القول: "أردنا ذلك فقط شرطًا لانصرافنا عنك، وليس في استجابتك لشرطنا ازدراءٌ لأحدٍ". فأجبتُهم أنّ لا شيء يقدر ثنيي عن مقصدي. عندئذٍ، انقضّوا عليّ انقضاض نمورٍ جائعةٍ، وهم يشتمونني، ويهدّدونني بتكليفي ثمنًا باهظًا. ووفوا بوعدهم، فمنذ ذلك اليوم ما برحوا يوسعونني ضربًا، كلّ يومٍ. ولكنّهم لن يرهبوني. أَفَليس يسوع معي؟".

وتوالت حياته مِحَنًا رهيبةً، وحفلت رسائله إلى معرّفه ومرشده بنجاوى جريحةٍ نازفةٍ. ولكن كان يُشِعّ منها، بين حينٍ وآخر، ومضُ عزاءٍ، مثل قوله: "مع ذلك، الله معي، وهو يُسبغ عليّ تعزياتٍ من العذوبة بحيث يتعذّر عليّ وصفها. وما زال يسوع يُنعِم عليّ بزياراته الطافحة حبًّا، وتشجيعًا على مقاومة الشرّير".

ومع ذلك، تواصلت اعتداءات إبليس، كما يتّضح من رسالةٍ قال فيها: "زيارة تلك الكائنات تتواتر. وما زال إبليس يظهر لي في أشكالٍ بغيضةٍ، ويوسعني ضربًا مريعًا، متواصلًا، نهارًا وليلًا، سعيًا إلى إرهابي، وتحطيمي، وصرفي عن مهمّتي".

ولكن غالبًا، ما كان فجرٌ مشرقٌ يعقب ليالي عاصفةً، كما جاء في إحدى رسائله:

"مذ أخلدتُ إلى النوم، عند الساعة العاشرة حتّى الصباح، لم يكفّ "القوقازيّ الشرس" عن ضربي، حتّى حسبتُ أنّ تلك كانت ليلتي الأخيرة على الأرض.

"وعند الساعة الخامسة صباحًا، فيما كان الجلّاد ينصرف اعتراني بردٌ من قمّة رأسي حتّى أخمص قدميّ، وارتجفتُ مثل قصبةٍ في مهبّ العاصفة. وأخيرًا، جاءني الطفل يسوع، فقلت له: "إنّي عازمٌ على تحقيق مشيئته. كم كان قلبي يخفق بعنفٍ، وكم كانت وجنتاي تلتهبان بقرب ذلك الطفل الإلهيّ!".

في الفترة الممتدّة، إذن، بين عامي ١٩١٠ و١٩١٦، كان الأب پيّو يقاسي همًّا هاصرًا، ناجمًا عن حبّه الجمّ ليسوع، الذي يدفعه إلى مكافحة الشرّ. وكان ذلك الشرّير يرتدّ عليه، ويهدّده، ويوجعه حتّى صميم وجدانه البشريّ، حيث تنضج قوّة التضحية من أجل افتداء إخوته البشر.

ذلك الشرّير الخبيث الذي حاصره ليلَ نهارَ، جاهدًا في اقتياده إلى الانهيار والتسليم بغلبة الظلم، و"مجد الخطيئة". ولكنّ الأب پيّو ظلّ يقاوم بعزيمةٍ تلك الهجمات الشرسة بكثافة الصلاة وحرارتها، وبالحبّ والتضحيات، وبفضل تقدمة ذاته الكلّيّة للربّ.

وحؤولًا دون سكناه الآمنة في الله، ظلّ إبليس يجهد في الفتّ من عضده، وتفتير زخم حبّه، باثًّا في نفسه، أفكارَ يأسٍ وهزيمةٍ، وفقدان ثقةٍ بالله. وكان الأب پيّو يواجه تلك الإيحاءات الخبيثة مستعينًا بجراح المخلّص، ومستمدًّا منها القدرة على الصمود.

ولم تفتر محاولات الشرّير، بوسائل الدسّ حينًا، والعنف أحيانًا، من أجل إقناع الراهب القدّيس بتخلّي الله عنه، وبإطلاقه يد الأبالسة للانتقام منه، ولكن كلّ محاولاته باءت بالفشل.

الجزء الثاني

الكاهن المدموغ بسمات الصلب

الأب پيو

حالته الصحّيّة المتهاوية كانت تُكرِهه على البقاء في مسقط رأسِه بين ذويه، حيث كانت تلازمه آلامٌ حادّةٌ في صدره، يرافقها صداعٌ أليمٌ، وسعالٌ متواصلٌ. في الواقع، كان مصدورًا، أي مصابًا بسلٍّ رئويٍّ، ولم يشخَّص هذا المرض تشخيصًا صحيحًا، ولم يعالَجِ العلاجَ الملائم.

وفي هذه الحالة المزرية، انطلق الأخ پيّو مع والدته من پْيترِلْشينا، إلى مدينة "بِنِڤينتو" (Benevento)، حيث نال سرّ الكهنوت، يوم ١٠/٨/١٩١٠، على يد الأسقف "سكينازي" (Schinasi) ، بحضور والدته ورئيس ديره، وغياب والده وأخيه الأكبر اللذَيْن كانا مهاجِرَيْن في نيويورك.

في ذلك اليوم المبارك، حقّق فرنشيسكو فُرجونِه أغلى أمنيّتَيْن على قلبه، فبعد انضمامه إلى الرهبنة الكبّوشيّة، أصبح كاهنًا، مسيحًا آخر.

وكان قد دوّن على صورة ذكرى رسامته الكهنوتيّة، العبارة التالية:

"يا يسوع، يا نَفَسي وحياتي،
أرفعُك اليومَ مرتجفًا،
في سرّ المحبّة.
فلْأكنْ معك، للعالم، الطريق والحقّ والحياة،
ولْأكنْ لك كاهنًا قدّيسًا، وضحيّةً كاملةً".

ومنذ ذلك اليوم، التصق به اسم "پادري (أي الأب) پيّو" الذي أضحى ملاذًا لآلاف المعتلّين، جسديًّا ونفسيًّا، ونبعًا يروي مواكب النفوس العطشى إلى الله، وفي الآن عينه،

هدفًا لهجمات إبليس وأنصاره، وحتّى لاضطهاد فئةٍ من إخوته المكرّسين الذين كان الواجب يفرض عليهم دعمَه ومساندته، بيد أنّ أنانيّتهم، وكبرياءهم، وعمى بصيرتهم، ومطامع بعضهم بالمال، سمّمت نفوسَهم، ودفعتهم إلى شنّ أشرس هجوماتٍ عليه.

يوم ١٩١٠/٨/١٤، عاد الكاهن الجديد إلى پيِترِلْشينا، مسقط رأسه، حيث استُقبل استقبالًا شعبيًّا، واحتفل بقدّاسه الأوّل، في الكنيسة التي تلقّى فيها سرّ المعموديّة. وألقى رئيسه الكبّوشيّ كلمةً بسط فيها مجالات رسالة الكاهن الثلاثة: منبر الوعظ، والهيكل، وكرسيّ الاعتراف. ثمّ وجّه إلى الكاهن الجديد كلمةً نبويّةً، قال له فيها: "لستَ متين الصحّة، ولن تستطيع أن تكون واعظًا مفوّهًا. ولذلك أتمنّى أن تكون معرّفًا عظيمًا، وكاهنًا قدّيسًا".

لم ينسَ پادري پيّو، قطّ، عذوبة ذلك اليوم الفريد، وقال عنه: "كان قلبي يلتهب محبّةً ليسوع... وشرعتُ أتذوّق طعم الفردوس".

ولكن كم شابَ ذلك الفردوسَ من أوجاعٍ ومتاعب روحيّةٍ. فأمراضه المتواصلة لم تُتِحْ له العودة إلى الدير واتّباع النظام الكبّوشيّ، فاضطرّ إلى المكوث في پيِترِلْشينا، معاونًا كاهن الرعيّة، وما انفكّ مرضه الرئويّ يتفاقم، ويتعقّد، فضلًا عن هجمات إبليس التي لم تهادنه.

في پيِترِلْشينا سكن الأب پيّو مع ذويه، ولكنّه كان يقضي معظم أوقات أيّامه في الكنيسة، ساجدًا خاشعًا عند أقدام الهيكل، وأمام الصليب، مستغرقًا في تأمّلاتٍ وصلواتٍ متماديةٍ، ملتمسًا تخفيف آلام إخوانه ومواطنيه، وخلاص نفوسهم.

وكان يقيم طقوس عماداتٍ، وزواجاتٍ، وجنازاتٍ. ولكن، بسبب إصابته بالسلّ الرئويّ، لم يكن يعرّف إلّا في موسم عيد الفصح، مقتصرًا على سماع اعترافات الرجال، والمحتضرين.

وكان كاهن القرية، الذي أحبّه محبّة أخٍ، ولا سيّما بعد اطّلاعه على بعض من الكرامات الاستثنائيّة، التي يميّز بها الربّ مختاريه، قد أعدّ له، بسبب علّته، كأسًا وحليةً كهنوتيّةً خاصّتَيْن.

أقام، إذن، الأب پيّو في پيترِلْشينا، وسط مواطنيه البسطاء، الأمّيّين الذين أحبّوه حبًّا صادقًا. ولم ينسَ، قطّ، كم عانى، مع ذويه من حرمانٍ في صغره، وظلّ متواضعًا، وديعًا، محبًّا للجميع.

كان يقيم القدّاس اليوميّ، عند الساعة الخامسة صباحًا، كي يتيح للفلّاحين الصلاة قبل الانطلاق إلى حقولهم. ولكنّ حضورهم كان، غالبًا، يغيب عن ذهنه، لأنّ حضورًا سماويًّا كان يستحوذ على نفسه، فيستغرق في حوارٍ لا ينتهي مع الربّ، متابعًا، روحيًّا، تضحية الجلجلة، ويأخذه الانخطاف إلى عالمٍ آخر، فيضطرّ بعض المزارعين إلى الانصراف قبل المناولة، منسلخين، على مضضٍ، من تأثير خشوعه العميق، وصوفيّته الأخّاذة، لأنّ حقولهم كانت تلحّ في استدعائهم. وهو، مع رغبته الشديدة في إرضائهم، وإشراكهم الإفخارستيّا، لم يكن يقوى على الانعتاق من سيطرة مأساة الجلجلة التي كانت تسلبه ذاتَه.

وتفاديًا لحرمان مواطنين من المناولة، وبالاتّفاق مع مرشد الأب پيّو الروحيّ، اعتاد كاهن الرعيّة الوقوف، خفيةً، على مقربةٍ من الهيكل، وكلّما طال انخطاف الأب أثناء القدّاس، كان يأمره، باسم الطاعة المقدّسة، أن يستأنف الصلوات، كي لا يحرم المؤمنين المستعجلين من المناولة.

ولكن، إثر انصراف المؤمنين، كان الأب پيّو يغتنم الخلوة والصمت، ويستغرق في صلاة الشكر. وغالبًا، ما كان الانخطاف يأخذه من جديدٍ. ولطالما وُجِد مطرّحًا أرضًا،

ووجهه على بلاط الكنيسة، لا يتحرّك، ولا يتنفّس. وذات يومٍ تلكّأ في مغادرة الكنيسة، وجاء خادم الكنيسة مستطلعًا، فأخذ به الرعب كلّ مأخذٍ، عندما ألفى الأب الراهب مطّرحًا أرضًا، بلا حركةٍ، ولا نفسٍ، ولا شعورٍ بما يجري من حوله، ولا يجيب على النداءات الموجّهة إليه، فانطلق راكضًا إلى كاهن الرعيّة، وهو يصيح مذعورًا: "لقد مات الراهب".

وهرع كاهن الرعيّة إلى الكنيسة، وأمر الأب پيّو، باسم الطاعة، أن ينهض. ثمّ، تفاديًا لتكرار مثل هذه الحوادث، أعطاه مفاتيح الكنيسة كي يختلي فيها وحيدًا، بعيدًا عن كلّ رقيبٍ، كلّما شاء، وبقدر ما يشاء. ولاحقًا، أعطاه مفاتيح كاپيلّا قديمةٍ مهترئةٍ، ومهملةٍ، لا يقصدها أحدٌ، كي يقيم فيها صلواته، ويسترسل في تأمّلاته، بلا قيودٍ.

وتبيّن كاهن رعيّة پْيِتْرِلْشينا، تعلّق أبناء رعيّته بمواطنهم الراهب وتقديرهم لفضائله النادرة، ولطيبته المشعّة، ولقداسته الاستثنائيّة، فأحبّ استبقاءه إلى جانبه، وبادر، من تلقاء نفسه إلى مراسلة السلطات الڤاتيكانيّة، والتماس إعفائه من النذور الرهبانيّة، على أن يمارس مهامّه الكهنوتيّة في رعيّة پْيِتْرِلْشينا. ولمّا وافته الموافقة على التماسه، خفّ إلى زفّ النبأ إليه، أثناء تناوله العشاء مع والدته، زاعمًا إسعاده به. ولكنّ النبأ وقع على الأب پيّو وقعًا ثقيلًا مزعجًا، فأعلن بحزمٍ: "لقد اخترتُ، طائعًا، حياة الرهبنة، ونذرتُ نذورَها، ولن أتراجع عنها أبدًا!".

وكان الرئيس العامّ على الجمعيّة الكبّوشيّة، قد اطّلع، عام ١٩١٤، على علل الأب پيّو التي تفرض بقاءه، غالبًا، بعيدًا عن الدير، وقرّر الحصول له على إعفاءٍ من نذوره الرهبانيّة، ولكنّ رؤساء الأب پيّو الإقليميّين، لم يطيقوا إبعاد أخيهم عنهم، فقدّموا عريضةً تعبّر عن حرصهم على بقاء أخيهم پيّو إلى جانبهم، حالما ستسمح له حالته الصحّيّة بذلك. وتحقّقت رغبتهم عام ١٩١٦.

في پْيترِلْشينا، كان الأب پيّو خاضعًا لسلطة كاهن الرعيّة، الذي كان يسمع اعترافاته، أحيانًا، مع أنّه كان ما زال روحيًّا تحت إدارة رئيسه الكبّوشيّ الإقليميّ، الأب "بينيديتّو"، وما زال معرّفه الرئيس هو الأب "أغوستينو".

ولم يهادنه الشيطان في پْيترِلْشينا. وكان كاهن الرعيّة شاهدًا مذهولًا على طائفةٍ من مراوغات الشرّير. فقد كان ذلك الكاهن قد طلب من الأب پيّو أن يأتيه برسائل مرشدَيْه الروحيَّيْن، وأن يقرأها هو له، وامتثل الكاهن الراهب طائعًا. وذات يومٍ فتح رسالةً بعث بها الأب أغوستينو إلى الأب پيّو، ودهش لمّا أخرج من الظرف ورقة بيضاء، خاليةً من أيّة كتابةٍ، فقال: "ربّما سها الأب أغوستينو، ووضع في الظرف ورقةً بيضاء عوضًا عن الرسالة". غير أنّ الأب پيّو الذي كان أوفر خبرةً بهزليّات إبليس، وأكيدًا من فطنة الأب أغوستينو، سارع إلى الإيضاح: "لا، لم يسهُ الأب أغوستينو، بل هذه إحدى ألاعيب الشرّير". فسأله كاهن الرعيّة: "وهل تستطيع معرفة ما كان مكتوبًا فيها؟"، فتلا الأب پيّو نصّ الرسالة حرفيًّا. ودوّن كاهن الرعية هذا النصّ، وأرسله إلى الأب أغوستينو، بغية التثبّت من مطابقته مع ما كان مكتوبًا في الرسالة ومحاه إبليس. وأكّد الأب أغوستينو تطابق النصّين في كلّ التفاصيل.

وفي مرّةٍ أخرى جاء نصّ رسالةٍ من الأب أغوستينو، مطموسًا ببقعة حبرٍ، أخفت النصّ كلّه. وأوصى الأب پيّو رشّ الرسالة بالماء المقدّس، فزالت البقعة، ووضح النصّ.

وفيما كان الشرّير دائبًا على إرباك الكاهن الجديد الذي توسّم فيه عدوًّا خطيرًا، كان الربّ يغدق على مختاره دلالات تمييزه، ومنها قراءة المستقبل. فقد تنبّأ، يومًا، الأب پيّو أنّ ديرًا كبّوشيًّا، سيُشاد في پْيترِلْشينا، بالذات. وعدّ كاهن الرعيّة هذا التوقّع مخالفًا للمنطق، ومناقضًا للواقع، بل مستحيلًا، فالدعوات الرهبانيّة تكاد تكون غائبةً. ومع ذلك، نهض الدير، عام ١٩٢٦، حيث توقّع الأب پيّو.

وبما أنّ الصيف في پِيِترِلْشينا، كان خانقًا، أشفق على الأب پيّو، المصاب بعلّةٍ رئويّةٍ، أقرباؤه، فابتنوا له كوخًا في بستان ذويه، من أغصان أشجارٍ، وأعشابٍ، تحت فيء سنديانةٍ شامخةٍ وارفة الأفنان. وفي تلك العزلة، بين أحضان الطبيعة، بعيدًا عن أنظار الفضوليّين، كان الأب پيّو يسبح في رحاب الروح، ويستغرق في الخطافاتٍ تأخذه إلى السماء، حيث يسترسل في حواراتٍ صوفيّةٍ حميمةٍ مع المخلّص.

تلك اللحظات المسروقة من الأرض، كانت المؤاساة الوحيدة لأوجاع الراهب الشابّ الجسديّة المتواصلة، وقد وثّقت، في الآن عينه، علاقاته الصوفيّة مع حبيبه الإلهيّ.

تحت تلك السنديانة تلقّى الأب پيّو، يوم ١٩١٥/٩/١٤، أي ثلاثة أيّامٍ قبل عيد سمات القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، الدليل الأوّل على تمثّله بالمخلّص المصلوب، تمثّلًا غير مرئيٍّ، وغدا يقاسي، في يومَي الخميس والسبت من كلّ أسبوعٍ، مثل تمزيق شفراتٍ حادّةٍ في يديه وقدميه وجنبه.

في ذلك اليوم كان قد تلكّأ عن العودة إلى البيت من أجل مقاسمة والدته غداءهما القشف الزهيد، فقلقتْ، وأقلّت جرّتَها على كتفها، وجاءت تجوس قرب النبع، وتراقب كوخ ابنها الراهب، حريصةً على تفادي تشويش صلواته وتأمّلاته، ودهشت لمشاهدته يخرج، بغتةً، نافضًا يديه وقدميه، وكأنّ نارًا قد هبّت فيها، فاستفسرت عمّا حلّ به، جاهدةً في تمويه قلقها بمزاحٍ، وسألته: "هل تتمرّن على العزف، يا فرنشيسكو؟". فأجاب: "لا تقلقي، يا أُمّاه. إنّه ألمٌ بسيطٌ عابرٌ!".

في ذلك اليوم، شرعت تتحقّق الأمنيّة التي دوّنها على صورة ذكرى سيامته الكهنوتيّة، والتي ختمها بقوله:

«ولْأكنْ لك كاهنًا قدّيسًا، وضحيّةً كاملةً»

بعد إقامة الأب بيّو في بِيِترِلْشينا، أكثر من ستّ سنواتٍ، أحسّ أنّ كهنوتَه كان لفظةً، أُفرغت من جوهر معناها، من خلال رسالةٍ إلى مرشده الروحيّ: "أليستْ أكبر تضحيةٍ قدّمتُها للربّ هي عجزي عن الإقامة في الدير؟".

ولكن، في الواقع، كانت تلك السنوات التي قضاها في بِيِترِلْشينا، سنوات تأهّبٍ لرسالته، وللارتدادات الروحيّة والأشفية الجسديّة، التي اجتذبت إليه ملايين المتألّمين في أرواحهم وأجسادهم.

وكان قد تأهّب لتلك الرسالة، من خلال مِحَنٍ طاحنةٍ، وأوجاعٍ مضنيةٍ دائمةٍ، شارك بها الربّ آلامه، ومن خلال مقاومته لتجارب ماكرةٍ. تغلّب عليها، بقوّة الصلوات والتضحيات.

أوَلم تكن تلك الفترة من حياته تذكيرًا بالسنوات الخفيّة الطويلة التي قضاها المخلّص، في الناصرة، قبل إعلان بشراه للعالم، ومكافأته بالصليب؟

خدمةٌ عسكريّةٌ مضطربةٌ

قطعت إقامةَ پادري پيّو في پْيِترِلْشينا، دعوتُه إلى الخدمة العسكريّة، في مطلع شهر نوڤمبر (تشرين الثاني) ١٩١٥، وإلحاقه بقسم الخدمات الصحّيّة في مشفى ناپولي العسكريّ. وإثر فحصه الطبّيّ وتبيّن اعتلاله، مُنِح إعفاءً لمدّة سنةٍ، فعاد إلى پْيِترِلْشينا، حيث مكث منذ كانون الأوّل ١٩١٥، حتّى شباط ١٩١٦.

في هذه الأثناء كان التجنيد قد أفرغ الأديرة من رهبانها، واغتنم الأب أغوستينو عودة الأب پيّو، فسارع إلى الانتقال به من پْيِترِلْشينا، إلى فوجّا. ويوم ١٩١٦/٢/٢٣، أخطر الأب پيّو كاهن رعيّة پْيِترِلْشينا، أنّه لن يعود إلى القرية.

ولكنّه لم يقوَ على احتمال مناخ فوجّا، فجيء به إلى دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، حيث ارتاح إلى مناخ تلك التلّة الجرداء، وطلب تعيينه في ذلك الدير بشكلٍ دائمٍ. وكُلِّف، فيه، بتدريب طلبة الرهبنة، ورعايتهم الروحيّة.

نهايةَ عام ١٩١٦، عاد الأب پيّو إلى ناپولي، وخضع لفحصٍ طبّيٍّ جديدٍ، ونال، بنتيجته إجازة نقاهةٍ لمدّة ستّة أشهرٍ، وجاء في أمر الإجازة أنّ عليه انتظار تعليماتٍ، بعد انتهاء مدّة الإجازة. وانتهت مهلة الإجازة في حزيران ١٩١٧، وانتظر الأب تعليماتٍ، لم تأتِ. وعُدَّ فارًّا، وأصدر قائد الفوج إلى درك پْيِترِلْشينا، أمرًا بالبحث عن الجنديّ الفارّ "فرنشيسكو فُرجونِه"، وأجاب الدرك أنّ بحثهم لم يُفضِ إلى العثور على أيّ شخصٍ يحمل هذا الاسم. وحينئذٍ طالب قائد الفوج بتكثيف التحرّي عن الجنديّ الفارّ، واستمرّ البحث بلا طائلٍ، إلى أن سأل دركيٌّ سيّدةً واقفةً أمام باب بيتها عن المدعوّ "فرنشيسكو فُرجونِه"، فأجابت أنّه أخوها، وهو الآن معروف باسم "پادري پيّو"، وهو موجودٌ في دير سان جُوڤانّي رُتونّدو الكبّوشيّ. وجاء الدركيّ إلى الدير، وسأل عن الجنديّ الفارّ، وعلم أنّه پادري پيّو، وبلّغه أمر الالتحاق بفوجه في ناپولي،

حيث اتُّهم بالفرار، ولكنّه، بكلّ هدوءٍ أبرز أمر الإجازة حيث ذُكِر أنّ عليه انتظار التعليمات، عند انتهاء مهلة إجازته، قائلًا: أمسِ، فقط، بُلِّغتُ التعليمات، فأسرعتُ بالمجيء". فأُغلِق ملفّ فراره، وأُعيد إلى الخدمة في منتصف شهر آب ١٩١٧. وكانت حالته الصحّيّة تقتضي إخضاعه لفحوصٍ طبّيّةٍ مستمرّةٍ، ولكنّ نتائج هذه الفحوص التي كانت تؤكّد خطورة حالته الصحّيّة، لم تُسفِر إلّا عن تسويف القرار بشأنه، فالجيش الإيطاليّ كان منهكًا، ومحتاجًا إلى كلّ عنصرٍ. وقد أُخضِع، مرّةً، إلى فحصٍ، ولم يُكلّف الطبيب نفسَه عناءَ فحصه، واكتفى بكتابة: "يصلح للأعمال الداخليّة". وأُرسِل إلى ثكنةٍ في نابولي، حيث مكث حتّى ١٩١٧/١١/٥.

حياة الثكنة كانت شاقّةً جدًّا. فتباين سلوكه المهذّب، مع سلوك سائر الجنود الحافل بالبذاءة والقحة، كان يعرّضه لتهكّم أترابه، فقد أوكلوا إليه المهامّ الأكثر قذارةً وتنفيرًا، والتي تحمّلها بصبرٍ، ولكنّه كان يقرف من تجديفهم المتواصل، والبذاءات السائدة بين المجنّدين.

آلمه الجوّ العسكريّ الذي غُمِس فيه، ولم يكن له عزاءٌ سوى الرسائل إلى مرشده الروحيّ، التي كان يحاول التنفيس، من خلالها، عن آلامه النفسيّة الحادّة التي أُضيفت إلى أوجاعه الجسديّة.

جاء في إحدى تلك الرسائل: "مثلتُ أمام الطبيب العسكريّ، فنظر إليّ بازدراءٍ، ولم يشأ أن يفحصني، ومع ذلك قرّر أنّني صالحٌ للخدمة. هذه المحنة حطّمتني. ولكن فلتكنْ مشيئة الله".

وجاء في رسالةٍ أخرى: "شاء يسوع معاقبتي بتضحيةٍ تتخطّى قدرتي. ليتك اطّلعتَ

على ما جاء في التقرير الطبّيّ: هيكلٌ عظميٌّ، تغذيةٌ رديئةٌ، التهابُ قناة التنفّس، علّةٌ رئويّةٌ منتشرةٌ... إنّي أحيا في جهنّم، ولكنّ يسوع، سيجد دواءً لأوجاعي... بات عيشي لا يُطاق، ومع ذلك أحتمله بهدوءٍ وتسليمٍ".

ويوم ١٩١٧/١٠/١٠، دوّن على ظهر بطاقةٍ بريديّةٍ: "منذ ثلاثة أيّامٍ، أنا في هذا المستشفى، حيث أُرسلتُ للعلاج، بعد أن بلغ مرضي ذروته. منذ أيّامٍ، أعاني حمّى حارقةً، لا تهادنني لحظةً".

وبلغ به الإحباط، يومًا، فكتب: "لو علمتُ أنّني أنفع لشيءٍ في هذه الدنيا، لرضيتُ احتمال ثقل هذه الحياة. ولكنّي أخشى ألّا أفيد في شيءٍ. ويرهقني الشعور بخيانة رسالتي الكهنوتيّة، وبجعلي نعمة رسامتي الكهنوتيّة عقيمةً". كان يموت على مهلٍ، غارقًا في ظلامٍ، نفسيٍّ دامسٍ.

وقد استهلّ إحدى رسائله بقوله: "مثل ولدٍ يحظى بأرقّ حبٍّ والديٍّ، ويخضع طوعًا لكلّ الإهانات، ويضطلع بأوضع الخدمات التي يفرضها عليه أبوه، لا بغية عدم عصيانه، بل رغبةً في إرضائه حتّى في أصعب الأمور...". ومع أنّ الجملة تتوقّف هنا، إلّا أنّه ليس من العسير تصوّر تتمتّها، التي تؤكّد تسليمه بمشيئة الله، مع أنّ آلامه كانت مستمرّةً، ومتفاقمةً وجعًا وسوءًا.

كانت حياة الثكنة لذلك البريء، لذلك الكاهن الذائب في الربّ، استشهادًا حقًّا.

يوم ١٩١٧/١١/٣، مُنح إجازة نقاهةٍ لمدّة أربعة أشهرٍ، وأُمهِل بضعة أيّامٍ للمغادرة، لأنّه كان فاقد القدرة على السفر.

يوم ١٩١٨/٣/٦، عاد إلى نابولي، وأُخضِع لفحصٍ طبّيٍّ جديدٍ، أكّد خطورة إصابته بمرضٍ عضالٍ، وإصابته بعلّةٍ، لا يمكن للعلم تحديد طبيعتها، علّة الصليب التي لم يتبيّنها أحدٌ.

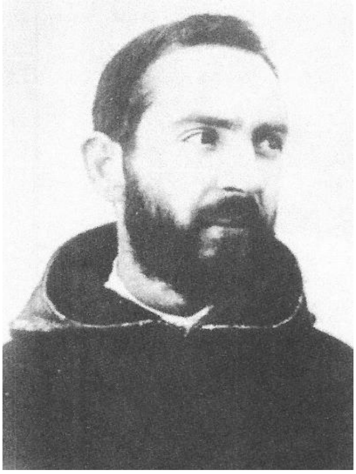

پادري پيّو القادم حديثًا إلى
دير سان جُوڤانيّ رُتونّدو

وتوقّع الأطبّاء العسكريّون موته الوشيك، فآثروا أن يموت بعيدًا عنهم، وأُعفي، إعفاءً نهائيًّا من الخدمة العسكريّة.

قبل عودته إلى ديره، عرّج پادري پيّو على پْيِترِلْشينا، كي يقدّم الشكر للسيّدة العذراء، قبل استقراره في دير سان جُوڤانيّ رُتونّدو، الذي لم يغادره منذئذٍ، حتّى وفاته.

تأمّـلٌ في نزاع يسوع

كان الأب پيّو، في مطلع سيرته الرهبانيّة، قد دوّن تأمّلًا مسهبًا في حدث الجلجلة، الذي تابعه، روحيًّا، بخشوعٍ ومحبّةٍ، وكأنّه يتابع منظرًا حيًّا يجري تحت ناظريه، مصوِّرًا وقائعه بأمانةٍ. وحيال بعض المشاهد، كان الوجد الإلهيّ يستبدّ به، وينتزع منه تأوّهاتٍ حارقةً، تذكّر بانخطاف "بليز پاسكال"، وبهتافاته الدامية، اللاهثة.

وقد نشر زميلٌ للأب پيّو هذا التأمّل، باسمٍ مستعارٍ، ويُسعدني أن أقدّم هذه الترجمة له، لعلّها تبرز امتزاج حياة پادري پيّو، بحدث الجلجلة الخلاصيّ، وتضيء مدى تمثّله بحبيبه المصلوب، تمثّلًا أهّله لأن يرسم المصلوب سمات صلبه فيه.

وإليكم ترجمة نصّ ذلك التأمّل:

«أيّها الروح الإلهيّ، أنِرْ عقلي، وألهبْ قلبي، فيما أنا عاكفٌ على تأمّل آلام المسيح. ساعدني على الولوج إلى سرّ المحبّة، وسرّ آلام إلهي تجسّد وتوجّع، ونازع ومات من أجلي.

إنّ الخالد الذي لا يموت تنازل واحتمل استشهادًا مذهلًا، وموتًا مخزيًا على الصليب، وسط الشتائم، والشماتة، وصيحات التعيير، من أجل إنقاذ الخليقة التي أهانتْه وتمرّغَت في حمأة الخطيئة.

الإنسان يتلذّذ بالخطيئة. وهذه الخطيئة تُحزِن الله حتّى الموت، وتستقطر منه عرقًا من دمٍ.

لا، لن أقوى على الدخول إلى لجّة المحبّة والألم هذه، ما لم تُسعِفْني نعمتُك، يا إلهي. فأشرع لي منفذًا إلى أعماق قلب يسوع، كي أقتسمَ معه المرارة التي اقتادته إلى بستان الزيتون، وإلى أبواب الجحيم، ولكي أواسيه.

في تجلّيه الأقصى. ليتني أتّحدُ به، وهو يعاني تخلّي أبيه، وتخلّي ذاته عنه، لكي أكفّر معه عن خطايا البشر.

ويا مريم، أمّ الآلام، ساعديني على اتّباع يسوع، ومشاركته، قلبيًّا، آلامه وغمّه.

ويا ملاكي الحارس، أبقِ طاقاتي مركَّزةً على يسوع المتألّم، فلا تحيد عنه أبدًا.

في غاية حياته الأرضيّة، وبعد أن سلّمَنا كامل ذاته، في سرِّ محبّته وافى يسوع إلى بستان الزيتون، الذي كان تلاميذه قد عهدوه، وعهده أيضًا يهوذا. وأهاب بهم أن يحتملوا، محبّةً له، الافتراءات والاضطهادات، وحتّى الموت، من أجل تحويل فظاعتها إلى بهاءٍ رائعٍ، تمثّلًا به، هو المثال الإلهيّ. ولحظة دخوله إلى آلامه المريرة، لم يفكّر في ذاته، بل فكّر فيك.

كم قلبه هو لجّةُ محبّةٍ! وكم يقرن محيّاه منتهى الحزن بمنتهى الرقّة! وكم تفيض أقواله المتفجّرةُ من أعماق قلبه، محبّةً!

يا يسوع، إنّ قلبي يضطرب، عندما يفكّر في المحبّة التي جعلتك تجري نحو آلامك. وبذلك، علّمتَنا أنْ ما من حبٍّ أعظم من أن يبذل المرء حياته لمن يحبّ. وهذا ما أنت عازمٌ على إثباته بمثالك.

في بستان الزيتون، ينأى المعلّم عن تلاميذه، ولا يستصحب سوى بطرس ويعقوب ويوحنّا، كي يشهدوا نزاعه. لقد شاهدوا تجلّيه على جبل طابور، فهل يقوَوْن على تعرّف الإنسان الإله، في الكائن الذي سيسحقه غمّ الموت؟

عند مدخل البستان قال لهم: "ابقوا ههنا. اسهروا، وصلّوا تفاديًا للتجربة. احذروا، فالعدوّ لا ينام. تسلّحوا بالصلاة، لكي لا تُفاجَأوا، بَعُد عنهم مسافةَ رمية حجرٍ، وارتمى معفِّرًا وجهه بالتراب، فيما نفسه غارقةٌ في بحر مرارةٍ، وغمٍّ أقصى.

الليل المتقدّم شاحبٌ، يضجُّ بالأشباح المشؤومة القاتمة، والقمر يبدو وكأنّه مضرّجٌ بالدم. الريح تخفق بالأشجار، وتخترق العظام، والطبيعة كلّها ترتعشُ جَزَعًا.

يا لها من ليلةٍ، لا مثيل لها!

يسوع يجلس كي يُصلّي، وقد جرّد بشريّته من قوّة اتّحادها بالأُلوهة. إنّه يغرق في هوّة الحزن، والاضطراب والهوان.

مسبّقًا، يشهد كلّ آلامه.

يرى يهوذا، رسوله الذي أغدق عليه محبّتَه، يبيعه بحفنة فلوسٍ، يراه قادمًا إلى الجتسماني كي يسلّمه، ويتمّم صفقة خيانته. ولكن ألمْ يُغَذِّه، قبل لحظاتٍ بجسده، أوَلم يروِه بدمه؟ أوَلم يكنْ، هو الربّ، قد انحنى أمامه، وغسلَ قدمَيْه، وضمّهما إلى فؤاده، وقبّلهما بشفتَيْه؟ وما الذي لم يفعله يسوع كي يوقفه عند حافّة التدنيس، أو على أقلّ تقديرٍ، كي يدفعه إلى الندامة. ولكنّه عازمٌ على الجري نحو هلاكه... ويسوع يبكي حزنًا عليه.

يرى يسوع ذاته مساقًا في شوارع أورشليم، حيث كانوا، منذ أيّامٍ معدوداتٍ، يُؤَجِّبون به مسيحًا. ويرى ذاته مُهانًا أمام رئيس الكهنة، ويسمع هتاف الرعاع: "اصلبْه، اصلبْه". هو واهب الحياة، يرى ذاته مجرورًا، مثل خرقةٍ باليةٍ، من محكمةٍ إلى محكمةٍ.

والشعب، شعبُه الذي طالما أحبّه، وأغدق عليه نِعَمَه، غدا يسخر به، ويرشقه بالإهانات، ويطالب بموته، أعتى موتٍ، على الصليب. يسمع الاتّهامات الملفّقة بحقّه، ويرى جلدَه، وتكليلَه بالشوك، وهزء الرعاع والفاسدين، والهتاف به ملكًا مزيّفًا للهزء به.

يسـمع حكمَ صـلبِه، ويرى صـعودَه إلى الجلجلة، ووقوعَه تحت وقر الصـليب، مترنّحًا، خائر القوى.

يرى وصـولَه إلى الجلجلة وتعريتَه من ثيابه، ممدّدًا على الصـليب، مثبَّتًا عليه بمسـامير غليظةٍ، مرفوعًا في الجوّ، مواجهًا السـماء والأرض، معلَّقًا بمسـامير، مختلجًا، لاهثًا، معانيًا عذاباتٍ مريعةً.

يا لها ساعات النزاع الثلاث التي قضت عليه وسط صيحات الرعاع السكرى حنقًا. العطش يلتهم حلقَه وأحشاءَه، فيُسقى خلًّا وحنظلًا.

يرى تخلّيَ أبيه عنه، وانهيارَ أمّه ألمًا.

يرى موتَه المخزي بين لصَّـيْن، أحدها يعترف بذنوبه ويخلُص، والآخر يشـتم ويموت مدانًا.

يرى القائد "لونجينوس" مقتربًا كي يطعنَ قلبه. يرى ذاته مقضـيًّا عليه، وانفصال جسده عن نفسه، كلّ ذلك يمرّ أمام عينيه، مشـهدًا مشـهدًا، ويرعبه، ويرهقه. فهل سيتراجع؟

منذ اللحظة الأولى، عانق يسوع كلّ شيءٍ وتقبّله. فعلامَ، إذن، كلّ هذا الجَزَع؟ ذلك أنّه عرّض بشريّته، مثل درعٍ تتلقّى ضربات العدل الذي أهانته الخطيئة.

إنّه يشـعر، شـعورًا حادًّا، في روحه الذي أمسـى وحيدًا، كلّ ما يتوجّب عليه معاناته، عن كلّ خطيئةٍ اقترفها البشـر، وتلقّي العقاب عنها. إنّه محطّمٌ، لأنّه، إراديًّا، ابتغى أن يكون ضحيّة الرعب، والوهن، والغمّ.

يبدو أنّه يلامس قعر الألم. إنّه مستلقٍ معفّرًا وجهه بالتراب، أمام جلالة أبيه. إنّ وجه الإنسان- الإله، الممجّد، يثوي، هنا في الرغام المُبهَم.

يا يسوع، ألست الله، سيّد السماء والأرض، والمساوي للآب؟ فعلامَ تتدنّى حتّى فقدان كلّ منظرٍ بشريٍّ؟

أجل، أفهم. أنت تريد أن تعلّمني، أنا المتكبّر، أنّ عليّ، كي أعبّد طريقي إلى السماء، أن أتوارى في أعماق الأرض. وأنت تنهار تكفيرًا عن صَلَفي، وتتدنّى حتّى الحضيض، كي تصالح السماء والأرض، ولكأنّك تريد تقبيلهما قبلة سلامٍ.

يسوع ينتصب واقفًا، ويوجّه نحو السماء نظرةَ توسُّلٍ، ويرفع ذراعيه مصلّيًا. يا لشحوب الموت الذي يكسو وجهه! إنّه يتضرّع إلى أبيه، وأبوه يُعرِض عنه.

يدعوه بثقةٍ بنويّةٍ، ولكنّه يعلم أين يقف الآن. يعلم أنّه ضحيّةٌ عن الجنس البشريّ بأجمعه، معرَّضًا لغضب الله المُهان. إنّه راضٍ بذلك، مصرٌّ عليه، ولكنّ طبيعته المحطّمة شرّ تحطيمٍ، تثور على التضحية. بيد أنّ روحه متأهّبٌ للذبح. والصراع الشاقّ مستمرٌّ.

يا يسوع، كيف لنا أن نلتمس منك مدّنا بالقوّة، ونحن نراك على هذا القدر من الوهن والانهيار؟

أجل، إنّي أُدرك أنّك أخذت كلّ وهَننا على عاتقك، ولكي تهبنا القوّة أصبحت كبش فدائنا. إنّك تبتغي تعليمنا واجب إيداع كلّ ثقتنا فيك، وحدَك، ولو بدت السماء من فولاذٍ.

في نزاعه يهتف يسوع إلى أبيه: "إن أمكن فأبعد عنّي هذه الكأس". إنّها صرخة الطبيعة التي، من هوّة انحطاطها، تلجأ إلى السماء بثقةٍ.

لِمَ، يا يسوع الحبيب، تطلب ما لن تناله؟

يا لهذا السرّ المذهل! إنّ العناء الذي يرين عليك، يجعلك تستجدي عونًا وسلوى. ولكنّ حبّك لنا، ورغبتك في إعادتنا إلى الله، يجعلانك تقول: "لا مشيئتي، بل مشيئتك".

قلب يسوع الحزين يحتاج إلى مؤاساة، فينهض على مهلٍ، ويخطو بضع

خطواتٍ، ويدنو من تلاميذه، أصدقائه، أنجيائه، لعلّهم يفهمونه ويشاركونه غمّه. ولكنّه يجدهم غارقين في الكرى. وبغتةً ينتابه شعورٌ بوحدة التخلّي.

"هل تنام يا سمعان؟ أنت من قال لي إنّه سيتبعني حتّى الموت! ويلتفت نحو الآخرَيْن: "ألم تستطيعا السهر معي ساعةً واحدةً؟".

مرّةً أخرى، يذهل عن آلامه، ويفكّر فيهم: "اسهروا وصلّوا، لكي لا تقعوا في التجربة". ولكأنّه يقول لهم: "إن كنتم نسيتموني، في صراعي وألمي، فعلى أقلّ تقديرٍ، اسهروا وصلّوا، من أجل مصلحتكم".

يا يسوع، كم من النفوس السخيّة التي هزّتها تأوّهاتك، تواكبك في بستان الزيتون، وتشاركك مرارتك، وغمّك القاتل! وكم من قلوبٍ، عبر الأجيال، استجابت، بأريحيّةٍ، لدعوتك. فعساهم يعزّونك، وباقتسامهم كربك، يساهمون في مهمّة الخلاص. وليتَني أكون، أنا، في عدادهم، وأخفّف، ولو قليلًا، من أساك يا يسوع الحبيب!

يعود يسوع إلى حيث كان يصلّي، فيخطر بعينيه مشهدٌ أشدّ هولًا. كلّ خطايانا، بكلّ تفاصيلها تعبر أمامه. إنّه يشهد مدى سفاهة مَن يدلون برأيهم فيه، وكم هم يهينون الجلالة الإلهيّة.

إنّه يرى كلّ القباحات والقذارات، والتجديفات التي تلوّث قلوبًا وشفاهًا، وُجِدت لتمجيد الله. يرى تدنيسَ المقدّسات التي يقترفها كهنةٌ ومؤمنون، ويشهد هول امتهان الأسرار المقدّسة، التي أسّسها من أجل خلاصنا، وحوّلناها، نحن، أسبابًا لهلاكنا!

على يسوع أن يلبسَ كلّ هذه الحمأة المنتنة، التي يغوص فيها الفساد البشريّ. هكذا عليه أن يمثل أمام قداسة أبيه. عليه أن يكفّر عن كلّ خطيئةٍ،

ويعيد لأبيه مجده المسلوب. وفي سبيل إنقاذ الخطأة، عليه التردّي إلى هذا المستنقع.

ومع ذلك، لم يتراجع، فغمَرته الحمأة، مثل موجةٍ عاتيةٍ، وأغرقته، وسحقته. وها هوذا أمام الآب، إله العدل. هو قدّوس القدّيسين، رازحًا تحت وقر الخطايا، متمثّلًا بالخطأة. فهل من يقدر رَوْز مدى هوله، واشمئزازه الأقصى، وغثيانه!

بعد أن أخذ على عاتقه كلّ شيءٍ، بلا استثناءٍ، سحقه العبء الرهيب، وراعه ثقل العدل الإلهيّ، أمام أبيه الذي سمح لابنه أن يقدّم ذاته ضحيّةً عن خطايا العالم، ويصبح ملعونًا.

لقد ارتعش طهره حيال هذا الخزي، وقد رأى عدلًا مهانًا، وخاطئًا مُدانًا. قوّتان تواجهتا في قلبه، وتغلّب العدلُ المهانُ. ويا له من مشهدٍ يستحقُّ الرثاء! هذا الإنسان الذي حملَ كلّ قذارتنا. هو القداسة الجوهريّة، وقد تمثّل، خارجيًّا بالمجرمين. إنّه يرتجف ارتجاف ورقةٍ في مهبّ الريح.

في مواجهة هذا النزاع المريع، يستغرق يسوع في الصلاة، خارًّا أمام جلالة أبيه، قائلًا: "يا أبتاه، أبعد عنّي هذه الكأس!". ولكأنّه يقول: "أريد تمجيدك، وتحقيق عدلك، ومصالحة الجنس البشريّ. ولكن لا بهذا الثمن. لا، لست أريد، أنا القداسة الجوهريّة، أن أتلوّث بالخطيئة. لا... لا أريد هذا. أيّها الآب، أنت قادرٌ على كلّ شيءٍ، فأقصِ عنّي هذه الكأس، وجِدْ، في كنوز حكمتك التي لا يُسبَر غورها، وسيلة خلاصٍ أُخرى. وإن لم تشأ، فلتكنْ مشيئتُك، لا مشيئتي".

في هذه المرّة، أيضًا، لا تؤتي صلاة المخلّص ثمرةً، ويعتريه شعورٌ بجزع الموت. وينهض، ثانيةً، بحثًا عن مؤاساةٍ. ولكنّ قواه خائرةٌ. إنّه يجرّ ذاته صوب تلاميذه، متعثّرًا، ويجدهم ما زالوا نيامًا. فيتعمّق حزنه، ويكتفي بإيقاظهم. هل خجلوا؟ لا يقول يسوع شيئًا، ولكنّي أرى حزنه العصيّ عن الوصف. إنّه يحتفظ لنفسه بكلّ مرارة هذا التخلّي.

يا يســوع الحبيب، ما أشــدّ الكرب الذي أُطالعه في قلبك، والذي يفيض غمًّا! أراك تنأى عن تلاميذك، مطعون القلب. فهل لي أن أواســـيك، وأُقلّل، ولو قدرًا ضـئيلًا من كربك؟ غير أنّني لا أعرف ســوى البكاء بقربك، مازجًا دموع محبّتي وتعاطفي بدموعك، عســـاها ترتفع إلى عرش أبيك، ولعلّه يرأف بك، وبجمٍّ من النفوس الغارقة في سبات الخطيئة والموت.

يعود يسوع إلى مكان صلاته مرهقًا، مسحوق القلب حزنًا، ويهوي تحت عبء غمٍّ قاتلٍ، وتزداد صـــلاته كثافةً. وأبوه يُشـــيح نظره عنه، كما لو كان أحقر الخلائق.

يبدو لي ســـماع تأوّهات المخلّص: "ليتَ البشـــر الذين أعاني من أجلهم، يستفيدون من النعم التي تؤتيها آلامي الجسيمة. ليتَهم يُقيّمون حقّ قدره الثمن الذي أدفعه من أجل افتدائهم، ولكي أهبهم حياة أبناء الله! آه! إنّ هذه المحبّة تمزّق قلبي أكثر ممّا سيمزّق الجلّادون جسدي بعد قليلٍ.

يرى يســـوع أنّ الإنســـان لا يتّبعه، لأنّه يأبى اتّباعه. يراه يجدّف على دم المخلّص، ويرتكب الفظائع، محوّلًا دم الضــحيّة إلى إدانةٍ له. ما أقلّ عدد الذين يستفيدون من دم الربّ، وما أكثر عدد الذين يسعون نحو هلاكهم!

في غمرة كُربه، يستمرّ يسوع يكرّر قوله: "ما أقلّ الذين يستفيدون من دمي!"

لم يعُدْ لديه أحدٌ ينال منه قطرة عزاءٍ. فالسـماء موصـدةٌ في وجهه. والإنسـان الذي انســحق، هو، تحت وقْر خطاياه، يُنكر جميله، ويتجاهل محبّته. فيغمره الأسى، ويهتف في غور هول نزاعه: "نفسي حزينةٌ حتّى الموت".

أيّها الدم الإلهيّ، إنّك تتفجّر تفجُّرًا لا يُقاوَم، من قلب يســـوع، وتنثال من كلّ مســامّه، من أجل غســل هذه الأرض، ناكرة الجميل. اســمح لي أن أتلقّاك، أيّها

الدم، فائق الثمن. أريد إيداعك في كأس قلبي. أنت الدليل الدامغ على الحبّ الذي أســـالك. أريد أن أتطهّر بك، أيّها الدم الثمين. وأودّ أن يطهّر دمك كل النفوس التي لوّثتها الخطيئة. أريد أن أقدّمك للآب.

أيّها الآب، هذا هو دم ابنك الحبيب الذي وافى إلى الأرض كي يطهّرها. إنّه دم الابن الذي يعود صـــاعدًا نحو العرش كي يصـــالح العدلَ المنتهكَ. إنّه تعويضٌ وافٍ حقًّا.

ولكن، هل انتهى يسوع إلى غاية آلامه؟ لا، فهو يأبى درء سيول حبّه!

يجب أن يعلم البشـــر عظمة حبّ الإنســـان الله لهم. ويجب أن يعرفوا إلى أيّة هوّة دناءةٍ يستطيع أن يتدنّى حبٌّ بلغ أقصى الحدود. وحتّى عندما يرضى الآب بهذا الدم الثمين المراق، فالإنسان يحتاج إلى براهين ملموسةٍ على هذا الحبّ.

لا، لم يكتفِ قلب يسوع المترع حبًّا! فيهتف من جديدٍ: "يا أبتاه، إن لم يكن بدٌّ من ارتشافي هذه الكأس، فلتكن مشيئتك!".

ومنذ تلك اللحظة، يســـتجيب يســـوع، من أعماق قلبه المتأجّج حبًّا لصـــيحة البشريّة التي تطالب بموته ثمنًا لافتدائها.

حينئذٍ، أرســــل الله لابنـه ملاك عزاءٍ. ولكن، أيّ عزاءٍ يقدر ملاكٌ تقديمـه لله القويّ، الله غير المرئيّ، الله كلّيّ القدرة؟ فهذا الله قد توخّى الخضـوع للألم، لأنّه أخذ على عاتقه كلّ أوهاننا. وها هوذا رجل الآلام يقاسي غُصَص النزاع. وها إنّ حبّه يستقطر منه دمًا.

إنّه يتضـــرّع إلى الله من أجل ذاته ومن أجلنا. وأبوه يأبى الاســـتجابة له، لأنّ عليه أن يموت من أجلنا. أظنّ أنّ الملاك يســـجد ســـجودًا ســـحيقًا أمام البهاء الإلهيّ المضرّج بالتراب والدم، ويتوسّل إليه، باحترامٍ جمٍّ، أن يرتشف كأس مجد الآب، من أجل افتداء البشر.

هو، قوّتنا، سيسارع إلى عوننا، بما أنّه ارتضى احتمال كلّ شدائدنا.

أجل، يا يســوع الحبيب، عليك الآن أن تتجرّع هذه الكأس حتّى الثمالة. فقد قُضيَ عليك أن تقاسي الموت الزؤام.

يا يسـوع، لا تسـمح أن يفرّقني شـيءٌ عنك: لا حياةٌ ولا موتٌ. وإذا التحقت بآلامك، طوال حياتي، بحبٍّ جمٍّ، فسـيُتاح لي أن أموت معك في الجلجلة، وأن أصعد معك إلى المجد. وإذا اتّبعتك في الشدائد والاضطهادات، فسأتأهّل لحبّك، ذات يومٍ، وجهًا لوجهٍ، في السماء، أبديًّا، ولإنشاد تسابيحك، شكرًا على آلامك المضنية.

انظروا، ها إنّ يسوع ينهض من الرغام، قويًّا لا يُقهر. أفلم يرغب رغبةً عارمةً في مأدبة الدم هذه؟ إنّه ينفض عنه اضـطرابه، ويمسـح العرق الدامي عن محيّاه، ويمضي، بثباتٍ، إلى مدخل البستان.

إلى أين أنت ماضٍ، يا يسوع؟ ألم تكن، للحظاتٍ مضت، ضحيّة الغمّ والألم؟ ألم أرَك مرتعدًا، تحت وقر المِحَن التي ستنهال عليك؟ إلى أين تمضي، شجاعًا، باسلًا؟ ولمن تريد أن تسلّم ذاتك؟

– "اسمعْ، يا بنيَّ، لقد ساعدتني أسلحة الصلاة على الانتصار. وروّضت نفسي ضعفَ الطبيعة. زوّدتني الصلاة بالمنعة، والآن بتّ قادرًا على المواجهة. تمثّلْ بي، وتعاملْ مع السماء مثلما تعاملتُ أنا".

يســوع يدنو من التلاميذ الذين ما زالوا نيامًا، لأنّ التأثّر الطاغي، والليل الداجي، وتوقُّع حدثٍ مريعٍ لا مفرّ منه، والتعب، كلّ هذه عوامل أغرقتهم في نومٍ ثقيلٍ. ويســوع يرأف بوهنهم قائلًا: "إنّ الروح يقظٌ، ولكنّ الجسـد ضـعيفٌ". ويهتف: "ناموا، الآن، ملء جفونكم، واستريحوا". وهم يسمعونه قادمًا، ويفتحون عيونهم بمشقّةٍ. ويستأنف القول: "كفى. لقد حانت الساعة، وسيُسلَّم ابن البشر إلى أيدي الخطأة. انهضوا، ولننطلق، فخائني قد اقترب".

يســوع يرى كلّ شــيءٍ بعينيه الإلهيّتَيْن، ويبدو أنّه يقول: "أنتم، يا أصـدقائي، ويا تلاميذي، تنامون في حين يســهر أعدائي، ويقتربون من أجل القبض عليّ. أنـت، يـا بطرس، يا من زعم، منـذ لحظاتٍ، أنّ لـديـه من القوّة مـا يمكّنـه من اتّباعي حتّى الموت. ها إنّك غارقٌ في النوم. منذ البدء لم تكفّ عن الدلالـة على ضعفك، ولكن اطمئنّ. فقد ارتديتُ، أنا، ضعفك، وصلّيتُ من أجلك، وعندما ستعترف بخطئك سأكون أنا قوّتك، وسترعى حملاني...

وأنت، يا يوحنّا، تنام؟ أنت ســمعتَ، منذ لحظاتٍ، خفقات قلبي، ولم تســتطع الســهر معي ســاعةً واحدةً! انهضـوا، ولننطلق، فلاتَ، الآن، سـاعة نومٍ. العدوّ عند الباب. والساعة هي ساعة قوى الظلام. فلننطلق. أنا، بملء رضاي، أمضي لملاقاة الموت. يهوذا مسـتعجلٌ لخيانتي، وأنا ماضٍ إليه: لن أمنع النبوءات من أن تتحقّق حرفيًّا. فقد آنت ساعة الرحمة اللامحدودة.

وقع خطواتٍ يقرع الأرض، ومشــاعل تملأ البســتان بأشــعّةٍ وظلالٍ قرمزيّةٍ. ويسوع يتقدّم بجرأةٍ وسكونٍ، وتلاميذه في إثره.

"يا يســوع هبني القوّة، عندما تنتفض طبيعتي، حيال إنذارات الألم، كي أتقبّل بحبٍّ، شــدائد حياة هذا المنفى، وأحزانها. إنّي أتّحد بكلّ قواي باســتحقاقاتك، ومشــاقّك، وبتكفيرك عن خطايانا، وبدموعك، علّني أشــاركك مهمّة الخلاص، وأقوى على تفادي الخطيئة، فهي علّة نزاعكَ الوحيدة، وســبب عرقك الممزوج بالدم، وهي سبب موتك.

"دمّر، يا يسوع، كلّ ما لا يروق لك فيَّ، واطبعْ، في قلبي، بنار حبّك المقدّس، كلّ آلامك، واغمرني بضمّةٍ حميميّةٍ، قويّةٍ وعذبةٍ، لكي لا أدعك، أبدًا، وحيدًا في عذاباتك الغاشمة.

لستُ أنشد الراحة إلّا في قلبك. فلستُ راغبًا في شيءٍ سواك. أشاركك نزاعك المقدّس، عسى أن تنتشي نفسي بدمك، وأن تتغذّى بخبز آلامك. آمين»

الكاهن الضحيّة

لم ينفصل، قطّ، الحبّ عن التضحية والألم، في حياة عملاق القداسة "پادري پيّو". وقد وثّق هذا الترابط المُحكَم بين الحبّ والتضحية اتّحاد الكاهن بربّه. وأكمل تمثّله بمصلوب الحبّ.

لقد قدّم ذاته، كلّيًّا لله، وترك له أن يعمل فيه كما يهوى. واستخدم الربّ هذه التقدمة الطوعيّة السخيّة كي يعدّ تلك النفس المختارة لرسالةٍ فريدةٍ.

وكان قد باح عام ١٩١٠، في رسالةٍ إلى مرشده الروحيّ، الأب بينيديتّو:

« إنّ رغبتي في تقديم ذاتي ضحيّةً عن الخطأة، وعن النفوس القابعة في المطهر، ما انفكّت تتنامى حتّى غدت هوًى آسرًا. ولطالما سألتُ الربّ أن يقبل هذه التقدمة، وأن يُنزِل عليّ العقوبات المعدّة للخطأة، وللنفوس الثّاوية في المطهر، بل سألته أن يُضاعفها لعلّها تُفضي إلى ردّ الخطأة عن خطاياهم، وتقتادهم إلى سُبُل خلاصهم وتسرّع انتقال النفوس المطهريّة إلى الفردوس»

وقد جاء في إحدى رسائله إلى مرشده قوله: "إنّني أبتهج بآلامي، ويسوع ذاته يريدها، ويحتاج إليها من أجل النفوس".

كان قلبه يتحطّم كلّما قرأ الحزن على قسمات وجه يسوع، وكان يسوع يقول له، حينئذٍ: "يا بنيّ، أنا بحاجةٍ إلى ضحايا كي أهدّئ غضب أبي الإلهيّ. فجدّد تقدمتك ضحيّةً، بكلّ ذاتك، وبلا أيّ تحفّظٍ".

وجاء في رسائله: "عندما يبتغي يسوع إفهامي أنّه يحبّني، يجعلني أعاني جراح آلامه،

والأشواك المغروسة في جبينه، والغموم... وعندما يريد إفراحي يُترع قلبي بروحه الناريّ. ولكنّه عندما يرغب في حبّي لا يحدّثني عن آلامه، ويدعوني، بلهجةٍ هي، في الآن عينه، دعوةٌ وأمرٌ، أن أقدّم له جسدي كي أُخفّف آلامه... إنّ يسوع، رجل الآلام، يريد أن يتمثّل به جميع المسيحيّين". "ليس سهلًا إدراك حجم العزاء المقدّم ليسوع، ليس فقط بالتعاطف مع آلامه، بل بطلب مشاركته آلامه ذاتها، عوضًا من طلب العزاء للذات".

"أجل، أُحبّ الصليب، ولا أحبّ سواه. أُحبّه لأنّي أراه، دائمًا، على كتفيْ يسوع. بعد الآن، سيرى يسوع، بوضوحٍ، أنّ حياتي كلّها، وقلبي بأجمعه. مكرّسان له ولآلامه".

على صورة ذكرى سيامته الكهنوتيّة، كان الأب پيّو قد دوّن دعاءً ختمه بعبارة: "ولْأكنْ لكَ كاهنًا قدّيسًا، وضحيّةً كاملةً".

واندرجتْ حياته في سعيٍ حثيثٍ، دائبٍ، على بلوغ القداسة وفي تضحياتٍ سخيّةٍ، تقديسًا لكهنوته، وافتداءً للنفوس التي ابتغى الربّ افتداءها بدمه وآلامه، ولكنّها جحدته.

وكان وطيد الإيمان بأنّ الآلام المتقبَّلة برضًى، تُفضي إلى خير المتألّم، أو لمن يقدّمها هو لهم. وكان موقنًا، أيضًا، بأنّ الله يأذن، أحيانًا، لعدوّ الله والبشر أن يضطهد نفوسًا مكرّسةً له، لأنّ ثمار تلك الاضطهادات، ستؤتي ثمارًا جزيلة الجدوى. ولذلك أذن الربّ للشرّير أن يوسع مختاره پيّو اضطهادًا، في فترة استعداده لرسالته التي ستُنزِل بإبليس هزائم مريعةً، وبالراهب القدّيس، أوجاعًا مضنيةً. وقد بلغت تلك الاضطهادات ذُروتها بين عامي ١٩١١ و١٩١٦. وسنُفرد فصلًا لسرد نماذج عن تلك الاضطهادات الإبليسيّة.

وإلى جانب اضطهادات إبليس، سمح الربّ بأن تستمرّ أمراض كاهنه المختار،

فتفاقمت أوجاع صدره، ونوبات تعرّقه البارد، والحمّيات الحارقة، والإغماءات، ولم يجد الأطبّاء إلى شفائها سبيلًا، ولا إلى تخفيف وطأتها وسيلةً. وكتب الأب پيّو إلى مرشده، يوم ١٩١١/٦/٢٧ : "أظنّ أنّ لا جدوى من الاستعانة بالأطبّاء، فلديّ يقينٌ بأنّ الله لا يريدها، وبعجز كلّ العلاجات عن شفائها".

ومع ذلك، اقتاده مرشده إلى ناپولي، حيث فحصه طبيب مختصٌّ بالأمراض الرئويّة. وبعد تشخيصٍ دقيقٍ، أعلن أنّه لم يبقَ للراهب المعتلّ أكثر من شهر حياةٍ، وأنّ ما من عقارٍ يقدر على الحؤول دون ذلك المصير المحتّم.

وارتأى الرئيس العامّ على جمعيّته المجيء به إلى ديرٍ في "ڤينافرو" (Venafro)، القائم على مسافة ثلاثين كيلومترًا من البحر، آملًا في أن ينعش مناخ البحر رئتيه، وفي أن يريحه جوّ المنطقة الرائع، وإذا كان عليه أن يموت، فسيموت محاطًا بإخوته وبعنايتهم. غير أنّ إقامته في ذلك الدير أدّت إلى تفاقم سوء حاله، حتّى غدا عاجزًا عن الاحتفال بالقدّاس اليوميّ، وعن تناول أيّ طعامٍ، فقضى واحدًا وعشرين يومًا، لم يتغذَّ، أثناءها، إلّا بالقربان المقدّس. وكان بقاؤه على قيد الحياة، في هذه الظروف، معجزةً حيّرت الطبيب الذي فحصه في ناپولي، والذي أصدر حكمًا بموته الوشيك.

بالإجمال، كانت تلك الفترة مزيجًا من أقسى الآلام الجسديّة، وأشرس الهجمات الشيطانيّة، والانخطافات والرؤى الألمع بهاءً.

وفي غمرة آلامه ومِحَنه كان الهمّ المسيطر على نفسه، خلاص الخاطئين. فقد سمعه مرشده أثناء انخطافٍ يخاطب الربّ قائلًا، عن نفسٍ طُلِب منه التشفّع من أجلها: "يا يسوع، خلّص هذا الإنسان!".

وسأله الربّ عن إنسانٍ آخر: "هل تريد معاقبته؟". – كلّا، يا يسوع بل عاقبني أنا، ولا تعاقبه. أفلم أقل لك إنّني أقدّم ذاتي عن الجميع؟".

وقد استدعى رئيسه، مرّتين، طبيبًا كي يشخّص حاله، أثناء انخطافاته. وفي المرّتين أدهشت الطبيب ملاحظتُه تناغمًا تامًّا بين خفقات قلبه، وسرعة نبضه، وبقاء كلّ وظائفه الجسديّة طبيعيّةً. وكان إذّاك، مستلقيًا على سريره، متورّد المحيّا، شاخصًا بنظره إلى ما لا يراه أحدٌ غيره، مخاطبًا، على التوالي، يسوع وأُمّه العذراء، وملاكه الحارس، خطابًا يفتقر إلى الترابط. وينتهي حواره، بمجرّد تواري محاوريه، فيغمض عينيه، وينام. وحينئذٍ، كان، إذا ناداه رئيسه، بصوتٍ خافتٍ، وهو بعيدٌ عنه، ينهض مبتسمًا، مازحًا، وكأنّه لم يحدث له شيءٌ.

واستأنف الشرّير هجماته الشرسة.

وغداة عودته إلى پيترِلْشينا، في ١٩١١/١٢/٧، احتفل بعيد الحبل بلا دنسٍ، بهمّةٍ ونشاطٍ، ولكأنّه لم يتألّم قطّ.

هجماتٌ شيطانيّةٌ

مُذْ عزَمَ الأخ پيّو، في سنّ الخامسة عشرة، على تقديم ذاته لله، كان يُدرك حجم الصراعات الطاحنة التي سيخوضها، حتّى آخر يومٍ من حياته، مع إبليس. وقد جهد الشرّير في ثنيه عن تلك المسيرة التي كان يخشاها، فشنّ عليه حملاتٍ شرسةً، كادت تقضي عليه، لو لم يمدّ له الربّ يد غوثه، انتصارًا على عدوّهما.

وسبقت لنا الإشارة إلى ألاعيب الشرّير، التي ابتغى من خلالها فتَّ عضد كاهنٍ، توسّم فيه خصمًا خطيرًا، لم يعهد تاريخ الكنيسة سوى حفنةٍ من أمثاله، عازمًا على انتزاع ضحاياه من براثنه، وإعادتها إلى مخلِّصها وفاديها. وفي هذا السبيل، استخدم الشرّير أشدّ الأساليب مكرًا، حتّى إنّه، أحيانًا، "تنكّر بهيئة نورٍ"، على حدّ قول الرسول بولس (٢ كور ١٤: ١١)، وربّما فاته أنّ تأثيره لا يؤتي أُكُلَه إلّا على النفوس التي أوقعها في وهاد الخطيئة، وأوهنها، وبسط سلطانه عليها. أمّا على النفوس المقاومة، والمسلّحة بالوفاء ليسوع، فإنّ أبرع خِدَعه تُمنى بالفشل، والخسأ.

وكان الراهب پيّو يعرّف الشرّير بلقبَيْن، فحينًا يسمّيه "القوقازيّ"، أي المحارب الشرس، وحينًا آخر، يطلق عليه لقب "صاحب اللحية الزرقاء"، للدلالة على احتياله.

فمنذ عام ١٩١٠، ولم يكن قد مضى على سيامته الكهنوتيّة سوى ثلاثة أشهرٍ، كتب إلى مرشده الروحيّ: "صراعاتي الروحيّة تفوق بلا قياسٍ، آلامي الجسديّة الماضية تفاقمًا وحدّةً... إنّني أتمنّى أن أنعم ولو بساعة هدنةٍ واحدةٍ... إنّ الشرّير يقضّ مضجعي، حتّى أثناء سويعات راحتي، ويبتغي القضاء على حياتي، بأيّ ثمنٍ، ويلاحقني بهجماته، حتّى وأنا صاعدٌ إلى الهيكل. ولكنّ يسوع معي، فممّن أخاف؟". ويفسّر

ذلك بقوله: "جميع الصور القبيحة التي يسرّبها إبليس إلى ذهني، تتلاشى عندما أستسلم، واثقًا، بين ذراعَي المصلوب. حينئذٍ، وأنا مع يسوع المصلوب، أي عندما أتأمّل في آلامه أتوجّع بحدّةٍ، ولكنّ هذا الوجع يؤتيني خيرًا جمًّا، ويغمرني بسلامٍ وسجوٍ يتعذّر عليّ التعبير عنهما".

ولم يكن الشرّير يهمل وسيلةً للإيقاع به، فيوهمه باقترافه خطايا دنسٍ فظيعةً، ويُسرِّبها إلى مخيّلته، كي يوهن ثقته بذاته. وقد كتب يوم ١٩١١/٤/٩، أثناء أُسبوع الآلام: "... حتّى في هذه الأيّام المقدّسة، يجهد العدوّ في إخضاعي لمراميه الأثيمة، ويسعى، بنوعٍ خاصٍّ، إلى أن يسرّب إلى نفسي خواطر دنسةً، ونوازع قنوطٍ من رحمة الله". وحينئذٍ، كان الأب پيّو يلجأ إلى مرشده، تبديدًا لهواجسه ووساوسه.

في نوبةٍ أخرى، كتب: "إنّ صاحب اللحية الزرقاء، يأبى الإقرار بالهزيمة. ويرتدي جميع الأشكال، وما زال يزورني منذ أيّامٍ مع أفراد زمرته المسلّحين بعصيٍّ وأدواتٍ حديديّةٍ. والأنكى أنّهم يُسفرون، أحيانًا، عن أشكالهم المريعة... كم مرّةً رموني عن سريري، وجرّوني على الحضيض". "إنّهم يوسعونني ضربًا حتّى الموت". وهو لم يكن يعني الضرب بالمعنى المجازيّ، بل بالمعنى الحرفيّ، الفعليّ، وكانت آثاره باديةً عليه.

ولطالما نهض، صباحًا، مدمًّى، ومغطًّى بالكدمات. ومع ذلك، كان يؤكّد: "أحمد الله، فيسوع وأُمّه، وملاكي الصغير، والقدّيس يوسف، والأب فرنسيس، هم غالبًا معي".

لقد تناوبت عليه الضربات الشيطانيّة، والتعزيات الإلهيّة، وحاكت نسيج حياته.

لم يملَّ إبليس في ابتداع أساليب خداعه، متنكّرًا بشتّى الأشكال، فتارةً هو هرٌّ أسود أو كلبٌ أسود، وتارةً يظهر بشكل القدّيس پيّوس العاشر، أو مرشده الروحيّ، وحتّى

بشكل العذراء مريم، وطورًا بمظهر راقصةٍ عاريةٍ، جاهدًا بكلّ الوسائل، في التأثير على حواسّه، وإرادته، ودفعه إلى القنوط وفقدان الثقة بالله.

ولكنّ الربّ كان دائم السهر على مختاره، فلم تكن مراودة الشيطان تدوم أكثر من عشرات الدقائق، ولا تلبث أن تمّحي آثارها من نفسه، بمجرّد ظهور يسوع، وأُمّه، أو حضور ملاكه الحارس، وأبيه القدّيس فرنسيس.

وقد بلغت تلك الاضطهادات الشيطانيّة ذروتها، بين عامي ١٩١١ و١٩١٦. ثمّ أناب إبليس أساقفةً وكهنةً، وحتّى إخوةً للأب پيّو من الكبّوشيّين لإكمال اضطهاده. ومع ذلك، لم ينثلم، لحظةً، إيمانه بأنّ الربّ أَذِنَ بأن يقاسي كاهنه الوفيّ، تلك الاضطهادات الطاحنة، في معظم مراحل حياته، وقد تقبّلها هو برضًى، وتسليمٍ بإرادة الربّ، فآتت تلك الاضطهادات، حصادًا وفيرًا، قلّما كان له مثيلٌ، في تاريخ الكنيسة، وأسهم في خلاص آلاف النفوس.

وبتاريخ ١٩١٣/٢/١٣، كتب الأب پيّو: "ما زال يسوع يحبّني... بدليل أنّه ما انفكّ يبتليني بالفناطيس القذرة. فهو، منذ اثنين وعشرين يومًا، يسمح لها بأن تصبّ عليّ غضبها، مرضِّضًا بالكدمات جسدي، بأيدي أعدائنا".

كان العدوّ يجرّده من قميصه، ويعرّضه للذعات البرد القارس. ولكنّ يسوع كان يطمئنه: "لا تخف، سأجعلك تتألّم، ولكنّي سأهبك القوّة على احتمال الألم".

استعدادٌ للرسالة الفدائيّة: صراعاتٌ مع قوى الجحيم وظهوراتٌ سماويّةٌ

قضى الأب پيّو، أكثر من ستّ سنواتٍ، في قريته پْيِترِلْشينا، من جرّاء انهيار صحّته، وتفاقم مرضه سوءًا.

حرصًا منه على العزلة والتأمّل والمثابرة على الصلاة، وكأنّه في منسك ديره، أقام في بيت أخيه الأكبر الذي كان قد هاجر إلى أميركا. وهو حُجرةٌ ضيّقةٌ جاثمةٌ فوق صخرةٍ، يُصار إليها عبر عشرين درجةً متباعدةً.

ولكنّه لم يحظَ بالعزلة التامّة التي كان يطمح إليها، فقد كان، في ذلك المنفى، خاضعًا لسلطة راعي القرية، وكان يقيم قدّاسًا باكرًا، صباحًا، يحضره الفلّاحون، قبل انطلاقهم إلى حقولهم، وكان يشارك في مراسم الزواج والجنازات.

وكان على تواصلٍ دائمٍ مع معرِّفه، ومع مرشده الروحيّ، يطلعهما على مسيرته الروحيّة، وهما كانا يرشدانه. غير أنّهما بعد اطّلاعهما على قداسة سيرته، وكونه نفسًا مختارةً، صارا يلتمسان نصائحه، ويوكلان إلى صلواته وإرشاداته نفوسًا، تجتاز أزماتٍ روحيّةً.

وسرعان ما توسّمت قوى الجحيم في ذلك الراهب خصمًا خطيرًا، فشنّت عليه حربًا شرسةً، بلا هوادةٍ. وقد كتب، يوم ١٩١٢/٦/٢٨، إلى مرشده:

«كانت ليلتي الفائتة شاقّةً جدًّا. فقد دأب "القوقازيّ" (إبليس) على ضربي مذ استلقيتُ على سريري، عند الساعة العاشرة، حتّى الساعة الخامسة صباحًا،

وكم من إيحاءاتٍ شيطانيّةٍ سرّبها إلى ذهني، إيحاءات قنوطٍ، وفقدان ثقةٍ بالله. ولكنّي احتميتُ بيسوع، وظللتُ أهتف: "جراحُك هي خلاصي".

"خُيِّل إليَّ أنّ تلك الليلة، كانت ليلتي الأخيرة على الأرض. وظننتُ أنّني، إن لم أمتْ، فسأفقدُ عقلي. ولكن، بنعمة الله، لم يحدث شيءٌ من ذلك. ولمّا غادرني "القوقازيّ"، صباحًا، استحوذ عليّ بردٌ مميتٌ، فارتجفتُ من رأسي إلى أخمص قدميّ، ارتجاف قصبةٍ تضربها ريحٌ عاتيةٌ. دام ذلك ساعتَيْن، وامتلأ فمي دمًا.

"وأخيرًا، حضر الطفل يسوع، فقلتُ له إنّني لا أُريد سوى تحقيق مشيئته، فواساني وقوّاني، وواسى آلامي الليليّة. كم كان قلبي الصغير يخفق، وكم كانت وجنتاي تلتهبان في حضور الطفل السماويّ!".

على هذا المنوال اندرجت معظم لياليه، تناوبُ اضطهاداتٍ شيطانيّةٍ ومؤاساةٍ إلهيّةٍ.

وفي رسالةٍ أخرى كتب: "قضيتُ الليل كلّه مع يسوع في آلامه. تألّمتُ كثيرًا، ألمًا لم يُلحق بي أذًى. فقد كانت ثقتي بالله تتنامى باطّرادٍ، وكنت أشعر بمزيدٍ من الانجذاب إلى يسوع. ومع خلوّ نفسي من أيّة نارٍ، كنت أحترق، داخليًّا. ومع تحرّري من أيّ رباطٍ كنتُ مشدودًا إلى يسوع، مقيّدًا به. آلاف النيران كانت تحرقني، وتحميني، وتُميتُني، في آنٍ واحدٍ. كنتُ أتألّم، وأحيا وأموت، باستمرارٍ".

في غمرة صراعه مع الشرّير، كان الربّ يؤكّد له وقوفه إلى جانبه. وقد دوّن في رسالةٍ إلى الأب أغوستينو:

"يوم الجمعة الماضي (أي يوم ١٩١٢/٨/٢٣)، كنتُ في الكنيسة أقدّم صلوات الشكر، وبغتةً شعرتُ أنّ سهمًا ناريّةً حادّةً جرحت قلبي، وكادت تقتلني. لست أجد كلماتٍ قادرةً على التعبير عن كثافة ذلك اللهب. كان نارًا تأخذ بمجامع النفس، ويا لها من نارٍ، ويا لها من عذوبةٍ. لقد غمرتني توثّباتُ حبٍّ طاغيةٌ،

وحسبتُ، مدى فترةٍ أنّني خارج هذا العالم... لو استمرّت تلك الحال، ثانيةً إضافيّةً، لانفصلتْ نفسي عن جسدي، ولالتحقتُ بيسوع. آه، ما أروع أن يكون المرء ضحيّةَ مثل هذا الحبّ!".

كان يلازمه ويرهقه شعورٌ بعجزه عن التجاوب، تجاوبًا لائقًا مع حبّ يسوع له. فكتب، يوم ١٩١٢/١/٥:

"... إنّ أشدّ ما يحزنني هو أنّي أقابل حبّ يسوع الجمّ، بجحودٍ بالغٍ. هو ما انفكّ يحبّني ويضمّني إليه. لقد ذهل عن خطاياي، ولكأنّه لم يعد يذكر سوى رحمته. إنّه يأتي إليّ، كلّ صباحٍ، ويسكب في قلبي المسكين عصاراتِ عطفه. ليتني أستطيع أن أغسل بدمي، كلّ الأماكن التي لوّثتُها بخطاياي، وعثّرتُ بها نفوسًا عديدةً!".

هذا الشعور المرهق كان يسرّب إلى نفسه، أحيانًا، تمنّي الموت. وقد كتب إلى مرشده الأب أغوستينو، يوم ١٩١٢/٦/١٧:

"إنّي أشعر أنّه، إذا استمرّ يسوع يحرق قلبي وأحشائي، كلّ صباحٍ، قبل اتّحادي به، فلن أقوى على الصمود، وسأرحل... آه، لو استطعت الرحيل سريعًا!".

كان حبّ يسوع يطغى على مِحَنه الطاحنة، وقد صرّح لأحد أبنائه الروحيّين: "مَن ابتغى حبَّ يسوع، حقًّا، عليه أن يكون يسوعًا آخر". كان مطمح الأب پيّو الدائم تجسيد يسوع في حياته، ومواكبته في نزاعه وآلامه، وأن يُصلَب معه، حبًّا به. وفي رسالةٍ بعث بها إلى مرشده، يوم ١٩١٢/٤/١٨، كتب: "... لقد انصهر قلب يسوع وقلبي، في قلبٍ واحدٍ، وذاب قلبي ذوبان قطرة ماءٍ في بحرٍ..."

ولكأنّ الربّ أحبّ زفّ نبأ استجابته لرغبته المقدّسة، فكتب، أيضًا:

«منذ مساء الخميس حتّى يوم السبت، وأيضًا يوم الثلاثاء، أعاني مأساةً وجيعةً. وأشعر كأنّ سيفًا يخترق قلبي، ويديّ وقدميّ. في هذه الأثناء لا يكفّ إبليس عن الظهور لي، بأفظع الأشكال، ويوسعني ضربًا مريعًا. ولكنْ حبّ يسوع يكافئني عن كلّ ذلك بزياراته المتواترة لي".

وخُيّل إلى الشرّير، أنّ الحؤول دون تواصل الأب پيّو مع مرشدَيْه الروحيَّين، سيُفضي إلى إيهانه، والتمكّن من هزيمته. فابتدع أشدّ الأساليب مكرًا لتحقيق هذا الهدف. وفي هذا الشأن كتب الأب پيّو إلى مرشده، بتاريخ ١٩١٢/٨/٩: "لطالما عزمتُ على الكتابة إليك، ولكنّ صاحب اللحية الزرقاء منعني. فكلّما هممتُ بالكتابة، ينتابني صداعٌ ساحقٌ، بحيث يكاد رأسي ينفجر، وتُمنى ذراعي اليُمنى بألمٍ حادٍّ، يجعل إمساكي بالريشة متعذِّرًا.

ولطالما عمد إبليس إلى تشويه الرسائل، التي كانت ترد إلى الأب پيّو، وطمس محتواها، ولكنّ ملاكه كان يُظهر له ذلك المحتوى. وقد ذهل راعي كنيسة پْيِترِلْشينا، لمّا شاهده يقرأ بطاقةً مكتوبةً باللغة اليونانيّة، التي كان يجهلها، وكان ملاكه يفسّرها له.

ومع ذلك، لم يستسلم الشرّير، وواصل محاولاته اليائسة، ولجأ إلى حيلةٍ جديدةٍ، فحاول إقناعه الإقلاع عن الكتابة إلى مرشده الروحيّ، بحجّة أنّ هذه الكتابة تبدّد وقتَه الثمين، والأجدر به إنفاقه على الصلاة من أجل صحّته المنهارة، وإلّا فمصيره جهنّم... وردّ عليه الأب پيّو، ساخرًا، أنّه راضٍ بمرشده، وليس بحاجةٍ إلى إرشاد أمثال إبليس، فخيرٌ للشرّير البحث عن آخرين، أكثر استعدادًا لتقبّل خدماته.

هذا الردّ لم يَرُقْ لملك الظلمة، فحرّض عصابته على الراهب الصامد، فأوسعوه ضربًا، وشتيمةً، وتهديدًا بتدميره، ما لم يغيّر موقفه منهم. وسارع الربّ إلى غوثه، فكتب: "آه، إلى أيّة قمّةٍ ارتقى يسوع بنفسي... لحظةَ أغمضتُ عينيَّ، ليلًا، هبط ستارٌ، وانبسطت مناظر الفردوس أمامي، وفي سعادتي بهذه الرؤيا، استسلمتُ للنوم، وشفتاي مفترّتان عن بسمةٍ عذبةٍ، وارتسم على جبيني سلامٌ كاملٌ، بانتظار مجيء رفيق صباي كي يوقظني، فننشد معًا تسابيح الصباح لحبيب قلبَيْنا".

في غروب عام ١٩١٢، عبّر الأب بينيديتّو، الذي كان رئيسه الإقليميّ في الدير، مواصلة الاطّلاع على مسيرة الأب پيّو الروحيّة. فأوضح له الأب پيّو أنّ الأب أغوستينو كان منذ البدء، مرشده الروحيّ، وقد أطلعه، هو، باطّرادٍ، على كلّ ما كان يجتازه من تجارب قاسيةٍ، ومن تعزياتٍ سماويّةٍ، وفوّضه بالاطّلاع على كلّ رسائله إلى الأب أغوستينو، كي يكون على بيّنةٍ.

ومنذئذٍ، نعم الأب پيّو بإرشادٍ مزدوجٍ، أو بالأحرى بإرشادٍ جماعيٍّ من كاهنَيْن غيورَيْن. ولكنّ إبليس استمرّ في جهده، لإخفاء رسائلهما. ولكن، في الواقع، كان الشرّير يؤازره، عن غير قصدٍ، على إكمال مهمّته، بأن يكون "ضحيّةً كاملةً". ولم يعد ينعم الأب پيّو بعزاءٍ، إلّا بين ذراعَيْ المصلوب.

وكانت ثقته بالله بلا حدودٍ، وعلى حدّ قوله: "إنّ ثقتي بيسوع من المتانة، بحيث لو شاهدتُ نفسي على شفا جهنّم التي تجتذبني، فلن أفقد الرجاء، ولن تفتر ثقتي به... غالبًا ما كان إيماني على شفا الاهتزاز، لو لم يمدّ يسوع لي يده، ولكان رجائي ومحبّتي تراخيا، ولكان عقلي أظلم، لو لم يضئهما يسوع، شمس الأبديّة، بنوره".

واستمرّ "القوقازيّ" في ألاعيبه وخِدَعه. فكتب الأب پيّو يومَ ١٣/١٢/١٩١٢: "نصحني ملاكي الصغير، برشّ الماء المقدّس على الرسالة القادمة من مرشدي،

فامتثلتُ لنُصحه، وبلغ بالشرّير الغيظ أن كاد يقتلني... وذات ليلةٍ ظهر لي بهيئة أحد كهنتنا، وسلّمني أمرًا صارمًا من قِبَل رئيسنا الإقليميّ، يمنعني من الكتابة إليك، لأنّ هذا الفعل يخالف نذر الفقر، ويُعيق بلوغ الكمال... أعترف بضعفي، وبأنّي بكيتُ بكاءً مرًّا، لأنّني ظننتُ أنّ الأمر حقيقيٌّ. وما كان عليّ، قطّ، أن أرتاب، ولو ارتيابًا خاطفًا، بأنّه فخٌّ من فخاخ صاحب اللحية الزرقاء، ولم أفطن إلى الحقيقة، إلّا عندما كشف لي ملاكي الصغير عن الخديعة". وكان الأب پيّو قد ختم رسالته تلك بهذه الملاحظة: "إنّ صاحب اللحية الزرقاء، يضجّ حَنَقًا عندما تراسلني، يا أبتِ، باللغة الفرنسيّة. ولكي نزيده غيظًا، أرجوك أن تُكثِر من مراسلاتك باللغة الفرنسيّة".

وجاء في إحدى رسائله في تلك الفترة: "... مجرّد التفكير بأنّي قد أفقد يسوع، في أيّة لحظةٍ، يسبّب لي قلقًا لا يوصف، ولا يستطيع إدراكه سوى نفسٍ تحبّ يسوع محبّةً صادقةً... ولا ينفكُّ صوت يسوعِ يُدوّي في قلبي، قائلًا: "يا بنيَّ، إنّ الحبّ يتجلّى في الألم الذي تشعر به في ذهنك، وتقاسيه بقوّةٍ في جسدك".

هكذا كان الربّ يصوغ أداته المختارة، من خلال المرض والأوجاع، والصراعات المتواصلة مع قوى الجحيم، ومن خلال "ليل الإحساس"، الذي أتقن وصفه القدّيس يوحنّا الصليبيّ. من تلك البوتقة، انبثقت نفس پادري پيّو مزدهرةً، فرحًا وقداسةً، ومتألّقةً نورًا، وبهاءً، وحبًّا، وامتلاكًا لله.

واستمرّت الصلبان تهوي على كتفَيْ الأب پيّو، وما انفكّ الربّ يُفهمه أنّها ليست سوى ضربات إزميلٍ متأنّيةٍ، ومتواصلةٍ، كفيلةٍ بصقل الحجر، الذي سيدخل في بناء صرحه الأبديّ.

في مطلع عام ١٩١٣، كتب عن صراعاته المتواترة مع قوى الجحيم:

«لبضع ليالٍ خلتْ، وفي ساعةٍ متقدّمةٍ من الليل، باشر الملعونون القذرون

صراعهم بإطلاق ضوضاء جهنّميّةٍ. بادئ الأمر، لم أَرهم، ولم أرتعب، وشرعتُ أستعدّ للمعركة، مبتسمًا لهم بسمة ازدراءٍ. وحينئذٍ، ظهروا في أشكالٍ مريعةٍ، محاولين، بلا عنفٍ ثنيي عن واجباتي، ولكنّي بعون الله، هزمتهم، وعاملتهم المعاملة التي يستأهلونها. ولمّا تبيّنوا أنّ جهودهم تبدّدت كالدخان، انقضّوا عليّ. وطرحوني أرضًا، وضربوني بعنفٍ، وقذفوا في الهواء الوسائد، والكتب، والمقاعد، وهم يطلقون صيحات يأسٍ، وألفاظًا مغرقةً في السفاهة. ولحسن الطالع، كانت الصوامع الملاصقة لصومعتي، أو الواقعة بقربها على المنحدر، خاليةً آنذاك.

"أنا لم أوجّه أيّة شكوى إلى ملاكي الصغير، ولكنّه، هو، وجّه لي عظةً وجيزةً، وقال: "اشكر يسوع، الذي يعاملك معاملةَ مَن اختاره كي يحذو حذوَه، ويقتفي خطاه، عن كثبٍ، على تلّة الجلجلة. وإنّي أتأثّر فرحًا، وأنا أشهد كيف يعامل الربّ النفسَ التي أوكلها إلى عنايتي. أوَتظنّ أنّني أكون أكثر سرورًا، لو شاهدتُك أقلّ عرضةً للصراع؟ أنا الذي، بدافع الحبّ المقدّس، أرغب في منفعتك، يزداد فرحي بقدر ما أراك على هذه الحال. إنّ يسوع يأذن للشيطان أن يهاجمك، لأنّ حبّك ليسوع يجعلك، حينئذٍ، أعزّ على قلبه. إنّه يبتغي أن تتمثّل به في غموم الصحراء والقفر، وفي بستان الجتسماني، وعلى الصليب. فدافعْ عن ذاتك، وارفض إيحاءات الشرّير، ووسوساته، وازدرِها. ولا تغتمّ، حين تخور قواك، فأنا إلى جانبك، يا حبيب قلبي».

تكالُبُ قوى الجحيم عليه بلا هوادةٍ، كان يدفعه، أحيانًا، إلى التساؤل: "هل حقًّا أنا بين ذراعَيْ يسوع. هل هو لي، وهل أنا بكلّيّتي له؟". وكان ملاكه يهرع إلى جانبه، كلّما اشتدّ ليل نفسه قتامًا.

وفي ١٩١٣/٤/٨، كتب إلى الأب بينيديتّو: "لا يكفّ "القوقازيّون" يضربوني ويوقعوني عن سريري أرضًا، وينتزعون قميصي، ويوسعون ظهري العاري ضربًا. ولكنّي ما عدتُ أخافهم، فيسوع يغمرني بحبّه، وينتشلني، أحيانًا، من الأرض، ويجلسني على سريري.

وفي تلك الفترة شرع الربّ يُظهر له أشكالًا أُخرى من معاناته وأحزانه. فيوم ١٩١٣/٩/٨، بعث بالرسالة التالية إلى الأب أغوستينو:

«كنتُ لا أزال في سريري عندما ظهر لي يسوع، مشوّهًا، في شكلٍ يدعو إلى الرثاء. لقد أراني عددًا غفيرًا من الرهبان والكهنة الراعويّين، ومنهم أصحاب مراكز رفيعةٍ. بعضٌ منهم كانوا يقيمون الذبيحة، وبعضٌ كانوا يرتدون حِلَلهم الكهنوتيّة، وآخرون كانوا ينزعونها...

"نظرة يسوع المثقلة حزنًا آلمتني، وأوجعتني وجعًا شديدًا. استفسرته عن سبب ألمه السحيق، ولكنّه لم يُجبْ. وكان محدِّقًا إلى أولئك الكهنة، حتّى سئم رؤيتهم، وأشاح نظره عنهم، ورنا إليّ. وبألمٍ بالغٍ لمحت دمعتَيْن، تنثالان على وجنتَيْه. ثمّ ابتعد عن تلك الزمرة من الكهنة، وعبّر عن قرفه بهتافه: "يا لهم من جزّارين!". ثمّ التفت نحوي، وقال: "يا بنيّ، لستُ أظنّ أنّ نزاعي دام ثلاث ساعاتٍ فحسب، فأنا سأظلّ أنازع حتّى نهاية العالم، بسبب هذه النفوس التي أغدقتُ عليها أسخى نِعمي. وفيما أنا أنازع، لا يجوز النوم، فنفسي ستظلّ تبحث عن قطرات تعاطفٍ بشريٍّ. ولكنّي، وا أسفاه، أرزح، وحيدًا، تحت وقر اللامبالاة. ويضاعف أوجاع نزاعي عقوقُ كهنتي وسباتُهم. كم تلبيتهم لنداء حبّي رديئةٌ. وما يزيد حزني حدّةً، أولئك الذين يقرنون اللامبالاة بالازدراء والإنكار. ولكم كدتُ أن أصعقهم، لو لم تحلْ دون صعقهم الملائكة والنفوس

التي تعبدني. اكتبْ إلى أبيك الروحيّ عمّا رأيتَه وسمعتَه، هذا الصباح، واطلب منه أن يُري رسالتك لرئيسك الإقليميّ...". وقد واصل يسوع بوحه، ولكنّي لا أستطيع كشف ما باح لي به لأيّة خليقةٍ في هذا العالم.

"هذا الظهور أوجع جسدي وجعًا مُمِضًّا، ولكنّ وجع نفسي كان أعتى، فبقيت طوال ذلك النهار منهكًا، خائر القوى، ولكنتُ قضيتُ نحبي لو لم يكشف يسوع..." (هنا توقّف الأب بيّو عن الكتابة ولم يُسفِر عمّا كشفه يسوع له).

ولمّا استأنف الكتابة، قال:

"يحقّ ليسوع التأوّه من جرّاء عقوقنا. فما أكثر إخوتنا المساكين الذين يضنّون بالاستجابة لحبّ يسوع، عندما يلقون كلّ ذواتهم، بلا تحفّظٍ، بين ذراعَيْ ملّة الماسونيّين. فلنسأل الربّ أن ينير أذهانهم، ويمسّ قلوبهم..."

معلومٌ أنّ شهر أيّار، كان يوقظ في نفس الأب بيّو حبّه الملتهب لأمّ يسوع، التي يدعوها، تحبّبًا، "ألماما". وبهذه المناسبة، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ السيّدة العذراء، هي التي أرادت بقاءه في بِيْتِرِلْشينا، حتّى عام ١٩١٦، لأسبابٍ لم يُفصح عنها الأب بيّو أبدًا. وكان مرشداه يحثّانه، أحيانًا، على التماسه منها نعمة عودته إلى الدير، مع أنّها هي التي أوعزت إليه، ألّا يلتمس هذه النعمة حتى يشاء ابنها، وكانت تعاقبه كلّما طلب منها هذه النعمة، امتثالًا لأوامر مرشديه، فتغيب عنه بضعة أيّامٍ، وتوقعه في قلقٍ مُمِضٍّ.

اقتران التعزيات بالامتحانات القاسية كان يرهقه، وقد عبّر عنه بقوله: "إنّ إدراكي الجليّ والحادّ، لما يغدق الله من دلالات عطفه، على إنسانٍ لا يستحقّ إلّا جهنّم، يضاعف غمّي، فأكاد أصرخ وجعًا. إنّي أعاني وحدةً، لا تقوى خليقةٌ أرضيّةٌ، ولا سكّان السماء على ردمها، ما لم يكن حبيبي مواكبًا لي. لستُ أجد، في هذا العالم،

سندًا يخفّف ألمي، بل إنّ كلّ شيءٍ يثير سأمي ويوجعني. ولكنّي أودّ أن أعاني هذه الآلام طوال حياتي، إذا كانت ترضي الله، مع اعترافي بأنّها لي نزاعٌ نفسيٌّ.

ومع ذلك، يعترف الأب پيّو بأنّ الله يُفيض عليه أفراحًا كبرى، عندما يكشف له أسرارًا: "تنطبع في أغوار نفسي، ولا يقوى شيءٌ على محوها. غير أنّي عاجزٌ عن الإفصاح عنها، وحتّى إذا توفّقت إلى التعبير عنها، ولو قليلًا، فالتعبير يُفقدها بهاءها، ويسبّب لي الندم والخيبة".

في المقام الأوّل، رجل صلاةٍ

قدّاس پادري پيّو

"إنّ قدّاسًا واحدًا يقيمه الأب پيّو، يؤتي من الخير أكثر من حملة وعظٍ كاملةٍ".
(البابا بولس السادس)

لقد حقّق الأب پيّو كهنوته على نحو ما تمنّاه له رئيسه، يوم سيامته الكهنوتيّة. فهو لم يتوقّع له أن يكون واعظًا مفوّهًا، بسبب هزال بنيته الجسديّة، بل تمنّى له أن يكون كاهنًا قدّيسًا، ومعرِّفًا عظيمًا.

في الواقع، كان وعظ الأب پيّو ينحصر في مثال حياته، وإرشاداته، وكان لهذا الوعظ، وقعٌ أبلغ من كلّ خطابٍ.

وأثبت رفعة قداسته من خلال المهمّتين المناطتَيْن بالكاهن: القدّاس وكرسيّ الاعتراف. فكانت إقامته للقدّاس فريدةً، بأُسلوبها الحيّ، ومحطّ دهشة جميع الذين تسنّى لهم المشاركة في حضور قدّاسه.

ويسرّنا أن نورد، في ما يلي، شهادات أشخاصٍ يستحقّون الثقة، شاركوا في حضور قدّاسه، ووصفوه وصفًا حيًّا. فالكاتبة الپولونيّة "ماريّا ڤينوڤسكا"، كانت قد قامت برحلةٍ شاقّةٍ، إلى سان جُوڤانّي رُتونّدو، وتيسّرت لها الإقامة في بيت ضيافةٍ، شادته فتاةٌ أميركيّةٌ ثريّةٌ، على مقربةٍ من الدير الذي كان يقيم فيه پادري پيّو، تسهيلًا للحجّاج الغرباء، حين لم يكن في القرية، لا فنادق ولا أنزال. ونصحها أهل الخبرة بالتبكير في الذهاب إلى الكنيسة، كي تتمكّن من الحصول على مكانٍ قريبٍ، من الهيكل الذي يقيم عليه الكاهن قدّاسه. وكتبت:

«استيقظتُ على رنين مئات المنبّهات التي أَطلقتْ، في الساعة الواحدة صباحًا، دعوةً إلى الاستيقاظ. وهرعتُ إلى الكنيسة، حيث كان جمعٌ غفيرٌ قد احتشد أمام الكنيسة. وعند الساعة الثالثة والنصف أعلن الأكثر قربًا من الكنيسة سماعهم صوت مفاتيح، تؤذن بوصول الأب پيّو، وتناقل الحاضرون النبأ. وما إن سُمِع صرير أبواب الكنيسة وهي تُفتَح، حتّى تدفّق الحشد تدفّق مياه سدٍّ، فُتِح أحد مساربه، وسط صياحٍ مُصمٍّ، اشتُهر به الإيطاليّون، فيما كان خادم الكنيسة يجهد، بكلّ الأساليب، تنظيم الاندفاع إلى داخل الكنيسة.

"ولمّا دخلتُ، موجَعَة الأضلاع من شدّة التدافع، تغيّر المشهد. فالوجوه مشرقةٌ، والعيون شاخصةٌ، والخشوع سائدٌ، وقد اتّخذ كلّ من تسنّى له الدخول موقعه، الذي لم يعد يستطيع الحياد عنه، فالجمعُ لزيزٌ، والحركة متعذّرةٌ.

"ساد الصمت الخاشع طيلة القدّاس، الذي دام ساعةً وخمسًا وأربعين دقيقةً، ولكأنّ الإيطاليّين، لم يعودوا إيطاليّين صاخبين، ولكأنّ القدسيّ قد استحوذ عليهم، وأخضعهم لجلاله. وكان أبناء الأب پيّو الروحيّون يحيطون به، وهو داخلٌ، وقايةً له من الفضوليّين الراغبين في لمس ثوبه، وتقبيل يديه.

"وأخيرًا يظهر پادري پيّو، كاهنًا مثل سائر الكهنة، في حلّةٍ عتيقةٍ تُخفي أكمامها الطويلة، يدَيْه المثقوبتَين، اللتَيْن نزع عنهما القفّازات، تكريمًا لجسد الربّ الذي سيلمسه بيديه العاريتَيْن.

"ويستهلّ القدّاس بحركاتٍ ثقيلةٍ، وبصوت أشدّ ميلًا إلى الخفوت. فيستحوذ على الحضور شعورٌ، بأنّ الكاهن يحيا في عالمٍ آخر، ويُغرِقهم في لجّة السرّ الإلهيّ، ولكأنّهم عميانٌ يحيقون بمُبصرٍ. أَوَليس دور الصوفيّين فتح عيوننا الداخليّة، على نورٍ مختلفٍ عن النور، الذي يضيء عيوننا الأرضيّة؟

"من يشارك في حضور قدّاس الأب پيّو، ليس مجرّد متفرّجٍ دهشٍ، بل إنّه يغوص في لجّة واقعٍ، يفوق الواقع المادّيّ، في لجّة الحبّ والنور، ولا سيّما أنّ

الأب پيّو هو، حتّى زمانه، الكاهن الأوّل والوحيد الذي دُمِغ بسمات الصلب. وكانت حياته كلّها تدور حول هذه السوَيْعات، التي يعير فيها ليسوع فمه، وعينيْه ويدَيْه، مجدّدًا ضحيّة الصليب في القدّاس، وخاصّة أوان تقديس القربان، ويحيا الكاهن، حقًّا، تقدمة الجلجلة بكلّ أوتار كيانه، وغالبًا، ما يأخذه انخطافٌ، ويذهل عن العالم المحيق به.

"إنّ قدّاس الأب پيّو يحطّم كل مألوفٍ. فهو يحيا القدّاس بنبضٍ جديدٍ خفّاقٍ. يقول ويفعل ما يقوله كلّ كاهنٍ، ولكنّ قدرةً خلّاقةً، تنبعث من أقواله وأفعاله، وتجعل الحاضرين يرون السرّ بعيونٍ جديدةٍ. وتؤكّد سمات صلبه صدق قوله: "هذا هو جسدي، وهذا هو دمي".

"العبارات الطقسيّة التي فقدت تأثيرها، تستعيد معه ملء معناها وثقلها، ولا سيّما عندما تضطرّه قدماه المثقوبتان النازفتان إلى الاتّكاء على الهيكل. محيّاه الذي كان مشرقًا، عندما دخل إلى الهيكل يتجلّى، وكأنّ موجات تأثُّرٍ كثيفٍ، قد حرَثَته، ولكأنّ الصراع الذي خاصه مع حضورٍ غير مرئيٍّ، قد ملأه، على التوالي، فرحًا وحزنًا، وهواجس وألمًا. وهو يعبّر عن هذا الصراع، بحركات رأسه الرافضة تارةً، والمتهلّلة تارةً أُخرى، وبصمته المُبتهل.

"لقد سها عن كرّ الدقائق والساعات، وفقد الشعور بمرور الوقت، الذي بات له عنده معنًى آخر، ومساحةٌ جديدةٌ.

"بغتةً، تنفر من عينيه دموعٌ، وتنتفض كتفاه بفعل النحيب، ويرزح تحت وقرٍ ساحقٍ. لم يعدْ هو الذي يحيا، بل يسوع يحيا فيه.

"فبعد أن استحوذت على نفسه عظمة بذل يسوع ذاته، تكفيرًا عن خطايا العالم، تطوف بذهنه بشاعة الخطايا التي سمعها في كرسيّ الاعتراف، وبسببها ينتحب. ألم يكرّس ذاته شريكًا للربّ في الفداء، وحوّل كيانه قربانًا؟! وعندما أصبح كاهنًا، ألم يكرّس ذاته لجعل الربّ يتجلّى من خلاله؟

"ربّما كان ذوبانه في الله هو عامل تأثيره المذهل على كلّ من يدنو منه، ويمكّنه من تفجير الماء الزلال من عقم الصحارى، وإعادة المعنى والبهاء، لكلّ مَن وما فقدهما.

"لكأنّه عندما يرفع القربان، كاشفًا عن ثقوب يديه، ويُطيل رفع يديه، أكثر من الوقت اللازم لتلاوة الصلوات الطقسيّة، وتكرّ الدقائق مثل هطول قطرات دمٍ، ويظلّ جامدًا في هذه الوقفة، مشركًا العالم كلّه في هذه التقدمة، يُعبّر، بوجهه الذي حفرته الدموع، عن تحدٍّ.

"وكأنّه يقول: "هذا ما أقدّمه لك، أيّها الآب، باسم ابنك الذي أمثّله. أقدّم لك بؤسَ البشر، وآلامَهم وخطاياهم، ومخاوفَهم. كلّ ذلك، أرميه بين ذراعَيْك، وفي قلبك. فيا أيّها الخالق، أعدها أجمل ممّا خلقتها".

وتقول "ماريّا ڤينوڤسكا":

«لقد حضرتُ مرارًا قداديس الأب پيّو، ولم يكن أحدٌ منها شبيهًا بالآخر. فهو مع التزامه الأمين بطقوس القدّاس، كان يحياه كلّ مرّةٍ، وكأنّه قدّاسه الأوّل. وفي كلّ مرّةٍ، تحيق به مواكباتٌ غير مرئيّةٍ. وقد رأيته، ذات يوم جمعةٍ، لاهثًا، مُنْهكًا، مثل مصارعٍ يائسٍ، يحاول، عبثًا، بحركات عنيفةٍ من رأسه، تخطّي عائقٍ، يحول دون تلفّظه بعبارات التكريس. ويخرج من الصراع منتصرًا، ولكن منهكًا، محطّمًا.

"وقد شهدتُ، أحيانًا، قطرات عرقٍ كبيرةً، تنثال من جبينه، وتغمر وجهه المتشنّج، الذي غسلته الدموع. وفي بعض الأيّام أحسستُ أنّه يعاني استشهادًا، حقًّا، وهو يتلو كلمات التكريس، ولكنّه لا يبوح بسرّ هذا الاستشهاد، إلّا لمرشده الروحيّ.

"ورأيته أيضًا ممسكًا بأنامله ربَّه الذي صار خبزًا، وسواقي دمٍ رقيقةٌ تسيل عليها. وقد تنفرج أسارير وجهه وتشرق، وتفترّ شفتاه عن بسمةٍ، وتضيء عيناه، وتداعبان القربان بنظرةٍ فائقة الرقّة.

"إنّه الشاهد الأمثل عن وجود المسيح الحقّ في القربان».

وإليكم شهادة سفير فرنسا لدى الكرسيّ الرسوليّ، في خمسينيّات القرن العشرين، "ڤلاديمير دورميسّون" (Wladimir d'Ormisson)، الذي كتب:

«عند الساعة السادسة، دخل الأب پيّو إلى الكاپيلّا، من بابٍ جانبيٍّ، متلفّعًا بغطاء الرأس الكبّوشيّ، وبمساعدة اثنين من خدّام الكنيسة، اشتقّ لنفسه طريقًا، بمشقّةٍ. وبما أنّ الجلبة كانت تتصاعد، التفت الأب وفرض الصمت. ثم ارتقى درجات الهيكل، وأزاح الغطاء عن رأسه، وبدأ القدّاس.

"حقيقةً، لم أشهد طوال حياتي، قدّاسًا يخضّ النفس مثل ذلك القدّاس. لم يتلفّظ الأب إلّا بالنصوص الليتورجيّة المعهودة، ولكنّه كان يتلفّظ بها بوضوحٍ وقناعةٍ مدهشَيْن. وكانت كثافةٌ جمّةٌ تنبعث من أدعيته. وحركاته، مع رزانتها، كانت تتّسم بعظمةٍ، تجعل من القدّاس عملًا فائق الطبيعة، على الإطلاق، أي حقيقة القدّاس التي ذهلنا عنها.

"ولمّا حان موعد رفع القربان، ثمّ رفع الكأس، تجمّد الأب متأمّلًا. كم بقي ممسكًا القربانة، رافعًا يديه فوقَ رؤوسنا، وكم بقي رافعًا الكأس؟ لستُ أدري. ربّما عشر دقائق، أو اثنتي عشرة دقيقةً، أو أكثر، لا أدري. ولم يكن يُسمع، آنذاك، وسط الحشد الغفير سوى تمتمة صلواته. كان قد أضحى حقًّا، وسيطًا بين البشر والله، ورأس الخليقة المحدودة أمام اللامحدود.

"في تلك اللحظات، لستُ أدري كم من القريبين منّي كانوا متسلّقين على كتفيّ،

فكنتُ فاقد الشعور. أمّا زوجتي الواقفة إلى يساري، فقد رأت بوضوحٍ الدم المنثال من راحتَي يديه، أثناء تكريس الأب للأسرار.

"إثر مباركته الحضـور، غادر الأب الكاپيلّا، ونظرتُ إلى سـاعتي، فتبيّنتُ أنّ القدّاس دام ساعةً وخمسين دقيقةً».

وشهد، أيضًا، الفيلسوف والكاتب الفرنسيّ "جان غيتّون"، احتفال پادري پيّو بالقدّاس، فكتب:

«كان يتقدّم نحو الهيكل بخطواتٍ ثقيلةٍ، عند السـاعة الرابعة صـباحًا، أمام حشـدٍ من المؤمنين، التصـق فيه فقراءٌ وأغنياءٌ، انصـهروا في جسـمٍ واحدٍ، لا يتحرّك، واتّحدوا في صـلاةٍ صـامتةٍ واحدةٍ. كان يتقدّم في الصـلوات بمشـقّةٍ متصـاعدةٍ، وعند عتبة عبارات التقديس، توقّف، وكأنّه أمام مرتفَعٍ لا يُطال، وأمام موعد حبٍّ أليمٍ ومتألّقٍ، في آنٍ واحدٍ، وأمام سرٍّ مستغلقٍ، قد يفضـي إلى الموت.

"كلّ ذلك، كانت تُعلنُه نظراتُه المتطلّعة إلى العلاء، إثر فعل التكريس. وجال، آنذاك، في خاطري أنّه ربّما كان هو الكاهن الوحيد، المدموغ بسمات الصلب في جسده، وأنّ جميع الكهنة يحملون هذه الدمغة في قلوبهم».

جميع الذين حضروا قدّاس الأب پيّو، اعتراهم شعورٌ بأنّه كان يحيا كلّ مرحلةٍ من آلام الجلجلة. وفي هذا السياق، كتب الأب پيّو إلى مرشده:

«أمام القربان تشـتدّ خفقات قلبي عنفًا. وأتخيّل أنّ قلبي يهمّ بالطفر من صدري، وينتابني الشعور بأنّ كياني كلّه يلتهب التهابًا، لا قدرة لي على وصفه، وأشعر أنّ وجهي، على نحوٍ خاصٍّ يضطرم...».

الجماهير التي كانت تحضر قدّاسه

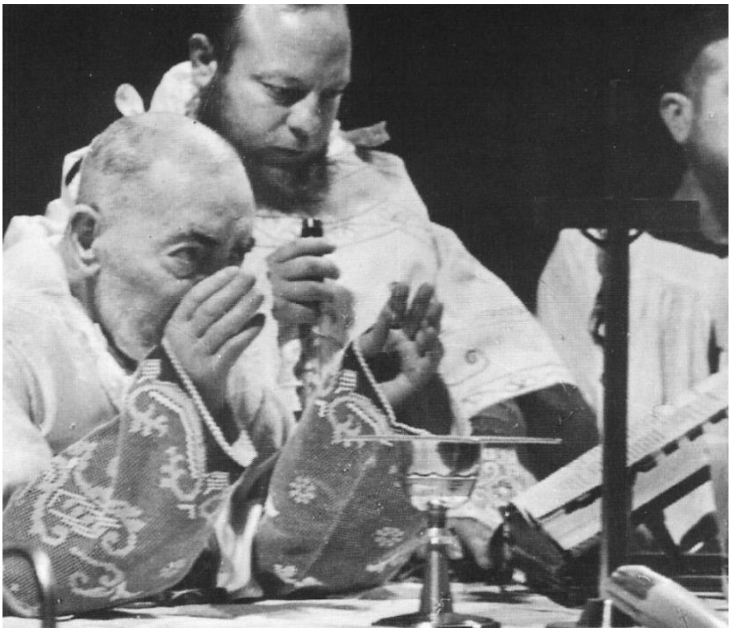

"صلّوا، يا إخوتي، كي يتقبّل العليّ، تضحيتي التي هي تضحيتكم أيضًا"

وقد باح الأب پيّو أنّ مريم العذراء واكبته، ذات يومٍ، إلى الهيكل.

وكان تناوله الإفخارستيّا، يُسيل إلى نفسه عذوبةً قصوى، عبّر عنها في إحدى رسائله، فكتب:

«الله وحدَه يعلم العذوبة التي تذوّقتُها أمس، بمناسـبة عيد القدّيس يوسـف، وما زلتُ أتذوّقها. نيرانٌ تلهب رأسـي وقلبي، ولكنّها نيرانٌ منعشـةٌ. كان فمي يتذوّق كلّ حلاوة جسـد الربّ، فائق الطهر. آه، لو اسـتطعتُ إيداع كلّ التعزيات التي أشعر بها الآن، في قلبي، إيداعًا أبديًّا، لكنتُ الآن، في الفردوس!

"كم يفرحني يسوع، وكم روحه عذبٌ! ولكنّ اضـطرابي جمٌّ، ولا أسـتطيع سـوى البكاء، وترديد: "يا يسوع، يا غذاء نفسي!».

وبالإجمال، كان الأب پيّو يحيا في القدّاس كلّ مراحل الآلام: الجلد، وتقديم الذات، والصلب، والموت، ثمّ الحياة في الله، عند المناولة، وقد أقرّ هو نفسه: "كلّ ما احتمله يسوع في آلامه، أتحمّله أنا، بقدر ما تستطيع خليقةٌ بشريّةٌ، أن تتحمّل، رغم عدم استئهالي، وبفضل عطفه فقط".

پادري پيّو المعرّف

سُئل الأب پيّو، يومًا، عن رسالته، فأجاب: "أن أكون معرِّفًا". وفي الواقع كان تعريفه، إلى جانب قدّاسه، هو الجناح الآخر الذي حلّق به في أجواء القداسة، وحقّق به رسالة كهنوته.

كرسيّ تعريفه كان الواحة التي فاءت إلى سكينتها آلاف النفوس الجريحة، المرهَقَة بالخطيئة، والعطشى إلى التطهُّر، ومنطلقًا إلى حياةٍ جديدةٍ، رشيقةٍ، نظيفةٍ. تسبح في نور الله.

هدفه الأوّل والأقصى، كان إعادة الأبناء العاقّين، الضالّين إلى البيت الأبويّ.

بعد فراغه، إذن، من صلاة الشكر إثر المناولة، كان أبناؤه الروحيّون، ينبرون لتنظيم سيل المعترفين. وكان يسمع اعترافات الرجال في السكرستيّا، حيث التدافع أقلّ ضغطًا، فيما كانت القسوة ضروريّةً لضبط صفوف النساء، اللواتي كنّ يعترفنَ في كرسيّه القائم في صحن الكنيسة. ولولا صرامة التنظيم، لكان أُصيب الأب بالاختناق، ولكانت النساء نتّفنَ بعضهنّ بعضًا. ومنعًا للفوضى، أُقيم حاجزٌ أمام كرسيّ تعريفِه، وكأنّه مكسر موجٍ. وخُصِّص نصف الكنيسة لطوابير المنتظرات أوانَ دورِهنّ، بعد حصولهنّ على بطاقةٍ، تحدّد زمن اعترافهنَّ، قبل ثلاثة أيّامٍ أو أكثر.

وكان قد كُلِّف أخٌ صارمٌ، بمنح هذه البطاقات، في غرفةٍ ملتصقةٍ بالكنيسة، ملتزمًا بدقّة النظام، بمعزلٍ عن أيّ تفضيلٍ، وأيّ استسلامٍ لاستعطافٍ أو إغراءٍ، أو تدخّلٍ، من أجل تقديم المواعيد. وعلى ظهر البطاقات، كانت قد طبعت الملاحظات التالية:

- إذا كنت راغبًا في التحدّث إلى الأب پيّو، فالأفضل لك العزوف عن ذلك، لأنّ الأب يسمع الاعترافات فقط، ولا يطيق الثرثرة.

- يعرّف الأب پيّو الرجال، منذ الصباح الباكر حتّى الساعة التاسعة، وفي كلّ ساعات بعد الظهر. ويعرّف النساء المزوّدات ببطاقةٍ، منذ الساعة التاسعة حتّى الحادية عشرة والنصف.

- من أجل تبريك مسابح وأغراضٍ تقويّةٍ، مراجعة الأخ البوّاب.

- من شاء تبليغ الأب أمرًا هامًّا، فليكلّف كاهنًا آخر بهذا التبليغ.

- من أجل الحصول على البطاقات، مراجعة المسؤول عن مكتب الدور.

قد يرى البعض في هذه التدابير تفضيلًا للرجال، ولكن لهذا التفضيل ما يبرّره. فالرجال، عمومًا، أقلّ اندفاعًا إلى كرسيّ الاعتراف، ومعظمهم حالاتٌ صعبةٌ، بل حالاتٌ ميؤوسٌ منها: فكثيرون منهم لم يعترفوا منذ سنين طويلةٍ، وهم لا يعترفون بوساوس، كما تفعل كثيراتٌ من النساء، وإن كان بينهنّ مثيلاتٌ للمجدليّة، فعددهنّ ضئيلٌ، مقارنةً بالرجال.

وكم من رجالٍ كانوا، مبدئيًّا، يرفضون الاعتراف بخطاياهم، ولكنّهم بعد حضورهم قدّاسه، وجدوا أنفسهم منجرّين، عنوةً، إلى كرسيّ تعريفه. ونعموا بولادةٍ جديدةٍ! وكم منهم اعترفوا بعجزهم عن مقاومة جاذب الأب پيّو!

أَلِف الأب پيّو، داخل كرسيّ الاعتراف الإمساك بمنديلٍ كبيرٍ، يمسح به عرقه، ويُشهره في وجه النساء الفضوليّات، اللواتي يحاولن تقبيل يديه.

ومن خصائص الأب پيّو موهبة قراءة كوامن الضمائر بوضوحٍ. فكانت تأتيه، أحيانًا، نساءٌ وقد وضعنَ لائحةً مطوّلةً بهناتٍ يرغبنَ في سردها، فكان يسارع إلى صرفهنّ، لكي لا يهدر عبثًا، الوقت الذي يطمح، خلاله، إلى غسل الأوحال المتصلّبة، وتفتيت متاريس الخطيئة المنيعة التي يتلطّى خلفها جزّار النفوس، وإسقاط الأقنعة التي التصقت بالوجوه، حتّى أمست جزءًا منها.

ولكم تقلّصت عضلات وجهه وجعًا، وتقوّست كتفاه، أمام مستنقعاتٍ آسنةٍ، وأقذارٍ مقزِّزةٍ! وكم من دموعِ فرحٍ، سكبها، عندما كان يشهد زوال تلك الأكوام المقيتة، تحت أمواج الندم والتوبة!

في كرسيّ تعريفه، كان صورةً لخوري آرس، وفيه استعاد الاعتراف ملء معناه. فكم من وجوهٍ تألّقت بنورٍ جديدٍ، وكم من أجنحةٍ متكسّرة، استعادت قدرتها على التحليق. وكم من نفوسٍ كانت تئنّ تحت وقر الشعور المرهِق بالانحطاط، وبالزحف في الرغام، استرجعت نضارتها، وحرّيّتها ورشاقتها. وكم من نفوسٍ كانت أسيرةً مقيّدةً، بعنفٍ، تحرّرت من عقالها!

لقد أقرّ أحد الخارجين من كرسيّ اعتراف الأب پيّو: "غرقتُ في دم المسيح، وخرجتُ متجدّدًا إلى حياةٍ قشيبةٍ".

كان معرّفًا شديد الاقتضاء، لا يمنح البركة والغفران، إلّا لمن ثبت له عزمهم على التحوّل الكلّيّ، والتخلّي عن الميول الرديئة، ومقاومتها، وانتهاج درب الصلاح والخلاص. وقد شوهد شابٌّ يخرج من كرسيّ تعريفه منتحبًا، وظلّ على هذه الحال يومين. وفي اليوم الثالث عاد، وقد سكنت نفسه. فقد كان الأب طبيبًا بارعًا، لا يتحرّج من استخدام مبضع الجرّاح، لشفاء الحالات الصعبة الخطيرة.

كان يُلزِم التائب بتغيير نهج حياته، ويعلّمه المثابرة على الصلاة. وكانت صلته بالنفوس شخصيّةً، متكيّفةً مع كلّ وضعٍ.

تروي "ماريّا ڤينوڤسكا"، مشهد فتاةٍ طردها الأب پيّو من كرسيّ تعريفه، فخرجت منتحبةً نحيبًا يهصر قلوب المشاهدين. وبعد أن سكبت كلّ دموعها، حاولت العودة إلى كرسيّ تعريفِه، فصدّها، وتكرّرت محاولاتها، ولقيت الصدود في كلّ مرّةٍ. واستفسرت الكاتبة راهبًا كان شاهدًا على ما جرى، ففسّر لها أنّ الأب پيّو يعامل

على هذا النحو القادمات بدافع الفضول، بلا ندمٍ، ولا تصميمٍ على النأي عن دروب الرذيلة. فسألته ألّا يحكم عليها بغرقٍ لا نجاة منه في أوحال الخطيئة؟ فأجابها:

– "لا تقلقي، ستعود بعد بضعة أيّامٍ، وقد تغيّرت نواياها. ولولا ثقة الأب بيّو بذلك، لما طردها".

وعن موهبته قراءة خفايا النفوس، روى أحد رهبان الدير حادثة تاجرٍ من مدينة "بيزا"، جاء يلتمس من الأب بيّو شفاء ابنته العليلة. فحدّق الأب إليه، وقال: "إنّ مرضَك أخطر من مرض ابنتك. وأنا أراك ميتًا".

فاعترض التاجر: "بل أنا في أفضل حالٍ".

– "ويلٌ لك، كيف لك أن تكون صحيحًا، وأنا أرى ضميرك مثقلًا بلا أقلّ من اثنتين وثلاثين خطيئةً؟!". ذُهِل الرجل وبعد اعترافه، أقرّ:

– "لقد كان الأب يعرف كلّ شيءٍ، وعدّد لي خطاياي كلّها بالتفصيل".

غير أنّه مع معرفته بخفايا الضمائر، كان يطلب من المعترفين الإقرار بكلّ خطاياهم، وإذا هم أغفلوا بعضًا منها، فكان يذكّرهم بها، وبظروفها، وبتفاصيلها.

كان حرصه على تحرير النفوس الراغبة في التحرّر، موازيًا للآلام التي كان يتحمّلها عن النفوس الراغبة في التحرُّر. وقد سُمِع في مساء يومٍ قضاه في كرسيّ الاعتراف، يهتف:

– "النفوس! آه، للنفوس! هل مَن يعرف كم هي تكلّف!؟"

إثر اعترافاتٍ شاقّةٍ، كان يشاهَد باكيًا، منتحبًا، ولم تكن دموعه ناجمةً عن حساسيةٍ مفرطةٍ، بل عن نظرةٍ فائقة الطبيعة إلى البشريّة الخاطئة.

قال أحد القدّيسين: "لو رأينا فداحة الخطيئة لمتنا تقزّزًا وقرفًا". ولكنّ، معظمنا،

نشاهد الخطيئة بلامبالاةٍ، لأنّنا تعاهدنا مع الوحل. ولكنّ قدّيسين أمثال پادري پيّو يأبون مهادنة الشرّ، الذي يستقطر دموعهم حزنًا.

"وكان الأب پيّو يبكي الخاطئ الذي يؤثر الخطيئة على خلاص نفسه، ويبكي دم الربّ المسفوك، بلا طائلٍ، من أجل الخطأة، ويبكي الخليقة المدنّسة، وفشل النعمة الممنوحة. وكان يبكي لأنّ يسوع قد بكى".

لقد جهد الأب پيّو، دائمًا، في إفهام الخاطئ أنّ خطيئته هي إهانةٌ لخالقه ومخلّصه. وكانت بعض الاعترافات له صراعًا حقيقيًّا، شاقًّا، يُكرهه على البحث بعيدًا في ماضي الخاطئ، كي يُعيده إلى بيت الله أبيه.

وكان حدْسه يُرشده، إلى خاطئٍ متردّدٍ في الاعتراف بخطاياه، فيدعوه باسمه، ويشير إليه بالقدوم إلى كرسيّ الاعتراف. وإذا اعترض أحدهم بقوله:

- "يا أبتِ، لقد أخطأتُ كثيرًا، وفقدتُ الرجاء".

كان يجيب:

- "إنّ الله يطارد بلا هوادةٍ النفوس الأشدّ عنادًا، وأنت قد كلّفته كثيرًا من الألم، ولذلك لن يتخلّى عنك.

وإذا اعترض الخاطئ ثانيةً:

- ما عدتُ أومن بالله"، فيجيبه:

- "ولكنّ الله ما برح يؤمن بك".

موهبة قراءة كوامن النفوس، وقدّاس الأب پيّو الفريد، الأخّاذ، والتناول من يده، كلّ تلك العوامل مجتمعةً، اجتذبت آلاف الحجّاج إلى الكاهن الأوّل والوحيد المدموغ بسمات الصلب. ولكم من جاؤوه بدافع الفضول، بغيةَ رؤية سمات صلبه، ومشاهدته عن كثبٍ، وقعوا في أسر كلمةٍ انطلقت منه كالسهم، أو نظرةٍ منه اخترقت أعماق نفوسهم، وإذا بهم جاثون أمام كرسيّ الاعتراف!

وقد لخّص الأب پيّو عمله في كرسيّ الاعتراف، بقوله: "أنزع القديم وأستبدله بالجديد". وإذا خطر لأحدٍ أن يشكره على النعمة التي نالها، كان يجيب: "الله هو الذي مَنَحك هذه النعمة، لا أنا".

جديرٌ بالتذكير، أنّه في بدء رسالته، عندما كان لا يزال قادرًا، كان، في مناسبة الأعياد الكبرى، يقضي نحو ستّ عشرة ساعةً، في كرسيّ تعريفه الذي كان يدخله بعد قدّاسه الصباحيّ، ولا يخرج منه إلّا ليلًا. ولمّا خارت قواه، تضاءل عدد ساعات مكوثه في كرسيّ تعريفه، إلى نحو ثماني ساعاتٍ يوميًّا.

وكان طالبو الاعتراف يستعدّون له، وهم في طابور الانتظار، ويتلون صلوات الندامة والتوبة، ولا يبقى لهم سوى البوح بخطاياهم. وكان الأب يطرح عليهم سؤالين أو ثلاثةً ويمنحهم الغفران. ولكنّ حالاتٍ خطيرةً كانت تستغرق وقتًا أطول.

وكان على القادمين من الخارج انتظار خمسة أو ستّة أيّامٍ، كي يتسنّى لهم الركوع في كرسيّ تعريفِه. وفي هذه الأثناء يتسنّى لطالب الاعتراف استقصاء ضميره.

ومن يكون قد سها عن خطاياه، يذكّره بها الأب پيّو، فهو يجول في ضمير المعترف، وفي ماضي حياته، خيرًا منه.

سُئل الأب پيّو، مرّةً، التعريف عن ذاته، فقال:

«أنا بينكم أخٌ، وعلى الهيكل أنا ضحيّةٌ، وفي كرسيّ الاعتراف أنا القاضي».

أخٌ وضحيّةٌ، وديّانٌ. بالإجمال، محبّةٌ، وألمٌ، وخلاصٌ.

تلك كانت رسالة يسوع على الأرض، وتلك كانت الرسالة التي أخذها على عاتقه الأب پيّو، الذي أكرمه الربّ بنعمة التشبّه به.

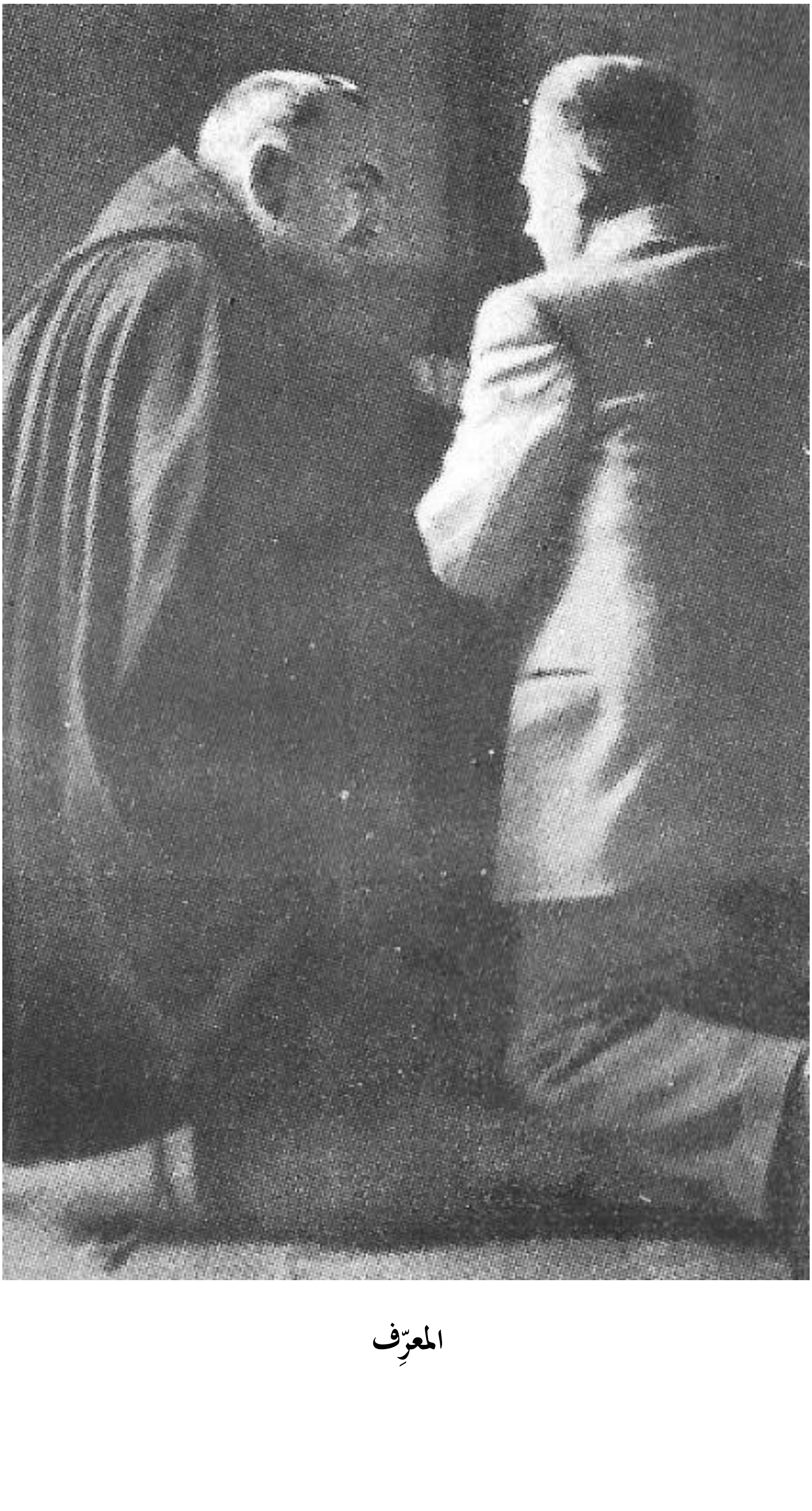

المعرِّف

كان الأب پيّو يمضي أكثر من خمس عشرة ساعةً في كرسيّ الاعتراف

الجزء الثالث

سمات الصلب وارتداداتها

الكاهن المصلوب

"من نظر إليّ، أرسم صورتي فيه"

(رسالة يسوع في الصوفانيّة يوم ٢٦/١١/١٩٨٦)

بوادر السمات

كان الأب پيّو، منذ سيامته قد قدّم ذاته ضحيّةً كاملةً، في حقل خدمة الربّ. وقد تركّزت معظم تأمّلاته على آلام الربّ، واستدرّت من مآقيه جداول دموعٍ حارقةٍ. واستجاب الربّ لمطلبه، فدمغه بسمات صلبه، وأعدَّه لتحمّل صلبٍ دامٍ، مدى حياته. وكانت آلام الصلب لديه، تشتدّ في المناسبات المذكّرة بآلام الربّ، مثل أسبوع الآلام، ويوم الجمعة العظيمة، ويوم رفع الصليب، في ١٤ أيلول من كلّ سنةٍ، وأيضًا، يوم ١٧ أيلول، حيث يحتفل الفرنسيسكانيّون بذكرى ظهور سمات الصلب على القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ. وكان الأب پيّو يعاني آلام الصلب كلّ يوم ثلاثاء، ومنذ يوم الخميس حتّى يوم السبت من كلّ أسبوعٍ.

الإشارة الأولى التي كشف بها الأب النقاب عن تلك الكرامة الإلهيّة، جاءت عبر رسالةٍ بعث بها، من منفاه في پيِترِلْشينا، إلى مرشده الأب "بينيديتّو" (Benedetto)، يوم ١٩١١/٩/٨، جاء فيها:

"مساء أمس، حدث لي ما لا أقوى على فهمه، ولا على تفسيره. فوسْطَ راحتَيْ يديّ، ظهرت بقعاتٌ حمراء، بحجم قطعة نقد السـنتيم، وواكبها ألمٌ حادٌّ في تلك البؤرة. وكان الوجع أشدّ حدّةً وإيلامًا في يدي اليُسرى. وكانت البقعة فيها أكثر قساوةً. وما زلتُ أشعر بهذا الألم حتّى الآن، وأشعر بألمٍ، أيضًا، في أسفل قدميّ، وفي صدري.

"هذه الظاهرة تواكبني منذ سنةٍ. وما سبب سكوتي عنها سوى خجلي الملعون. وليتَكَ تعلم كم من الجهد بذلتُ، لكي أكتب لك، الآن.

"ولديّ أُمورٌ أخرى كثيرةٌ، أودّ إطلاعَكَ عليها، ولكنّي لا أجد وســـيلةً للتعبير عنها. وأكتفي بالقول إنّي عندما أكون مع يسـوع في سـرّ الإفخارسـتيّا، يخفق قلبي خفقًا عنيفًا، حتّى يُخيَّل إليّ أنّه يودّ الطفر من صـدري. وعندما أقف أمام الهيكل يلتهب كلّ كياني التهابًا لا أقوى على وصفه، وأشعر أنّ وجهي يحترق.

"أجهل، يا أبتِ ما تعني هذه الظواهر".

واكتفى مرشده بالردّ: "أُشكر، يا بنيّ، العطفَ الإلهيّ الذي وَهَبك هذه النعمة. وصيّتي الوحيدة لك، هي ألّا تبوح بها لآخرين، لأنّه يحسن كتمان سرّ الملك".

وتجدر الإشارة، إلى أنّ تريّثه في تبليغ مرشده بهذه الظاهرة، لم يكن الخجل فحسب، بل كان ارتباكه الذهنيّ وتساؤله، هل آلامه هي عقابٌ عن تقصيرٍ لا يعرفه.

ومع ذلك، تجرّأ فكتب ثانيةً إلى مرشده، بتاريخ ١٩١٢/٣/٢١:

"منذ يوم الخميس حتّى يوم السـبت، ويوم الثلاثاء، أيضًـا، أعاني مأسـاةً، ولكأنّ حَربةً تخترق قلبي، ويديّ، ورجليّ، وتُلحِق بي ألمًا شديدًا".

هذا الألم كان يقتاده، أحيانًا، إلى الانخطاف، كما يتّضح من رسالةٍ أُخرى، بعث بها إلى مرشده، يوم ١٩١٢/٥/٢٠، قال فيها:

"غالبًا، ما يحدث لي، وأنا مسـتغرقٌ في خشـوعي وتأمّلاتي، أن يخطر ببالي أنّ الموت سـيتأخّر في جمعي بالله فورًا. وحينئذٍ، أشـعر بمثل صـاعقةٍ تنقضّ عليّ، وبسـهامٍ ناريّةٍ تخترقني. والجرح الذي أُصـابُ به، هو أعمق من جرح الصـاعقة، ولا يُفتَح حيث نتألّم عادةً، بل يسـتقرّ في صـميم النفس. وفي هذه الحال يتعذّر عليّ إعمال الفكر، بما يحدث لكياني".

ما أقرب هذا الوصف من وصف الصوفيّة القدّيسة تيريز الأڤيلاويّة، لجراح الحبّ الإلهيّ، التي كانت تُقاسيها روحيًّا!

وفي رسالةٍ أخرى إلى مرشده، كتب:

"كنتُ في الكنيسة، شاكرًا، بعد القدّاس، وبغتةً، اعتراني شعورٌ بسهمٍ ناريّةٍ تخترق قلبي، وتجرحني جرحًا كاد يقضي على حياتي. لستُ أملك التعبير الملائم لوصف كثافة هذا اللهب. فالنفس التي تُصاب بتلك الصاعقة، تُمنى بالخرس... وقد خُيِّل إليّ أنّ قوّةً غير مرئيّةٍ أغرقتني في النار... يا إلهي، يا لتلك النار! ويا لتلك العذوبة!".

ثم كتب: "الآن، سحب يسوع رمحَه. ولكنّ الجرح قاتلٌ...".

تكرّرت "جراح الحبّ"، هذه، في السنوات التالية، مُرسّخةً في الأب پيّو الحبّ الصوفيّ، الذي يُلهب النفس، مازجًا الألم بالعذوبة، وجاعلًا منه ألمًا شهيًّا.

ولم يكن الأب پيّو يُطلِع أحدًا على تلك الأحداث، حتّى والدته التي كانت تلحظ إشاراتٍ غير مألوفةٍ، ولا تلقى لها تفسيرًا. وقد شاهدته، يوم ١٩١٥/٩/١٤، في الكوخ الذي بناه له أقرباؤه، في مزرعة ذويه، ملوّحًا بيديه ألمًا. ولمّا سألته مازحةً، هل هو يتمرّن على العزف، أجابها: "بل أتمرّن على شيءٍ آخر..." وكان ذلك اليوم موافقًا لذكرى التماس القدّيس فرنسيس، على تلّة "ألڤيرنا"، نعمة الألم الفادي، محاكاةً لآلام المخلّص الفدائيّة.

عودةٌ إلى الدير

تمادت إقامة الراهب پيّو القسريّة، بعيدًا عن ديره، غير أنّ إقامته في پيِترِلْشينا، هيّأته لخدمة الربّ، كما كان يشتهي، ولمشاركته خلاص النفوس، من خلال صراعاته المتواصلة والشاقّة مع قوى الجحيم، وجهده الدائب على تطهير ذاته من كلّ نقصٍ، ومعاناته ليل النفس الدامس، وشروعه في محاكاة المصلوب.

وشرع بعض المسؤولين الكبّوشيّين، يضيقون ذرعًا بأخيهم الذي تُكرهه أمراضُه العنيدة المتعاقبة على العيش، طويلًا، خارج الدير. ولكنّ رئيسه الإقليميّ كان يداري الأمور، حتّى انعقد مجلس الجمعيّة في روما، وأُثير موضوع الأب پيّو، واقترح الرئيس العامّ الحصول له على إعفاءٍ بابويٍّ من نذوره الرهبانيّة، وإبقائه كاهنًا راعويًّا في قريته. وما إن تنامى هذا الاقتراح إلى مسامع الأب پيّو، الذي كان له خلع الثوب الفرنسيسكانيّ أصعب من الموت، حتّى التمس مهلةً قصيرةً، آملًا استعادة صحّته، في أمدٍ قصيرٍ، وقدرته العودة إلى الدير، الذي كان توّاقًا إليه. وحينئذٍ، طُلِبت منه العودة إلى دير "موركوني"، حيث كان قد أمضى فترة الابتداء. كان دير "فوجّا"، آنذاك، شبه فارغٍ من رهبانه، الذين سِيقوا إلى الخدمة العسكريّة، فتقاسم مهمّات الدير مع رئيسه، الذي شهد أنّه كان دائم الفرح والمرح، رغم الأوجاع التي لم تهادنه. ولكن لم تكد تمضي خمسة أيّامٍ على وصوله إلى ذلك الدير، حتّى انهارت صحّته انهيارًا دراماتيكيًّا، وانتابته نكسةٌ صحّيةٌ خطيرةٌ، وارتفعت حرارته إلى أعلى درجةٍ في ميزان الحرارة العاديّ، وبلغت ٤٢ درجةً. ثم كانت تنخفض بسرعة. وعاودته هجمات الداء، أشدّ حدّةً، وبأشكالٍ لم يقوَ الأطبّاء على تفسيرها. واتّضح، لاحقًا، أنّ هذه العلّة التي وُصِفت بأنّه "حريق الحبّ"، قد لوحظت لدى صوفيّين وصوفيّاتٍ، أمثال القدّيسة "كاترين الجَنَويّة"، والقدّيس "فيليپ نيري".

في تلك الفترة، لم يعهد الأب پيّو استقرارًا، بل كانت حياته تناوبًا بين دعواتٍ إلى الخدمة العسكريّة، وإجازات نقاهةٍ، إلى أن أُعفي نهائيًّا، يوم ١٦/٣/١٩١٨. فاستعاد مهمّته الإرشاديّة، وسط آلامٍ مبرّحةٍ. ولكأنّ عدوّ الله والبشر، كان مترصّدًا عودته كي يجدّد هجماته الشرسة على ذلك الكاهن، الذي توسّم فيه خصمًا خطيرًا. فكتب الأب پيّو إلى مرشده:

"مرّةً أخرى، انحدرت نفسي إلى الجحيم، وعرّضني الربّ لعنف إبليس، الذي ضاعف شراسة هجماته المتواصلة، جاهدًا في انتزاع أغلى وأقدس كنزي، أي الإيمان. إنّه يهاجمني في كلّ ساعات النهار، وفي كلّ مكانٍ، وفي الليل يقضّ مضجعي.

كانت تلك الفترة للأب پيّو، ليلًا روحيًّا دامسًا، جعله يعدّ ذاته "خاطئًا كبيرًا"، و"حيوانًا قذرًا"، و"كائنًا حقيرًا جديرًا بالازدراء"، تخلّى الله عنه. وفي الواقع كان الله يُعِدّه لتفجير ينابيع الدم من سمات صلبه الخمس.

واستعاد الأب پيّو مهمّته الإرشاديّة. وكان إرشاد طلّاب الرهبنة ونساء القرية، يستغرق وقته كلّه. ومع ذلك، كان غائصًا في ليلٍ مزدوجٍ، ليل ظُلمةٍ نفسيّةٍ مضنيةٍ، أفصح عنها بقوله: "إنّ الشكّ الذي يحاصرني باطّرادٍ، وينكّل بي باستمرارٍ هو جهلي المستمرّ، هل ما أفعله، وما أتلقّاه يحظى برضى الله؟".

وفي الآن عينه، كان يقاسي الآلام الجسديّة صامتًا، لم يُطلع عليها سوى مرشده الذي كتب له: "لا يني الآب السماويّ يُشركني، جسديًّا، بآلام ابنه الوحيد، آلامٍ من الحدّة بحيث يتعذّر عليَّ وصفُها. وأجدني، لاإراديًّا، أبكي مثل طفلٍ، ولست أدري هل الوهن أو الخطأ هما سبب بكائي".

وعن اضطهاد إبليس له، روى أحد رؤسائه، أنّه، نادرًا، ما تناول العشاء مع إخوته، مع أنّ طعامه كان مقتصرًا على الحدّ الأدنى. فقد كانت أوجاعه تُكرِهه على الاستلقاء باكرًا في سريره. وفيما كان إخوته الرهبان يتناولون عشاءهم، غالبًا، ما كانت تريعهم جلبةٌ مدوّيةٌ آتيةٌ من صومعته، وكان بعضٌ منهم يهرعون إليه، فيجدونه، خارجًا لتوّه من معركته مع الأبالسة، شاحبًا شحوبًا مرعبًا، بلا قوّةٍ، ولا طَولٍ، ولا قدرةٍ على التلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ. والذين يساعدونه على تغيير قميصه، كانوا يجدونه، وكأنّه خارجٌ لتوّه من طست ماءٍ. فقد كان الأبالسة ينكّلون به، بلا هوادةٍ، بغيةَ إقصائه عن الدير، ودفعه إلى القنوط والاستسلام.

واتّفق أنّ أُسقفًا حلّ ضيفًا على ذلك الدير، وأثناء العشاء سمع الجلبة الجهنّميّة، فبلغ به الرعب كلّ مبلغٍ، ولم يجسر على النوم بمفرده في غرفةٍ، وآثر الهروب من الدير ليلًا. وقد أخافت هذه الهجمات الليليّة بعض رهبان الدير، فطلب الرئيس الكبّوشيّ الإقليميّ من الأب پيّو، إنهاء الضوضاء، رحمةً برفاقه الضعفاء. وبما أنّ الربَّ هو الذي يسمح لإبليس بامتحانه، فليسأل الربّ إيقاف هذا الامتحان. والتمس الأب پيّو من الربّ، واستجاب الربّ له، وسكتت الضوضاء. غير أنّ إبليس ظلّ على عناده في امتحان عدوّه الخطير، محاربةً داخليّةً عنيفةً.

كان الأب پيّو قد بلغ، حينذاك، التاسعة والعشرين من العمر. وكانت أمراضه التي لا تنتهي، تهدّد بوضع حدٍّ لمسيرته الرهبانيّة، ولم يبقَ له رجاءٌ إلّا في العون الإلهيّ، وأرسلَ الله هذا العون من خلال الأب "پاولينو دا كازاكاليندا" (Paolino da Casacalenda)، الذي كان آنذاك، رئيس دير "سان جُوڤانّي رُتونّدو"، وقد قَدِم إلى دير فوجّا المكرّس على اسم القدّيسة حنّة، والدة العذراء، بمناسبة عيد تلك القدّيسة، من أجل الاحتفال بالعيد. ووجد الأب پيّو في حالة هزالٍ مريعٍ، فاقمته شدّة القيظ في تلك المنطقة الساحليّة، التي لم يحتملها الأب پيّو، فدعاه الأب پاولينو إلى مرافقته

إلى دير "سان جُوڤانّي رُتونّدو"، الجاثم على ارتفاع ستّ مئة مترٍ، والكفيل بتزويد الراهب المعتلّ بنسيمٍ منعشٍ، يريح رئتَيْه العليلتَيْن. وفي الواقع ارتاح الأب پيّو إلى جوّ "سان جُوڤانّي رُتونّدو"، ولكنّه لم يرضَ الإقامة فيه حتّى الحصول على موافقة رئيسه الإقليميّ. وفي الرابع من شهر أيلول ١٩١٦، استقرّ في ذلك الدير، ولم يبارحه حتّى مات فيه. ومن ذلك الدير، انطلقت شهرة قداسته، وثمارها الفدائيّة حتّى أقاصي العالم.

تقول الأسطورة إنّ قرية سان جُوڤانّي رُتونّدو كانت معبدًا وثنيًّا. وفي نحو العام ٥٠٠، تحوّل معبدًا مسيحيًّا مكرّسًا للملاك ميخائيل، وإنّ القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، حجّ إليه عام ١٢١٦. وبمثابة شكرٍ لكرم ضيافة أهاليه له، بارك موقعًا يبعد قليلًا عن القرية، وتنبّأ بأنّ ديرًا سينهض في ذلك الموقع. وفي ذلك المكان عينه أقام خمسة رهبانٍ كبّوشيّين، عام ١٥٤٠. ولكنّ زلزالًا دمّر الدير، وأعاد الكبّوشيّون بناءه عام ١٦٢٩، وألحقوا به كنيسةً مكرّسةً للقدّيسة مريم سيِّدة النعم. وبعد مضيّ سبعة قرونٍ على زيارة الأسّيزيّ إلى ذلك المكان، استقرّ في ذلك الدير أشهر أبنائه: پادري پيّو.

ثمّ بسبب معاداة السياسيّين للكنيسة، أُغلق الدير على التوالي عام ١٨١٠، وعام ١٨٦٦، وأُعيد فتحه عام ١٩٠٩، وأقام فيه ستّة رهبانٍ محرومين من كلّ عوامل الرفاه. فكان أحدهم، بالتوالي، عملًا بالنظام الفرنسيسكانيّ، يطوف على متن حمارٍ في الحقول والبيوت القريبة، ويستجدي فلّاحين فقراء شيئًا من الحنطة والزيتون والزيت، وكان الرهبان يزرعون خضراواتٍ، تساعدهم على إكمال نصيبهم الزهيد من الطعام.

وكان الدير يفتقر إلى الماء الجاري والكهرباء، ورهبانه يعانون قيظ الصيف، وبرد الشتاء القارس، ومع ذلك، أقام فيه پادري پيّو اثنين وخمسين عامًا.

في البدء خشي مسؤولو الدير، أن ينقل الأب پيّو داء السلّ إلى إخوانه، ولكنّه أكّد لهم بثقةٍ أنّ مرضه ليس كمرض الآخرين، وأنّه لا يعدي.

فكُلِّف بالإشراف على مدرسةٍ صغيرةٍ، كانت تعدّ شبّانًا للرهبنة، وتولّى هو إرشادهم الروحيّ. وكان يلقي عليهم محاضراتٍ روحيّةً، مرّتين في الأُسبوع، ويدعوهم إلى الكمال ويحرّضهم على الاعتراف اليوميّ، وفحص الضمير كلّ مساءٍ، والتأمّل بخشوعٍ وتواضعٍ، مؤكّدًا أنّ التأمّل هو مفتاح التقدّم الروحيّ، ومعرفة الذات وإصلاحها.

في ذلك الدير استهلّ الأب بيّو إرشاد النفوس وشفاءها، ومنذئذٍ، اعتاد قضاء ساعاتٍ في كرسيّ الاعتراف. وفي هذا الدير، أيضًا، ظهرت للعلن سمات صلبه، مشيرة إلى انصهاره في يسوع.

ومنذئذٍ، غدا الذين يشهدون احتفاله بالقدّاس، يؤخذون بقداسته واندماجه بالربّ، ويسترشدون به، بشأن حياتهم الروحيّة. وكان مَن يصعب عليهم المجيء إليه يراسلونه، فيجيبهم برسائل.

وأخذت تنشأ من حوله جماعاتُ أبناءٍ وبناتٍ روحيّين، يسلكون وفق روحانيّته ويتغذّون بها. ولم يكن يقبل في تلك الجماعات فاترًا أو كسولًا أو متخاذلًا. وشرع يؤسّس جماعاتِ صلاةٍ، سرعان ما انتشرت في معظم المدن الإيطاليّة، وفي العالم أجمع.

تقـدمةٌ واختراقٌ

قدّم الأب پيّو نفسه ضحيّةً طوعيّةً، عمّن يطلبون منه هذه التضحية، وعمّن لا يطلبونها، مثل الحمَل المقدّم من أجل افتداء خطايا العالم أجمع.

ارتدت هذه التقدمة أهمّيّةً خاصّةً، يوم عيد جسد الربّ لعام ١٩١٨. وفي ذلك اليوم، قدّم كلّ آلامه من أجل خلاص جميع الخطأة، ولا سيّما من أجل نفوسٍ كثيرةٍ، تهوي إلى جهنّم، لأنْ لا أحدَ يُضحّي، ولا أحدَ يصلّي من أجلها.

في غمرة شعوره بتخلّي الله عنه، كان يَعدّ كلَّ نعمةٍ ينالها، وكلّ تعزيةٍ روحيّةٍ، مكافأةً غير مستَحَقَّةٍ، وكلّ عقبةٍ ومعاكسةٍ، كان يَعدّهما عقابًا عن ذنوبٍ اقترفها.

كان قد تخلّى عن كلّ ذاته، وكان يرى كلّ حدَثٍ على ضوء الإيمان.

يومَ عيد جسد الربّ، بَهَرته شعلة النور الأولى، أي ما يسمّيه لاهوتيّو الصوفيّة، "اللمسات الإلهيّة الجوهريّة"، أو "اللمسات الصوفيّة"، وهي مشاعر روحيّةٌ عذبةٌ، تنحفر في الإرادة، بواسطة اتّصالٍ إلهيٍّ، يواكبه نورٌ متوهّجٌ.

ومنذئذٍ، دخل مرحلةً جديدةً من الاستشهاد الجسديّ والنفسيّ، قال عنه: "إنّه الاستشهاد الأكثر حِدّةً، والذي لا قِبَلَ لضَعفي على احتماله". فقد غشَتْ نفسه مشاهد الشرّ الطاغي، ولم يعُدْ يعثر على أثرٍ للخير، واستحوذَ عليه شعورٌ بالوحدة والعزلة، وبمرارة الشعور بتخلّي الله عنه. وبيّن كيف بدأ ذلك، فأوضح:

«فيما كنتُ أحتفلُ، هذا الصـباح بالقدّاس، وفي أثناء صـلاة التقدمة، مُنِحتُ نسـمة حياةٍ، ولا قدرة لي على وصـف تلك الحادثة الخاطفة. فقد ضـربتني هزّةٌ

ملأتني هَلَعًا، وكادت تقضـي عليّ. عَقِبها سكونٌ تامٌّ، لم أخبر له مثيلًا. تعاقُبُ الهزّة والسكون، سبَّبَه أمرٌ مَسَّني في حيّز نفسي الأكثر سرّيّةً وحميميّةً. ليتَني أستطيع إفهامك هذا الحدث الخاطف، كما جرى في الواقع.

"فمن المؤكّد أنّ اللغة البشـريّة تقف عاجزةً عن وصـف الحالات الصـوفيّة، حيث تتعاقب الهجمات الشيطانيّة.

أثناء هذا الحدث، تسـنّى لي أن أقدّم ذاتي كلّيّةً للربّ، من أجل النوايا عينها، التي كان الأب الأقدس يضـحّي ويصـلّي من أجلها. وما كدتُ أفرغ من فعل التقدمة، حتّى اعتراني شـعورٌ بأنّي أُودِعتُ في سـجنٍ، ووُثِّقتُ بأغلالٍ شـديدة القسوة، واجتاحني شعورٌ بأنّي على شفا الموت، واستحوذَ عليّ إحساسٌ بأنّي في جحيمٍ، لا أعهد فيه لحظة راحةٍ».

تلك الحال أعدّته ليصبح انعكاسًا لآلام يسوع على الأرض، ولأداء المهمّة التي اختاره الله لها.

وليلةَ الخامس إلى السادس من شهر آب ١٩١٨، ظهر له ملاكٌ، شاهرًا حربةً ذهبيّةً مضيئةً، اخترقت أماكن الصلب في يدَيْه، وقدمَيْه وجنبِه، والتي كانت آثارها قد طُبِعت في جسده. ثمّ امتثالًا لأمر مرشده، روى كيف حدث ذلك، فكتب، يوم ١٩١٨/٩/٩:

«مسـاء الخامس من شـهر آب، فيما كنتُ أسـمع اعترافات الأولاد، اسـتحوذ عليّ خوفٌ شديدٌ، لمّا رأيت كائنًا سماويًّا ماثلًا أمام ذهني، حاملًا ما يُشبه حربةً مذهّبةً مديدةً، ومسـنونةً، بدت وكأنّها تَنفثُ نارًا، وبينما كنتُ أشـهدُ ذلك، أنفذَ الكائن السماويّ في نفسي تلك الأداة، وبمشقّةٍ كبرى أصدرتُ آهةً، وكدتُ أفارق الحياة. فطلبتُ من الولد الذي كنتُ أعرّفه الانصـراف، لأنّني كنتُ متألّمًا جدًّا،

وعاجزًا عن متابعة سماع اعترافه، واستمرّ هذا الاستشهاد حتّى صباح السابع من الشهر.

"يتعذّر وصف ما قاسيتُه طوال تلك الساعات المُميتة، إذ كنتُ أشعر بأحشائي تُنتَزَع وتمزّق، وبكلّ عضــوٍ فيّ يلتهب وينزف. ومنذ ذلك اليوم أُشــرِعَ فيّ جرحٌ واكبني حتّى الممات، واستحوذ عليّ شعورٌ بجرحٍ مشرَعٍ في صميم نفسي، لا يكفّ يوجعني...

"أليس ذلك عقابًا جديدًا، تُنزله بي العدالة الإلهيّة؟»

ومنذئذٍ، أمست حياة پادري پيّو مزيجًا من آلامٍ جسديّةٍ ونفسيّةٍ، وانخطافاتٍ روحيّةٍ وشدائد أرضيّةٍ، واختلاطاتٍ ذهنيّةٍ جسيمةٍ، وليلٍ نفسيٍّ دامسٍ.

ما أشبه وصف پادري پيّو بوصف القدّيسة الصوفيّة "تيريزا الأڤيلاويّة"، التي قبل أربعة قرونٍ، قد أُصيبت "بجراح الحبّ الإلهيّ". وفسّر المرشد الروحيّ لپادري پيّو، بأنّ الربّ قد شاركه ألمه، بعد أن شاركه هو سلامه، وأنّ ما تلقّاه هو "خاتم حبٍّ"، دمَغَ قلبه. ولكن، لا الأب پيّو، ولا مرشده، توقّعا أنّ جرح حبّه، سيكون أكبر من جراح الصوفيّين الذين سبقوه، وأنّه سيكون ظاهرًا للعيان، وسيتحوّل إلى سمات صلبٍ دائمةٍ.

كيف ظهرت سمات صلب پادري پيّو

في شهر أيلول ١٩١٨، لم يكن في دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، سوى الرئيس، الأب "پاولينو"، والأب پيّو، وأخٍ يقوم بالتسوّل من أجل الدير، يُدعى الأخ نيقولا.

ويوم ٢٠ أيلول، ذهب الأب الرئيس للوعظ خارج الدير، وانطلق الأخ نيقولا يتسوّل طعامًا للدير، وبقي الأب پيّو وحيدًا في الكنيسة، مستغرقًا في تأمّل آلام المخلّص، أمام صليبٍ خشبيّ كبيرٍ، فظهر له الربّ، وأراه جِراحَه النازفة. وحينئذٍ، فُتِحت سمات الصلب في الأماكن التي كانت توجعه، مدى سنواتٍ، ولم تكن تبدو منها سوى علامات احمرارٍ. وبما أنّه لم يشهد أحدٌ ذلك الحدث، آنذاك، كتمه الأب پيّو خَفَرًا وتواضعًا. وساعده على إخفائها أنّ الجراح، في البدء، كانت صغيرةً يسهل إخفاؤها.

وبعد أُسبوعٍ، لحظ مؤمنون حضروا قدّاس الأب پيّو علامات جراحٍ على ظهر يدَيْه، وكان بين ملاحظي هذه الظاهرة شقيقة رئيس الدير، الأب "پاولينو"، فرَوَتْ لشقيقها ما رأت، وما رآه آخرون.

ذُهل الأب "پاولينو"، ولم يُصدّق ما نُقِل إليه، لأنّه استبعد إخفاء الأب پيّو حَدَثًا على هذا القدر من عظمة الشأن. ولكنّه، في قرارة نفسه، كان موقنًا أنّه، إن كانت سمات الصلب قد ظهرت على الأب پيّو، فله دوافع على إخفائها وكتمانها، وعزم رئيسُه على كشف سرّها.

وكان الأب پاولينو، قد اعتاد، قبل شروعه بإلقاء دروسٍ على إكليريكيّي الدير، أن يزور الأب پيّو، ويناقشه في أمور الدير، ويبوح له بهمومه وهواجسه. وذات يومٍ،

دخل إلى غرفته، بلا استئذانٍ، وكان الأب پيّو عاكفًا على الكتابة، فطلب منه متابعة الكتابة، ودنا من النافذة بحجّة مراقبة ما يجري في الحديقة، وعاين سمات الصلب على راحة يده اليمنى وظهرها، ثمّ لمّا أمسك الأب پيّو ورقةً، لحظ السمات على يده اليُسرى.

وخطر للأب پاولينو، مرّاتٍ عديدةً، الحصول على تفاصيل حدوث تلك السمات، ولكن، في كلّ محاولةٍ، كانت الكلمات تختنق في حلقه، ويعجز عن طرح أسئلته، مباشرةً وصراحةً. ورأى أنّ من واجبه إطلاع رئيسه الإقليميّ على الحدث، وهذا الأخير أوعز إلى مرشد الأب پيّو الروحيّ استجلاء الأمر، فأَمَرَه، باسم الطاعة، أن يبيّنَ بوضوحٍ وإسهابٍ، ما حدث له، فكتب، يوم ١٩١٨/١٠/٢٢:

"صباح يوم ٢٠ أيلول الماضي، إثر احتفالي بالقدّاس، كنتُ في جوار الهيكل، أشــكر. وبغتةً اعتراني نعاسٌ عذبٌ، وكلّما أمعنتُ في الصــلاة، كانت العذوبة تتنامى. وفجأةً ضــرب نظري نورٌ باهرٌ، وفي وسْــطه ظهر لي المســيح بجراحه النازفة. لم يقلْ شيئًا، وسرعان ما توارى.

"ولمّا أفقتُ، وجدتُ ذاتي ملقًى على الأرض، وقد غَشَــتني الجراح. يداي وقدماي، وجنبي كانت تنزف وتوجعني، فلم أقوَ على النهوض، وزحفتُ مجتازًا الممرّ إلى صومعتي، واستلقيتُ على سريري، وصلّيتُ ملتمسًا رؤية يسوع ثانيةً. ولمّا هدأ روعي، أمعنتُ النظر في جراحي، واستغرقتُ في الشكر والصلاة".

هذا المنظر أغرقه في بحرانٍ من الخجل والفرح. الخجل الناجم عن شعوره بعدم استحقاقه التشبّه بابن الله المصلوب، وفرح مشاركة الربّ معاناته على الصليب.

وجهد الأب پيّو إخفاء جراحه، فشرع يدهنها باليود، كي يوقف نزفها، ويضمّدها بالقطن والكتّان. ثمّ لجأ إلى تغطيتها بقفّازاتٍ صوفيّةٍ سميكةٍ، تغطي كامل الراحتَيْن،

وتدع أصابعه ظاهرةً. ولكنّه كان ينتزعها، أثناء القدّاس، تكريمًا للقربان الذي يمسكه بيديه العاريتَيْن، فتمكّن الفضوليّون من معاينة جراح يدَيْه.

حريٌّ بالذكر أنّه، لسبعة قرونٍ خلتْ، ويوم تذكار رفع الصليب المقدّس، كان القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، على تلّة "ألڤيرنا"، قد التمس من يسوع بحرارةٍ، إشراكه في آلام صلبه، التي دفعته إليها محبّته للبشر، واستجاب الربّ لطلبه، فدَمَغه بسِماتِ صلبِه. والتشابه كبير بين طبع سِمات صلب القدّيس فرنسيس، وطبع سمات الصلب في تلميذه پيّو.

سِمات الصلب قلَبتْ حياة الأب پيّو رأسًا على عقبٍ، إذ جعلته في نظر الجميع "مصلوبًا بلا صليبٍ". وفضلًا عن ذلك، لم يهادنه إبليس الذي استمرّ يهاجمه بضراوةٍ، ويعكّر وجوده، ويذكي تباريح أوجاعه. وبلغت آلامه النفسية ذروتها بفاجعة وفاة شقيقةٍ له، أمٍّ لثلاثة أطفالٍ، ووفاة ابن أخيه العزيز على قلبه. ولم يكن العزاء الذي يستمدّه من استسلامه لمشيئة الله كافيًا لتخفيف حدّة آلامه النفسيّة والجسديّة.

وسرعان ما شاعت في قرية سان جُوڤانّي رُتونّدو، أنباء ظهور سِمات الصّلب على الأب پيّو، وشرعت تتقاطر إلى الدير، كلّ يوم أحدٍ، مواكب الحجّاج، ضامّةً فضوليّين راغبين في مشاهدة الكاهن الأوّل، الذي دَمَغه الربّ بسِمات صلبه، وتائبين، وطالبي نعمٍ وأشفيةٍ، ومتشوّقين إلى ارتدادٍ روحيٍّ.

ومنذ البدء، حرص الأب پيّو على رفض استغلال الحَدَث لمجده الذاتيّ، وكذلك فعل رؤساؤه، حينذاك. فدعا رئيسه المباشر الرئيس الإقليميّ إلى المجيء والحكم بنفسه، وكلّف طبيب الدير، الدكتور أنجيلو ميرلا، الذي كان، في الآن عينه، عمدة سان جُوڤانّي رُتونّدو، بفحص جراح الأب پيّو، وتبيان هل هي خطرٌ على حياته. فاكتفى بفحصٍ

سطحيٍّ، ولم يكتب تقريرًا، وظلّ منفتحًا على كلّ احتمالٍ. ولم يكن الدكتور ميرلا يؤمن إلّا بما يثبته العلم والعقل، رافضًا أيّ تفسيرٍ فائق الطبيعة. غير أنّه لمّا لحظ زجاجة اليود على منضدة الأب، خامَرَه الشكّ بأن تكون الجراح خدعةً. ولمّا طلب طبيبٌ آخر، لاحقًا، إقلاع الأب عن دهن جراحه باليود، غدا الأب يضمّد جراحه بالقطن والكتّان، ويخفيها بقفّازاتٍ، يغيّرها كلّما تبلّلت بدمه النازف حتّى الإشباع. وحينئذٍ، أمر رئيسُه بحرق القفازات المبلّلة بدم الأب پيّو، حؤولًا دون استعمالها من أجل الإسراف في تكريمٍ شعبيٍّ، مفرطٍ للأب پيّو، قبل أن تبتّ السلطات الكنسيّة بطبيعة جراحه. ومع ذلك، نجا بعض القفّازات من الحرق، وكان وسيلة أشفيةٍ خارقةٍ.

ومنذئذٍ، أمست تلك الجراح المباركة مدعاةً لفئةٍ من الناس، إلى تكريم الأب پيّو وإجلاله، ولفئةٍ أخرى إلى اضطهاده، وقذفه بأكثر الصفات إهانةً. وأضحت حياته استشهادًا متماديًا.

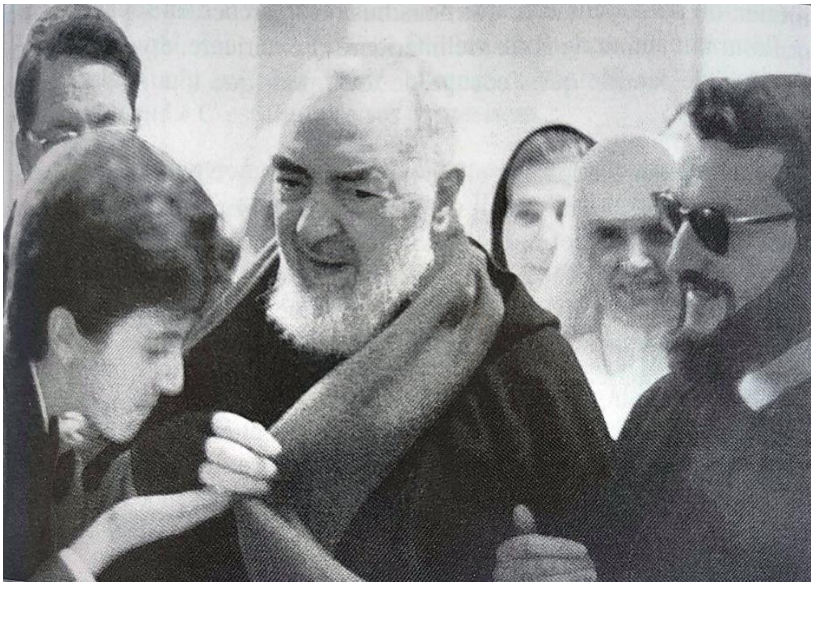

تواضعٌ وبساطةٌ

حذر الرؤساء، وتسابق الصحافيّين

في مطلع عام ١٩١٩، وعقب مضيّ نحو ثلاثة أشهرٍ، على وسم پادري پيّو بشارات الصلب، وصف الأب حياته بمزيجٍ من "ألمٍ وحبٍ، مرارةٍ وعذوبةٍ". وغدا يشكو من عجزه عن احتمال عبء ذلك الحبّ الجمّ.

وكانت الصوفيّة الفرنسيّة المعاصرة له "مارت روبان"، قد وصفت سمات الصلب، بأنّها "تقدمةٌ وألمٌ"، وأنّ "حامل سِمات الصلب يشعر أنّ يسوع يتألّم فيه، خارجَ الزمن، وخارجَ المدى، ولكنّه يتألّم مُمجّدًا". وأكّدت أنّ آلامه لا تخفّ مع كرّ الزمن، ولكنّها تتخطّاه، فيفقد الشعور بحمل صليبٍ، بما أنّه أصبح هو صليبًا حيًّا.

وپادري پيّو توغّل في التمثّل بالمصلوب، وفضلًا عن السّمات الخمس الظاهرة، تحمّل أوجاع الصلب، وإكليلَ الشوك، وجرحًا في كتفه، في مكان الكتف الذي ألقى يسوع صليبَه عليه. وقد عاين كثيرون نزف الجراح التي أحدثها الجلدُ، وإكليل الشوك. وشهدت آثار الدم على ثيابه بذلك النزف.

وربّما لم يخضع أحدٌ من الصوفيّين، باستثناء الصوفيّة الألمانيّة المعاصرة له "تيريز نُويمَنْ"، والصوفيّة الألمانيّة، في القرن التاسع عشر "أنّا كاترينا إيمّيريك"، لمثل ما خضع له پادري پيّو من تحقيقاتٍ شاقّةٍ ومهينةٍ.

فبعد فحص الدكتور ميرلا السّطحيّ، كلّف رئيس الأب الإقليميّ الدكتور "لويجي رومانيللي"، بإجراء فحصٍ دقيقٍ لجراح الأب پيّو. فجاء إلى الدير، برفقة الرئيس المذكور، وكاهنٍ كبّوشيٍّ آخر، ودوّن تقريرًا إيجابيًّا، بما عاين واستخلص، وظلّ يزور الدير، على مدار سنةٍ، وبمناسبة كلّ زيارةٍ كان يراقب جراح الأب پيّو.

ومنذ زيارته الأولى، لفت انتباهه انبعاثُ رائحةٍ زكيّةٍ من دم الأب، وبما أنّه لم تكن له معرفةٌ بالحالات الصوفيّة، استعجب، واستفسر هل بات الرهبان يتعطّرون، إلى أن أدرك أنّ تلك كانت "عطر القداسة"، النادرة. وكان البعض يشتمّون فيها خليطًا من عطر الورد والبنفسج، وآخرون يشتمّون أريج أزهارٍ أخرى كالليلك والمغنوليا. وقد ميّز عطر القداسة هذا حَفْنَةً من الصوفيّين، مثل الأسقف الشهيد "پوليكرپوس"، في القرن الثاني، والقدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، في القرن الثالث عشر.

لم يتوقّع الأب پيّو أن تدوم جراحه أكثر من أشهرٍ، أو سنواتٍ قليلةٍ. غير أنّ رئيسه الإقليميّ جهد في إقناعه، بأنّ هذه الكرامة لا تخصّه وحدَه، وأنّ هذه الهبة الإلهيّة المجّانيّة تستهدف، أيضًا، تقديس الآخرين. قال له ذلك بعد معاينتِه، عن كثبٍ الحفرة في كلٍّ من راحتَيْه، من جانب إلى آخر، وأحدثت فيها فراغًا، وراقب نزف الدم من يدَيْه وقدمَيْه، ونزف دمٍ ومصلٍ من جنبه.

وقدِم الرئيس العامّ على الجمعيّة الكبّوشيّة، من مركزه في روما، وشاهد، ومع ذلك لم يتسرّع بالحكم، بل قرّر إرسال أفواجٍ من الأطبّاء والخبراء، بغيةَ التثبّت من طبيعة جراح الرّاهب المسكين.

وبدأ الرئيس بتكليف زميلٍ للأب پيّو منذ أيّام الابتداء، بحجّة مساعدته في تنقّله على قدمَيْن، حُفِرت فيهما جراحٌ عميقةٌ، أن يصوِّرَه عن كثبٍ، فأظهرت الصور التي التقطها له، قروحًا مستديرةً، بحجم قطعة نقودٍ معدنيّةٍ، على ظهر كفَّيْه، وأظهرتْ عيناه المتألّقتان غوصًا في آفاق لامرئيٍّ قصيٍّ.

وفي التاسع من شهر نوّار (أي الشهر الخامس) ١٩١٩، نشرت صحيفةٌ مشهورةٌ مقالًا مقتضبًا، أُغفل ذكر اسم كاتبِه، عن راهبٍ كبّوشيٍّ، في دير سان جُوڤانّي رُتونْدو، يحمل سمات صلب الفادي، ويتميّز بالتبصّر، وقراءة كوامن الضمائر، وبإجراء أشفيةٍ عجيبةٍ، وبقدرة الحضور في مكانين مختلفين، في آنٍ واحدٍ...

في القدّاس يحيا آلام يسوع

هذا المقال قرأه إيطاليّون كُثُرٌ، وقَرِع جرس إنذارٍ في الڤاتيكان. ومنذئذٍ، أمسى دير سيّدة النِعَم في سان جُوڤانّي رُتونّدو، محجًّا لمختلف أنماط الزائرين: لاهوتيّين محقّقين، وأطبّاء، وملحدين عازمين على فضح الخرافات الدينيّة، وعشّاق الماورائيّات.

وتنافست صحفٌ محلّيّةٌ على نشر أنباء كرامات القدّيس الكبّوشيّ، وشفاءاته المعجزة، مستقطرةً مواكب الحجّاج إلى تلك المنطقة الجبليّة، التي كادت تكون مجهولةً، ضائعةً، من قبل.

واستثارت هذه الأنباء "العلماء" المقاومين لكلّ ما لا يتوافق مع معطيات علمهم المبنيّ على الواقع المحسوس، وانبرى منهم أفرادٌ، من أجل نقض كلّ ما كان يُشاع عن معجزاتٍ مستحيلةٍ علميًّا، وتعريتها من الخرافات الدينيّة، وإثبات كونها وهمًا جماعيًّا، وبيلًا وهستيريًّا.

هذه الحملات الصحافيّة المتضاربة، حَدَت بأفواج الحجّاج إلى التدافع بكثافةٍ، صوب سان جُوڤانّي رُتونّدو، بحيث عجز كهنة الدير على استقبال كلّ طالبي الاعتراف. وغالبًا ما انتهى الذين قَدِموا بدافع الفضول والإنكار، أو مَن استمالهم جاذب الخوارق، إلى تائبين راكعين أمام كرسيّ تعريف الأب پيّو وزملائه.

إقبال الغرباء الكثيف هذا على منطقة "فوجّا"، أزعج مسؤولي تلك المنطقة، ومعظمهم يساريّون ملحدون، ومناوئون للكنيسة. وانبرى أحدهم، وهو الدكتور "ليتشي" (Lecce) للاعتراض، وطالب مفوّض الشرطة بإجراء تحقيقٍ صارمٍ، عن هذا الحدث "المريب"، وبإخضاع الأب پيّو إلى فحصٍ طبّيٍّ، وإلى إعلان نتائجه، وباتّخاذ تدابير وقائيّةٍ صارمةٍ، من جرّاء تدفّق قرويّين مصابين بمختلف الأمراض المعدية. وتعبيرًا عن مقته العميق للأب پيّو ومحبّيه، الذين يحدثون ازدحامًا خانقًا، حول راهبٍ مصابٍ بسلٍّ خطيرٍ، ويلتقطون بصقاته الدامية.

ويوم ٢٨ حزيران، بعث مفوّض شرطة "فوجّا"، بتقريرٍ إلى إدارة الأمن العامّ، جاء فيه أنّ عدد الحجّاج لا يتخطّى يوميًّا خمس مئة زائرٍ، وأكّد أنّ رهبان الدير لم يقوموا بأيّة دعاوة من أجل اجتذاب حجّاجٍ، بل على النقيض، هم متضايقون من كثرتهم، ويتذمّرون من الحملات الصحافيّة التي أفضت إلى هذا الازدحام غير المألوف الذي لا يطيقونه. وأخيرًا، أكّد أنّ الأمن ممسوكٌ بحزمٍ. أمّا إذا خطر لأحدٍ إقصاء الراهب پيّو عن الدير – كما يُشاع – فيُخشى من ثورة غضب سكّان المحلّة. ولكي يطمئن الدكتور ليتشي عن الوضع الصحّي العامّ، اقترح إلزام كلّ زائرٍ لسان جُوڤانّي رُتونّدو، بأن يكون مزوّدًا بشهادة تلقيحٍ ضدّ الجدري.

التزم، إذن، مفوّض الشرطة المحلّيّ، في تقريره بالحياد والواقعيّة والتوازن. غير أنّ قرار محاربة الأب پيّو، واضطهاد الراهب القدّيس جاء ممّن كان مفروضًا أن يكونوا الذائدين عن حياضه، والمفتخرين بجوهرة الكنيسة، من أحبارٍ فاسدين، ومن كهنةٍ مارقين، وحتّى من بعض رؤساء جمعيّته الأعلَين.

وهكذا أصبح الكاهن المكرّس لخدمة الكنيسة، وجوهرتها، ضحيّة الكنيسة.

تهافتٌ عَلى سان جيوڤاني روتوندو، وحملات افتراءٍ وتشهيرٍ

تناولت الصحافة تضارب آراء الأطبّاء حول جراح الأب پيّو، وأسهبت في سرد تفاصيلها، فأثارت فضول الكثيرين الرّاغبين في معرفة الحقيقة عن كثبٍ، واستقطبت أمواج الحجيج إلى ذلك الموقع الوعر، في تلال "غرغانو" (Gargano)، حيث يجثم الدير الكبّوشيّ، سان جُوڤانيّ رُتوندّو.

ومنذ شهر أيّار ١٩١٩، شرع يتقاطر إليه، كلّ يومٍ، مئات الحجّاج التوّاقين إلى رؤية القدّيس، وتقبيل سِمات يدَيْه، وحضور قدّاسه منقطع النظير، وإراحة ضمائرهم بالاعتراف بين يدَيْه. وكان الأب يختار "الصيد الدّسم"، ويدع لإخوته الرهبان الاستماع إلى اعترافات النساء التقيّات، والأولاد. وكان بعض الراغبين في الاعتراف لديه، يضطرّون إلى الانتظار بين عشرة أيّامٍ وخمسة عشر يومًا، قبل أن يحين لهم دورٌ للركوع في كرسيّ تعريف پادري پيّو. لذلك، وتفاديًا للفوضى، وللتنافس على كرسيّ تعريفِه، وأحيانًا، للمتاجرة بالأدوار، إذ كان أغنياءٌ يُغرون فقراء بسطاء بالمال، كي يتخلّوا لهم عن دورهم، اتّضحت ضرورة تنظيم الدور، ومنح بطاقاتٍ، تحدّد لكلّ راغبٍ في الاعتراف لدى الأب پيّو، موعدًا ثابتًا.

ولا بدّ من التذكير، بأنّ قرية سان جُوڤانيّ رُتوندّو، كانت، قبل ذلك، مسكن فلّاحين فقراء، ولا يزورها غريبٌ، وبالتالي، كانت تفتقر إلى فندقٍ أو مطعمٍ. فكان الزائرون يقضون وقت انتظارهم في العراء، ما لم يستضفهم قرويّون، ويتنازلون لهم عن ألحفتهم، وعن شيءٍ من طعامهم الهزيل.

ومن دوافع التّهافت على كرسيّ تعريف پادري پيّو، قدرته على قراءة خفايا الضمائر، وتذكير المعترفين بخطايا يرغبون في إخفائها، أو تناسيها. ومن امتيازاته، أيضًا،

أنّه كان يفهم اعترافات أجانب بلغاتٍ يجهلها، وكانوا هم يفهمون ما يقوله باللغة الإيطاليّة التي لا يفقهون منها لفظةً.

ومعظم الحجّاج كانوا يعودون بانطباع التقائهم قدّيسًا فذًّا، ما أثار تحفّظ المسؤولين الكنسيّين، وحَسَد أحبارٍ مزدهين بذواتهم.

ولمّا سرت شائعة عزم السلطات الكنسيّة العليا، على نقل الأب پيّو من ديره إلى ديرٍ آخر مجهولٍ، وإخفائه، نظّم سكّان القرية فِرَقًا تسهر على الدير، بلا هوادةٍ، ومنع اختطاف قدّيسهم منهم.

هذه الشهرة المدوّية الطاغية التي أحاطت، بين ليلةٍ وضحاها، بالأب پيّو، أيقظت حَسَد الرعايا المجاورة، التي رأت التبرّعات والإحسانات، تنكبّ في خزينة الدير، عوضًا عن أن تصبّ في صناديقها.

وكانت رعيّة سان جُوڤانّي رُتونّدو تابعةً، كنسيًّا، لأبرشيّة "مانفريدو" (Manfredo)، التي كان يرأسها، آنذاك، أُسقفٌ فاسق السيرة، يعبد المال والبذخ، ويتاجر بالمقدّسات، يُدعى "پاسكوالي غالياردي" (Pasquale Gagliardi)، وقد ضمّ من حوله زمرةً من الكهنة السّائرين في فلكه، وكان له أصدقاء نافذون في الڤاتيكان. فشنّ على الأب پيّو أقذر حملة افتراءٍ وتشهيرٍ. مع أنّه لم يلتقِه، يومًا، ولم يتحرّ حقيقة سمات الصلب التي دمغه الله بها. ومع ذلك، أعلن أنّها خدعةٌ شيطانيّةٌ، ترمي إلى الإيقاع بقومٍ سُذّجٍ جهّالٍ. ووطّن عزمه على محاربتها بكلّ الوسائل. فاتّهم الراهب القدّيس بكلّ الموبقات التي كان، هو، بطلها المجلّي، وأغرى زمرةً من الكهنة الفاترين الرديئين، بالمناصب، والغنائم المادّيّة، وبالتّغاضي عن مخازيهم، وحملهم على توقيع شكوى، حفلت بألوان التخرّصات، والتلفيقات والافتراءات، وأرسلها إلى البابا بينيدكتوس الخامس عشر، بواسطة أمين سرّ الحبر الأعظم، آنذاك، والذي كان، قبل أشهرٍ معدوداتٍ، سكرتيره

الخاصّ، وناشد الحبر الأعظم وضعَ حدٍّ لعبادة الرهبان، الذين ادّعى الأُسقف أنّهم يغتنون من شهرته الزائفة.

وبغية التمويه والتعمية، زار ذلك الأُسقف الدير الكبّوشيّ، وحضر قدّاس الأب پيّو، وقبّل سمات صلب يدَيْه، ويُرجّح أنّه تنسّم أريج الورد والبنفسج المنبعث من دمه، ولكنّه أبى زيارة صومعته، ومع ذلك، أقسم زورًا، أمام الدوائر الڤاتيكانيّة، أنّه رآه، في صومعته يتعطّر ويتبرّج...

ضحيّة حملة التّشهير الأولى هذه، كان رئيس دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، الأب "پاولينو"، الذي أتى بالأب پيّو إلى ذلك الدير، رأفةً بصحّته وحياته. وكان المطّلع الأوّل على دمغه بسمات صلب الفادي، وعُقِدت بينهما وشائج روحيّةٌ خيِّرةٌ لكليهما. وكان فراقهما موجعًا. ومع ذلك، لم يكن عقاب ذلك الرئيس هو الأخير، بل عقبته عقاباتٌ أُخرى أشدّ صرامةً، لأنّه لم يتخلّ عن تأكيد قداسة الأب پيّو.

وفي هذه الأثناء كانت التحوّلات الروحيّة، لدى حجّاجٍ دفعهم الفضول إلى المجيء إليه، وعادوا مثقَلين بالنِعَم، تفعم قلبه عزاءً. ومن عوامل عزائه، أيضًا، أكداس الرسائل التي كانت تَرِدُه، بلا انقطاعٍ، من كلّ صوبٍ، ملتمسةً صلاةً أو شفاءً، أو نصحًا وإرشادًا.

ومن دواعي عزائه، أيضًا، أنّ تأثير أسقفه "غالياردي"، الذي كان نافذًا في الدوائر الڤاتيكانيّة، لم يستطع بثّ سمومه في أذهان أساقفةٍ، يسكنهم روح الوفاء لرسالتهم ولإيمانهم، وإكبارهم لكلّ ما يذكّرهم بالمخلّص. فجاؤوا وشاهدوا، وأيقنوا، وانبروا للدفاع عنه، حتّى بدّدوا غمام الافتراء، والافتئات، وأبرزوا نصاعة الراهب القدّيس، وحقيقة كونه كنزًا ثمينًا للكنيسة وللعالم.

كرامَـاتٌ فريدةٌ، وَمِحَنٌ طاحِنةٌ

يبدو أنّ الربّ لا يدلّل روّاد القِمَم الروحيّة، بل يتوخّى إيقاع نخبة ممَّن يختارهم ويخصّهم بكراماتٍ استثنائيّةٍ، في قيعان المهانة والتواضع. فهو يصوغ جواهره بعنايةٍ وقسوةٍ، وبضربات إزميلٍ متلاحقةٍ تُكمِل صقلها، وتحريرها من كلّ نتوءٍ.

تلك كانت حال پادري پيّو دي پْيِترِلْشينا، الذي أغدق عليه الربّ نِعمًا فريدةً، وأسبغ عليه أسمى نِعَمه، لمّا دمَغه بسمات صلبِه، وكرّسه صورةً للمصلوب، ومصلوبًا حيًّا، يشتري بدمه المنثال خلاص النفوس. ومع ذلك، هوى به إلى أغوار المهانة ومسالخ الاضطهاد، وجعله ضحيّة أساقفةٍ فاسدين، وكهنةٍ عبدة مالٍ، وهواة رفاهٍ، أعمتهم غيرتهم، وحسدهم، وأطماعهم التي لا ترتوي، ولاهوتيّين صَلِفين طمست الكبرياءُ بصيرتهم، وكبّلت ضمائرهم، وأطبّاءَ ملحدين ألقَوا به على سندان مطارقهم، وأنزلوا به طرقاتِ نظريّاتهم المتضاربة، ومعتقداتهم المعلّبة، رافضين كلّ ما لا يتوافق مع معطيات علمهم المحدود، والإقرار بوجود علمٍ أرفع من علمهم، وبقدراتٍ تفوق، بلا حدٍّ، قدراتهم المحدودة.

فمنذ ظهور سمات الصلب في جسد پادري پيّو، انقسمت الآراء بشأنها، بين مستقيمين عاينوا الواقع الماثل، فآمنوا، ورافضين اختلقوا نظريّاتٍ عشواء، تحاول تفسير ما لم يعثروا عن تبريرٍ علميٍّ له.

الطبيب الأوّل الذي شخّص جراح الأب، هو طبيب الدير الذي كلّفه الرئيس المحلّيّ، باستيضاح هل الجراح تعرّض حياة الجريح للخطر، فاكتفى بفحصٍ سطحيٍّ.

ثمّ كلّف الرئيس الإقليميّ الدكتور "رومانيلّي" (Romanelli)، الذي كان رئيس مستشفى مدينة "بارليتّا" (Barletta)، وكان يختلف إلى الدير الكبّوشيّ في المدينة، حيث

التقى الأب "بينيديتّو"، ثمّ التقى الأب "أغوستينو"، اللذَين أصبحا مرشدَيْ الأب پيّو الروحيّيْن. وقد فحص الدكتور رومانيلّي الأب پيّو، الذي رآه للمرّة الأولى في ديره، صباح يوم ١٩١٩/٥/١٦، وأعاد فحصه فحصًا دقيقًا آخر. قبل مغادرته، ثمّ زاره أربع مرّاتٍ، وفي كلّ مرّةٍ، كان يُعيد فحصَه. وقد أجرى فحصه الأخير له في شهر تمّوز ١٩٢٠. وإثر فحصِه الأوّل، تريّث خمسة عشر يومًا، ممعنًا الفكر مليًّا، مستغرقًا في روز كلّ الاحتمالات الطبّيّة، وجاء في تقريره:

« - جراح يديه مغطّاةٌ بطبقةٍ رقيقةٍ ضاربةٍ إلى الحُمرة، ولا يلاحظ فيها ورمٌ أو التهابٌ أو تقيّحٌ. أعتقد، بل أجزم أنّ تلك الجراح ليست سطحيّةً، فحين ضغطتُها بيدي، أحسستُ بفراغٍ يخترق كلّ سماكة يده. ولكن لم أستطع تبيّن هل ستتلاقى أصابعي في جانبي الجرح، لأنّ ذلك يستلزم ضغطًا شديدًا يسبّب للجريح ألمًا حادًّا. وقد أخضعتُه لهذه الاختبار، مرّةً صباحًا، ومرّةً مساءً، وفي المرّتَيْن كانت الحال ذاتها.

- جراح القدمَيْن مماثلَةٌ لجراح اليدَيْن. ولكنّ سماكة القدَمَيْن، لم تمكّنّي من اختبار ما اختبرتُه على اليدَيْن.

- أمّا جرح الجنب فهو شقٌّ واضحٌ، موازٍ للأضلاع، طوله سبعةٌ إلى ثمانية سنتمترات، أدّى إلى قطع الأنسجة الرخوة، بسماكة يصعب قياسها، وهي تنزف بغزارةٍ، وللدم النازف مواصفات الدم الشريانيّ. وتدلّ حوافّ الجرح أنّ الجرح ليس سطحيًّا.

- الأنسجة المحيطة بالجراح لا تُظهر أيّ التهابٍ، وأدنى لمسةٍ تؤلم.

- قمتُ بزيارة الأب پيّو خمس مرّاتٍ، في غضون خمسة عشر شهرًا. ومع أنّي لحظتُ تطوّراتٍ طفيفةً، لم أستطع تحديد طبيعة الجراح تحديدًا دقيقًا».

ثمّ استُدعي الدكتور "بنيامي" (Bignami)، من روما، وخُيِّل إليه أنّ اليود القديم الذي يدهن به الأب پيّو جراحه بغية تخفيف النزف، هو أداة إحداث الجراح، فمنعه

من استخدام اليود، وأبعده عنه، ودهن الجراح بمرهمٍ، كان واثقًا أنّه سيؤدّي إلى لأم الجراح، وضمّدها بعنايةٍ، وختم الضماد، ومنع لمسها إلى أن يعود ويفكّها بنفسه، منعًا لما قد يقوم به الرهبان من شعوذاتٍ، متخيّلًا قدرة هذه التدابير الاحتياطيّة على فضح الخدعة التي أحدثت الجراح. ولكنّه فوجئ، بعد انقضاء عشرات الأيّام، إذْ تبيّن أنّ الجراح لم تلتئم، ولم تكفّ عن النزف، ولم تلتهب، ولم تتقيّح.

وكان لا بدّ من أبحاثٍ أخرى، فأُخضِع الراهب الضحيّة لشتّى الفحوص الدقيقة، والتحاليل المتأنّية، لكلّ أعضائه. وللغرابة، لم يُلحظ أيّ أثرٍ لإصابةٍ رئويّةٍ قديمةٍ، ولا لعلّةٍ عضويّةٍ، أو نفسيّةٍ، أو عصبيّةٍ، واقتصرت تقارير الأطبّاء على عباراتٍ مبهمةٍ، لا تعني شيئًا.

وأخيرًا، جاء دور الدكتور الجرّاح "جيورجو فيستا" (Festa)، الذي جاء، بادئ الأمر، حَذِرًا، مرتابًا، على غرار زملائه. ولكنّه كان صاحب رأيٍ حرٍّ، ويمتلك من النزاهة والتواضع، ما يجعله يضحّي بالنظريّات على مذبح الوقائع. ولم يعامل پادري پيّو، على غرار زملائه، على أنّه حالةٌ مرضيّةٌ، بل عامله على أنّه كائنٌ حيٌّ واعٍ. وبعد إجرائه للعديد من الفحوص، التي لم تقلَّ دقّةً عن فحوص زملائه، بل فاقتها دقّةً، لم يتحرّج من الاعتراف، بأنّ جراح پادري پيّو تفلت من نطاق العلم وإطاره. وقد ولّدت لديه رقّةُ الكاهن الجريح، وعذوبتُه، وتواضعه وصبره، تقديرًا شخصيًّا صافيًا له، وسرعان ما وثّقت علاقات صداقةٍ منيعةٍ بين الرجلَيْن.

وأسهم تقرير الدكتور فيستا النّزيه، المتحرّر من الأحكام المسبّقة، ومن الخضوع لأيّة نظريّاتٍ سوى الاعتراف بالواقع الصريح، في تهدئة مخاوف الدوائر الڤاتيكانيّة، ورؤساء الأب البعيدين عنه، ولا علاقة لهم مباشرةً به.

في هذه الأثناء كان الراهب المسكين القدّيس، قد تعرّض على امتداد سنتَيْن، لما تعرّض له يسوع، ليلةَ محاكمته، من مهانةٍ، وسخريّةٍ، ووصْمة جنونٍ. غير أنّ تلك التجارب والمِحَن لم تفتَّ من عضده، ولم تفلح في تفتير نار غيرته الرسوليّة، فكتب، يوم ٢٠/١١/١٩٢١، إلى مرشده: "إنّ حبّ الله والقريب يلتهمني... لقد عملتُ، وأريد أن أعمل، صلّيتُ وأريد أن أصلّي، سهرتُ وأريد أن أسهر، بكيتُ وأريد الاستمرار في البكاء، من أجل إخوتي في المنفى. أعلم، وأُدرك أنّ هذا قليلٌ، ولكن هذا ما أقوى عليه".

وكم كانت هذه الأقوال الشاهدة على تواضعه السحيق، وعلى توازنه النفسيّ بعيدةً عن نفوس أساقفةٍ، وكرادلةٍ، ومحقّقين كنسيّين، طمست الكبرياء والأنانيّة ضمائرَهم، وأفسدت نفوسهم وقلوبهم وعقولهم. ولا غرابة في ذلك، فللمحبّة والخير أعداءٌ لا يستسلمون. لأنّ أمير الشرّ دائبٌ على هلاك النّفوس، من خلال خدّام الله الخونة، الذين لم يَعُدْ لهم خبزُ الحياة غذاءً وقوّةً، ومعين منعةٍ.

وفي مطلع عام ١٩٢١، اهتبل أعداء الأب پيّو هؤلاء مناسبة وفاة البابا بينيدكتس الخامس عشر، الذي كان قد أزرى بكلّ افتراءاتهم، وأعلن تقديره الثابت للرّاهب المصلوب، وجهدوا في استمالة خلفه، البابا پيّوس الحادي عشر، فأخفوا عنه كلّ التقارير الطبّيّة التي أكّدت فضائل الأب پيّو، وواقع سمات الصلب، التي أثبتتها أسماء كبرى في عالم الطبّ أمثال "رومانيللي"، و"فيستا"، وأساقفةٍ كبّوشيّين، أمثال "كنكالي" (Kencaly)، أُسقف "سيملا" في الهند، و"زوكيتّي" (Zucchetti)، رئيس أساقفة "تريبيسوندا" (Trebisonda) في تركيّا، والأب الفاضل "لويجي بيزي" (L. Bezi)، وأبرزوا تقارير خصومه التي أملتها كبرياء بعضهم، مثل الأب جيميلّي، وغيره آخرين، أو التشكّك العلميّ، مثل حال الدكتور "بنيامي".

وبما أنّه تعذّر فرض عقوباتٍ تأديبيّةٍ على الراهب الضحيّة، الذي لم يكتب، ولم يعلن شيئًا، مخالفًا للإيمان والعقيدة المسيحيّة، استغلّ الأسقف غالياردي صداقاتٍ قديمةً مع البابا المنتخب حديثًا، ومع أمين سرّه، ومع كرادلةٍ تربطهم به وشائج صداقةٍ، وقرّروا العمل معًا، على محو ذكر الأب پيّو، بفرض قيودٍ على نشاطه الراعويّ، ولجم الاندفاع الشعبيّ نحوه. فأصدر الكرسيّ الرسوليّ توصيةً بلّغها، في ١٩٢٢/٦/٢، إلى رئيس الجمعيّة الكبّوشيّة، تقتضي بكبح تيّار تكريم پادري پيّو الآخذ في التكاثف والإفراط، والتزام الحذر الشديد، بشأن الأحداث فائقة الطبيعة، المنسوبة إليه.

وتضمّنت بنود التوصية الڤاتيكانيّة:

«- ألّا يقيم الأب پيّو القدّاس في مواعيد محدّدةٍ معروفةٍ، بل إقامتها اعتباطيًّا، وفرديًّا، وبلا حضورٍ، في أوقاتٍ غير معروفةٍ، والأفضل أن تُقام فجرًا.

- أن يُمنع من مباركة الشعب.

- ألّا يُسمَح لأحدٍ بمشاهدة سِمات صلبه "المزعومة"، وتقبيلها، لأيّ سببٍ.

- أن يُنقل من سان جُوڤانّي رُتونّدو إلى ديرٍ آخر، ناءٍ.

- منعه من الردّ على رسائل، تلتمس منه نصائح، وإرشاداتٍ، أو نِعَمًا.

- منعه من مراسلة أحدٍ سوى ذويه، وبإذن رؤسائه.

- تغيير مرشده الروحيّ، الأب بينيديتّو، الذي لم يستحسن الكرسيّ الرسوليّ إرشاده».

كان لهذه المتطلّبات الموغلة في القسوة والظلم، وغير المتوقّعة، وقع قنبلةٍ، ولكم شقّ على الأب پيّو التعبير عن حزنه ودهشته، بعد أن قُصّت كلّ جوانحه، وجُرِّد من أدوات رسالته الكهنوتيّة، وحتّى من مراسلة إخوته الرهبان.

ولم يخش رئيسه الإقليميّ، في منطقة "فوجّا"، من الإيضاح في رسالةٍ إلى الرئيس

العامّ على الجمعيّة، أنّ إقصاء الأب پيّو عن تكريم الجماهير هي نافلةٌ، فالأب پيّو بفطرته، ينفر من التظاهر، ولا رغبة له إلّا في شفاء النفوس والعمل على خلاصها، ومع ذلك، أكّد تنفيذها، في الحال.

أمّا نقله إلى أيّ ديرٍ آخر في إيطاليا، فلا طائل منه، إذ إنّ شهرته في شمالي البلاد، وفي شرقها وفي غربها هي أوسع انتشارًا، وتتخطّى حدود إيطاليا، فضلًا عن أنّ تضاريس سان جُوڤانّي الوعرة، والمغمورة بالثلج، في معظم أيّام السنة، تجعل ديره هو الأنسب، للحدّ من تدفّق الجماهير نحوه.

وفيما كان الأب پيّو قابعًا، سجينًا، معزولًا عن العالم أجمع، استمرّ أبالسة الخبث والمكر، يجهدون في القضاء على ضحيّتهم قضاءً لا قيامة منه. وقاد هذه الحملة النكراء أسقف الرعيّة، المطران "غالياردي"، وتمادى في بثّ سمومه. وشارك في مجمعٍ، ضمّ العديد من الكرادلة والأساقفة، وأمعن في اختلاق رواياتٍ لا أساس لها. وبلغت به القِحة، وجرأة البُهتان أن أكّد، شافعًا تأكيده بقسمٍ، مشاهدته، بعينَيْه، الأب پيّو: لمّا زاره في صومعته – التي لم تحدث قطّ – يتبرّج، ويدّهن بمساحيق التجميل، ويتعطّر. وأكّد أيضًا، أنّه يستخدم زجاجة حامض النتريك، كي يصطنع سمات الصلب، ويبخّ عليها عطرًا كي تنبعث منها روائح زكيّةٌ. واستخلص أنّ الشيطان يسكنه، وأنّ إخوته الرهبان، في الدير، عصابة احتيالٍ. وأشاع فريةً أُخرى، ادّعى فيها أنّ ثلاثةً من الرهبان الكبّوشيّين، في ذلك الدير، تقاتلوا حتّى الدم، بالسلاح الأبيض، وبسلاحٍ ناريٍّ، من أجل اقتسام مبلغ أربع مئة ألف فرنك، كان الأب پيّو قد جمعها. وقد دفع هذا النبأ المريع الكردينال "مرّي دلْ ڤال" (Merry Del Val)، إلى مراسلة الرئيس العامّ للجمعيّة الكبّوشيّة، الذي كلّف مستشارًا، يثق بحنكته ونزاهته بتحرّي الأمر بدقّةٍ قصوى. وقدم المستشار إلى سان جُوڤانّي رُتونّدو، واستنطق مفوّض الشرطة المحلّيّة، ومعظم سكّان

القرية، ودقّق في سجلّات الدير، وحساباته، وأفضت تحقيقاته إلى قناعةٍ مطلقةٍ، ببطلان رواية الأُسقف "غالياردي"، وخلوّها من أيّ واقعٍ تستند عليه. واتّضح له، بما لا يدع للريبة مكانًا، أنّها مجرد فِريةٍ، اختلقها الأُسقف بقصد تشويه سمعة راهبٍ قدّيسٍ، وبغية إبعاد رعيّته عن الدير الكبّوشيّ وكنيسته. ولكن، بما أنّ تلك الشائعة، كانت قد سرت، وأشاعت الشكوك والفضائح، ارتأى مسؤولون الحدّ من شرّها، بإقصاء الأب پيّو عن ديره، وأوعزوا إلى الرئيس العامّ على الجمعيّة الكبّوشيّة، بالإسراع في تنفيذ توصية الإبعاد.

ولكنّ الرئيس الكبّوشيّ، كان أوفر حكمةً من رؤسائه المغرَّرين، وأبعد رؤيةً، وكان واثقًا أنّ إبعاد الأب پيّو، سيوقظ ثورةً شعواء في منطقة "فوجّا"، فضلًا عن إلحاقه أذًى بسمعة الكنيسة، ويُسهم في تأكيد الافتراءات. فاستخدم كنوز حكمته، وأفشل مكيدة الأُسقف "غالياردي"، وأطاح بوساوس الكرسيّ الرسوليّ، المفتقرة إلى سندٍ يزكّيها.

في هذه الأثناء، ما انفكّت الحياة في دير القدّيسة مريم، سيّدة النِعَم، تندرج في سياقها الطبيعيّ، فكان الأب پيّو يقيم القدّاس باكرًا جدًّا، وبلا حضورٍ، ويمارس الرسالة الوحيدة التي لم تُنزَع منه، رسالة سماع الاعترافات، وظلّ دائبًا على تحويل النفوس وتقديسها.

وفي نهاية السنة احتُفل، في كاپيلّا الدير، بحدَثٍ مؤثّرٍ، تمثّل في ارتداء نائبٍ إيطاليٍّ زيّ النظام الفرنسيسكانيّ الثالث، وكان إرشاد الأب پيّو قد اقتاده إلى هذا القرار.

وكانت أبرز المهتديات، على يده، في تلك الحقبة، الآنسة "ماريّا پايْل" (Pyle)، وهي ثريّةٌ أميركيّةٌ، كَلِفةٌ بالسفر، التقت في روما المربّية الشهيرة "ماريّا مونتسّوري" (Montessori)، التي أقنعتها باعتناق الكاثوليكيّة. وذات يومٍ، سمعت عمّا يحدث في

سان جُوڤانيّ رُتونّدو، فقصدت ديره، وشهدت قدّاس الأب پيّو الذي خضّ كيانها، وأثّر فيها أبلغ أثرٍ، فقرّرت الاستقرار في تلك القرية التائهة في جنوب إيطاليا، وابتنت بيتًا فسيحًا، على بعد مئة مترٍ من الدير، ودأبت على استقبال الحجّاج الأجانب فيه، الذين لا يجدون مأوى في القرية. وفي هذا البيت استقبلت والد الأب پيّو ووالدته، عندما شاخا، ورغبا في قضاء أيّامهما الأخيرة، والموت قريبًا من ابنهما القدّيس.

وفضلًا عن ذلك، كانت تشغّل أُرغن كاپيلّا الدير، وتدير جوقة الترتيل، أثناء قدّاس الأحد.

وقد مكثت في ذلك الدير حتّى وفاتها، يوم ١٩٦٩/٤/٢٦، سبعةَ أشهرٍ عقب وفاة الراهب القدّيس.

الثّريّة الأميركيّة "ماريّا پايْل" (Pyle)

عدوّ پادري پيو الأشدّ شراسةً: الأب أوغستينو جيميلّي

"أسوأ أعداء الكهنة، هم الكهنة"
(القدّيس ڤنسان دي پول)

ربّما أثّرت الافتراءات الحقيرة التي دسّها الأُسقف غالياردي، على بعض الدوائر الڤاتيكانيّة، وظلّت موضع ريبةٍ لدى كرادلةٍ كثُرٍ.

غير أنّ السهم الأشدّ قدرةً على النفاذ إلى القناعات، هي التي أطلقها كاهنٌ كان يحتلّ مقامًا رفيعًا في أذهان رجال الكنيسة، وحتّى في ذهن البابا پيّوس الحادي عشر، الذي كان تسنّم آنذاك الكرسيّ الرسوليّ، وهو الأب "أغوستينو جيميلّي"، الذي بعد أن كان، في شبابه، ماسونيًّا مناوئًا للدين، ومناضلًا في الحزب الاشتراكيّ الإيطاليّ، تخرّج طبيبًا وجرّاحًا، وارتدّ إلى الكاثوليكيّة، وفي سنّ الخامسة والعشرين، انتمى إلى الجمعيّة اليسوعيّة، وتخصّص في علم الأمراض النفسيّة والعصبيّة، وتوغّل في دراسة القضايا الصوفيّة، وأولى اهتمامًا بارزًا بمعجزات لورد، ودافع عن طابعها فائق الطبيعة، وكان من مؤسّسي الجامعة الكاثوليكيّة في ميلانو، حيث التقى رئيس أساقفة المدينة، "أكيلي راتّي"، الذي أصبح، لاحقًا، البابا پيّوس الحادي عشر، وعقد معه علاقات صداقةٍ، وأضحى مستشار الكرسيّ الرسوليّ، وصاحب الحكم الراجح. وربّما كان عالمًا، غير أنّ العلم، إن لم ترشده المحبّة، ويضبطه التواضع، غالبًا، ما يصبح قاتلًا.

فبعد أن تعاقب على فحص جراح الأب پيّو، أطبّاء من مختلف الاتّجاهات الفلسفيّة، وتباينت أحكامهم، انبرى الأب جيميلّي، من أجل إصدار الحكم الفصل

القاطع. ولكنّه جاء بدافع الصَلَف، وبحكمٍ مسبّقٍ، ويقينٍ مبنيٍّ على ادّعاء معرفته ما لا يعرفه الآخرون، وقدرته على شفاء الجراح التي غدت أسطورةً، عازمًا فضح زيفها، ونزع صفة القدسيّة عنها.

وفي مطلع عام ١٩٢٠، كتب الأب جيميلّي إلى رئيس دير الكبّوشيّين الإقليميّ في "فوجّا"، مُعربًا عن رغبته في فحص جراح الأب پيّو، فأجابه أنّ الرئاسة الكبّوشيّة العامّة، بعد أن خضع الأب پيّو لسلسلة فحوصاتٍ تضاربت نتائجها، وأرهقت الراهب، قرّرت منع أيّ فحصٍ آخر، إلّا بموافقةٍ خطّيّةٍ من الرئيس العامّ على الجمعيّة، وموافقةٍ خطّيّةٍ من الكرسيّ الرسوليّ. ولكنّ الأب جيميلّي، أوهمته كبرياؤه أنّه أعلى من كلّ قرارات الرؤساء، واستهان بالاعتراض، وأصرّ على الإدلاء برأيه العلميّ، بأيّ ثمنٍ، وادّعى أنّه راغبٌ في التقاء الأب پيّو، ومباحثته في أمورٍ شخصيّةٍ وروحيّةٍ، فحسب، فسُمِح له بالزيارة.

وصل الأب جيميلّي إلى دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، مساء ١٩٢٠/٤/١٧، مع كهنةٍ آخرين قادمين من دير "فوجّا". كان الوقت ليلًا، والأب پيّو في الكنيسة يصلّي، فاقترح رئيس الدير إرجاء اللقاء إلى صباح الغد. وروى إيمانويل بروناتّو ابن الأب پيّو الروحيّ، الشاهد على ما جرى، في صباح ٤/١٨ الباكر: "صادف الأب جيميلّي پادري پيّو في ممرٍّ بالدير، وهو في طريقه إلى السكرستيّا، وكنّا نتبعهما أنا والرئيس، على بعد خطوتين منهما. لم يستغرق حديثهما أكثر من ثلاث إلى أربع دقائق. وبعد عبارات مجاملةٍ وجيزةٍ، قال الأب جيميلّي:

- يا پادري پيّو، أنا جئت كي أُجري فحصًا سريريًّا على جراحك.
- هل لديك إذنٌ خطّيٌّ بذلك؟
- خطّيٌّ، لا، ولكن...
- في هذه الحال، لستُ مخوّلًا بإظهار جراحي لك.

اكتفى بهذا الجواب، وواصل طريقه إلى الكنيسة، استعدادًا لإقامة القدّاس. صُدِم الأب جيميلّي، وفيما كان الأب پيّو يبتعد، قال: "حسنٌ، يا پادري پيّو، للحديث صلةٌ". وما لبث أن غادر الدير.

ولكان الأمر انتهى عند هذا الحدّ، لو لم يُعلِن الأب جيميلّي، لاحقًا، مرّاتٍ عديدةً، أنّه فحص جراح الأب پيّو، وتبيّن أنّها نتيجة هستيريا، ولمّح إلى إمكانيّة كونها عملًا إراديًّا.

المضحك، بل بالأحرى قمّة الرياء، في هذا الأمر، أنّ الأب جيميلّي كان قد دوّن في "سجلّ الزائرين"، في دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، استجابةً لطلب رئيس الدير، انطباعه عن الزيارة: "نشهد كلّ يومٍ، أنّ الشجرة الفرنسيسكانيّة تؤتي ثمارًا جيّدةً. إنّ في ذلك عزاءً وتشجيعًا لمن يستمدّون غذاء حياةٍ من هذه الشجرة الرائعة".

ومع ذلك، دبّج الأب جيميلّي تقريرًا عن فحصه المزعوم لجراح الأب، وأعلن عمّا أملته عليه كبرياؤه المجروحة... ربّما أُخفيَ ذلك التقرير عندما فضح زيفه، غير أنّه، في وقته، ألحق بالراهب القدّيس عواقب كارثيّةً، وعقاباتٍ صارمةً ومهنيّةً، وكاد يدفع البابا بيّوس الحادي عشر، المنتخب حديثًا، والذي كان يخصّ الأب جيميلّي بتقديرٍ رفيعٍ، إلى حرمان الكنيسة من أحد أكبر قدّيسيها، ومن ألمع صوفيّي القرن العشرين.

غير أنّ ردّ فعل السلطات الڤاتيكانيّة، اتّسم بالحذر، فعيّنت أُسقفًا كان يتبوّأ مركزًا رفيعًا ومؤثّرًا، في دوائر الڤاتيكان، بصفة زائرٍ رسوليٍّ. فقدم إلى دير سان جُوڤانّي يوم ١٩٢٠/٥/٢٨، حيث أمضى يومين. وتحرّى سمات پادري پيّو، وكانت انطباعاته إيجابيّةً. خلّفت لديه بساطة الأب پيّو، وتقواه، وصدقه أبلغ أثرٍ. ومع ذلك، نصح بإجراء فحوصٍ طبّيّةٍ أوفر دقّةً وجدّيّةً.

وبعد شهرين، قدم إلى الدير مبعوثان، كان قد كلّفهما بهذه المهمّة البابا بينيدكتس الخامس عشر، قبل وفاته، وهما طبيبه الخاصّ الدكتور "باستينيلّي" (Bastinelli)، والأب "لويجي بيزي"، الذي كان من أقرب مستشاري البابا الراحل. وقد أمضيا، كلاهما، يوم ١٢ تمّوز ١٩٢٠، في محادثة پادري پيّو، وفحص سماته التي أثبتت لهما طابعها القدسيّ، فائق الطبيعة، ودحضت ادّعاءات الأب جيميلّي.

إثباتٌ آخر لهذا الطابع القدسيّ، جاء في شهادة أحد ألمع وجوه الجمعيّة الكبّوشيّة، الفيلسوف واللاهوتيّ، والقانونيّ الكنسيّ الضليع "روبيرتو دانوڤي دي بَسّانو" (Roberto da Nove di Bassano)، الذي، إثر زيارته الدير، بعث برسالةٍ إلى رئيسه قال فيها، إنّه قدم إليه مُكرهًا ومُرتابًا، بسبب ما كان يُشاع عن حضور پادري پيّو في أماكن مختلفةٍ في آنٍ واحدٍ، وقراءته كوامن الضمائر، والأشفية العجيبة، التي كانت تحدث بشفاعته، فكلّ ذلك، لم يكن يعني له شيئًا. غير أنّ ما لحظه في سلوك الأب پيّو من سكينة نفسٍ، وبساطةٍ، وتواضعٍ، أثّر فيه أبلغ أثرٍ، وكذلك الساعات الطوال التي كان ينفقها في كرسيّ الاعتراف، منصتًا بصبرٍ وأناةٍ واهتمامٍ إلى جموع القادمين من مختلف المناطق الإيطاليّة، ومن الخارج، بقصد التحدّث إليه، والبوح بهواجسهم، والتماس نصحه، ونيل بركته، وكم كان يصغي بصبرٍ وتعاطفٍ إلى روايات البؤس، وكم كان يواسي أوجاع النفوس البائسة المحتاجة إلى غوثٍ، وثقةٍ، وإيمانٍ، وسلامٍ.

ولحظ أيضًا، بإعجابٍ، طريقة تناوله، وجبة طعامه اليوميّة الوحيدة في قاعة طعام الإكليريكيّة الصغيرة، التي يتولّى إدارتها الروحيّة. وقوام وجبته خضارٌ مسلوقةٌ، وقليلٌ من الفاكهة في أوانها. ويضيف إليها، أحيانًا بيضة.

لا ريب أنّ الأب جيميلّي كان بقدرته رؤية كل ذلك، لو كان حسن النيّة، ولكنّه لم يشأ رؤيتها، لأنّه كان عازمًا على أن يكون "فيلسوف اضطهاد پادري پيّو"، وإثبات

تميّز علمه الشخصيّ. ولو كان صادقًا لاستطاع حضور قدّاس الأب پيّو، ورؤية جراح يديه العاريتين، والدم المنثال منهما. ومع أنّه لم يستطع فحصها سريريًّا، ظلّ يؤكّد لمسؤولي الڤاتيكان أنّه فحصها بدقّةٍ، وما انفكّ ينشر مقالاتٍ، يؤكّد من خلالها، أنّها هستيريّة المنشأ، على خلاف سمات القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ الحقيقيّة، مع أنّه لم يشاهدها، ولم يتولَّ أحدٌ فحصها في ذلك الزمن.

واتّفق أن التقى الأب جيميلّي الدكتور جيورجيو فيستا (Festa) في روما، وحاول إقناعه باستنتاجاته، عقب فحصٍ پسيكولوجيٍّ معمّقٍ – لم يقمْ به قطّ – واستخلص منه أنّه عملٌ هستيريٌّ مُفتعَلٌ. غير أن الدكتور فيستا الذي كان قد فحص مرارًا جراح الأب پيّو، بيّن خطل استنتاجاته، من نظرةٍ طبّيّةٍ صرفةٍ. فالجرح المفتَعَل أو الناتج عن حادثٍ، يتطوّر، فيلتحم أو يتقيّح، في حين أنّ جراح الأب پيّو لم يطرأ عليها أيّ تغييرٍ، وهذا ما لا يحدث في الحالات المرضيّة.

وما إن شعر الأب جيميلّي أنّ استنتاجاته واهيةٌ، وعاجزةٌ عن الصمود في وجه التحليل الطبّيّ، تذرّع بارتباطه بمواعيد سابقةٍ، وسارع إلى المغادرة، واعدًا بالعودة إلى روما، واستئناف نقاشهما على انفرادٍ، وفي جوٍّ هادئٍ. ومذّاك، أقلع عن الاتّصال بالدكتور فيستا، ولكنّه استمرّ في نشر مقالاتٍ، يميّز فيها بين السمات الحقيقيّة، والسمات الكاذبة، ملمحًا إلى الأب پيّو، وإن لم يسمّه، صراحةً.

وحتّى المجلّة اليسوعيّة "الحضارة الكاثوليكيّة" ذاتها (Civilta Cattolica)، التي كان الأب جيميلّي ينشر فيها مقالاته، اضطرّت بدافع الأمانة، أن تحذّر قرّاءها من مغبّة التسرّع في "دعم افتراضات الأب العلّامة جيميلّي".

وانبرى الدكتور فيستا لدحض ادّعاءات الأب جيميلّي، في بحثٍ مطوّلٍ، مدعّمٍ

بالبراهين العلميّة والطبّيّة، بعنوان: "أسرار العلم، وأنوار الإيمان. في ما يتعلّق بسمات الصّلب التي ظهرت على الأب پيّو دي پْيِترِلْشينا".

ومع ذلك، كان تأثير أحكام الأب جيميلّي من النفوذ، لدى السلطات الڤاتيكانيّة، بحيث أدّى إلى اضطهاد الراهب القدّيس أعتى اضطهادٍ، وأشدّه ظلمًا، وكبّده أشدّ العقوبات النفسيّة قسوةً، وسجنه، وأقصاه عن إخوته وأصدقائه، وخاصّة عن النفوس المحتاجة إليه.

"في الكتب نبحَث عن الله، وفي الصلاة نجده"

إدانةٌ كنسيّةٌ، ومقاومةٌ شعبيّةٌ عنيدةٌ

"ما أكثر الذين أُعلِنت قداستُهم، بعدما كان الكرسيّ الرسوليّ قد هاجمهم وأدانهم!"

(البابا پيّوس الثاني عشر)

اضطهدت الكنيسة قدّيسها، پادري پيّو، أقسى اضطهادٍ، وتحمّل هو اضطهاداتها من أجل تقديسها.

فالتدابير الزجريّة التي كانت الدوائر الڤاتيكانيّة قد اتّخذتها بحقّ پادري پيّو، توقّع أعداء الكاهن القدّيس إتباعها بتدابير أخرى، أشدّ قسوةً، ولكن لم يتوقّع أحدٌ مدى قسوتها ورهبتها.

مضت أشهر عام **١٩٢٣** بهدوءٍ، وتمكّن الأب پيّو من الاحتفال بعيد شفيعه بسكونٍ وفرحٍ، وقدمت مواكب المهنّئين إلى الدير من مختلف القرى المجاورة، وانهمرت عليه مئات برقيّات تهنئةٍ من كلّ أرجاء إيطاليا. وحملت إحدى البرقيّات توقيع الكردينال "سيري" (Siri)، الذي حرص على إعلان دعمه وتقديره للراهب القدّيس، قُبَيْل التئام المجمع المقدّس، بقصد اتّخاذ قرارٍ بشأنه.

ويوم **١٩٢٣/٥/٣١**، نشرت صحيفة الڤاتيكان الرسميّة تحذيرًا جاء فيه، أنّ المجمع المقدّس، أجرى تحقيقًا حول ما يُنسَب إلى پادري پيّو، وقد أثبت التحقيق انتفاء أيّ فائق الطبيعة من ظاهرته، وحرّض المؤمنين على التعامل مع الظاهرة، وفقًا لذلك.

لم يُشكَّكْ بسلوك الراهب المضطهد، ولم تُفرَض عليه عقوباتٌ كنسيّةٌ. غير أنّ ما سُمِّي تحقيقًا، اقتصر على تقارير الأب جيميلّي الكيديّة، وعلى افتراضاته الشخصيّة

التي أملتها كبرياؤه، وعلى فحوصٍ لم تتمّ، ولا تمتّ إلى الواقع بصلةٍ، وعلى افتراءات الأسقف غالياردي وعصابته الفاسدة، في حين أُغفلت تقارير الأطبّاء النزهاء العلميّة، الموثوقة، والموزونة بدقّةٍ.

وبهذه المناسبة، شدّد المجمع على تدابيره السابقة، القاضية بمنع الأب پيّو إقامة قداديس في مواعيد ثابتةٍ، بحضور جمهورٍ، على أن يقتصر على قدّاسٍ فرديٍّ في كاپيلّا، لا يُسمَح لأحدٍ بحضوره. وكرّر المجمع مطلبه بنقل الأب پيّو إلى ديرٍ آخر ناءٍ، لا يُفصَح عن موقعه، أي وأْد الأب پيّو حيًّا.

ولمّا تلقّت رئاسة الدير هذه القرارات، دعا الرئيس رهبانه إلى اجتماعٍ، وتلاها على مسامعهم. وفي هذه الأثناء، سُمِع وقع خطوات الأب پيّو الثقيلة، قادمًا إلى قاعة الاجتماع، فتوقّف الرئيس عن التلاوة رأفةً به، ووضع الكتاب جانبًا، على طرف المنضدة. ووصل الأب پيّو، وتلقائيًّا، تناول الكتاب وفتحه حيث كان الرئيس يقرأ، وطالعه بصمتٍ، ولم تتحرّك عضلةٌ في وجهه. ثمّ أطبق الرسالة، وأخذ يتحدّث في مواضيع أخرى. إلى أن حان موعد القيلولة، فانسحب إلى صومعته، وواكبه أحد أبنائه الروحيّين المخلصين، وروى أنّ الأب حدّق، مدى لحظاتٍ، إلى السهل الممتدّ أمام ناظرَيْه، تحت أشعّة الشمس، ثمّ أغلق ستائر النافذة، والتفتَ، وأغرق في النحيب. حينئذٍ، ارتمى ابنه الروحيّ المرافق له، عند ركبتَيْه، هاتفًا: "أنت تعلم، يا أبتِ، كم نحن نحبّك، فعسى أن تكون محبّتنا عزاءً لنفسك". وردّ الأب بشيءٍ من الجفوة، والملامة:

"أَلا تفهم أنّني لستُ أبكي على ذاتي، فهذه القرارات تخفّف أتعابي، وتكسبني ثوابًا. ولكنّي أبكي حزنًا على النفوس التي ستُحرَم من شهادتي، وقد أقصاني عنها مَن كان عليهم واجب الذود عنها ودعمها".

فشرع رئيس الدير بتطبيق تعليمات الكرسيّ الرسوليّ، وأمر الأب پيّو بإقامة القدّاس في كاپيلّا الدير الداخليّة، التي كان بابها يُقفَل، لكي لا يدخل إليها أحدٌ. ومع

أنّ الأب پيّو تقبّل هذا التدبير طوعًا، بلا اعتراضٍ، اعترض أهالي القرية وجوارها، على حرمانهم من مشاركة "قدّيسهم" قدّاسه، الذي يخضّ نفوسهم ويغذّيها، ويرتقي بها إلى أسمى أجواء التقوى.

وسرعان ما احتشد أمام الدير نحو خمسة آلاف شخصٍ، بزعامة عمدة المدينة، ترافقهم فرقة بوّاقين، كي يسمع العالم كلّه اعتراضهم على الجريمة المرتكبة بحقّ قدّيسهم.

وأرسل العمدة باسم "لجنة سان جُوڤانّي رُتونّدو" برقيّةً إلى الدوائر الڤاتيكانيّة، تطالب برفع العقوبات الجائرة عن قدّيسهم.

وأعلن العمدة: "إذا حاول أحدٌ نقل الأب پيّو من هنا، سأستقيل من مركزي، وأقاتل معكم".

وفي محاولةٍ لتهدئة رَوْع الجموع، أعلن رئيس الدير عن نيّته نقل مطالبهم إلى رئيس الجمعيّة الأعلى، ولكنّ هذا الوعد لم يبدّد مخاوف الأهالي وغضبهم، ولم يليّن عزيمتهم على القتال. وأخيرًا، أطلّ الأب پيّو من نافذته بعينين قرّحتهما الدموع، وطمأنهم إلى أنّه ما برح معهم، ثمّ انحدر إلى الكنيسة وباركهم.

واضطرّ الرئيس المحلّيّ إلى الإبراق لرئيسه الإقليميّ، وإحاطته علمًا بأنّ الاستمرار في حجر پادري پيّو قد يسبّب مجازر، فسُمِح للأب بإقامة قدّاسٍ علنيٍّ، في اليوم التالي، وهدأت النفوس الهائجة.

وفي الأوّل من شهر تمّوز، انطلق عمدة سان جُوڤانّي رُتونّدو إلى الڤاتيكان، برفقة ممثّلين عن الجمعيّات والرابطات، بغية إجلاء الحقائق، والذود عن سمعة الأب پيّو وإخوانه الرهبان، وكشف النقاب عن مخازي الأُسقف وأعوانه المحظيّين. وقابل الوفد مسؤولين كبارًا في الڤاتيكان. وربّما توهّم العمدة ومرافقوه أنّ المجمع المقدّس، سيُصغي إلى مطالبهم، ويعمل ما يمليه الضمير والحقيقة.

وفي الواقع جرى نقيض ما توقّعوه، فقد استُدعي الرئيس العامّ على الجمعيّة

الكبّوشيّة إلى روما، وبُلِّغ واجب إبعاد پادري پيّو عن ديره إلى ديرٍ آخر، في مدينة "أنكونا" (Ancona)، التي تفصلها عن سان جُوڤانِّي مسافة ثلاث مئة كيلومترٍ. بُلِّغ هذا القرار يوم ١٩٢٣/٨/٨، وسرعان ما ذاع سرُّه، فأضرم ثورةً عارمةً. غير أنّ الأب پيّو كتب إلى رئيسه: "بصفتي ابنًا بارًّا للطاعة المقدّسة، سأخضع للأمر، ولن أفتح فمي".

ولكن ساوَرَته خشية ثورةٍ تُفضي إلى إراقة دماءٍ، فكتب إلى العمدة، وإلى ابنه الروحيّ "بروناتّو": إنّ أحداث الأيّام الأخيرة، أثّرت فيّ بعمقٍ، وأثارت مخافتي الشديدة من أن أكون، أنا، على غير إرادةٍ منّي، سبب أفعالٍ تُحزن مدينتي الحبيبة. أسأل الله أن يتكرّم ويبعد هذا الشرّ، بإنزاله أقسى إماتةٍ بي. وإذا كان قرار نقلي قد أُبرم، فأرجوكم اتّخاذ كلّ التدابير الكفيلة بتحقيق إرادة رؤسائي، فهي تمثّل لي مشيئة الله، التي أخضع لها خضوعًا أعمى. وسأذكر، أبدًا، في صلواتي المتواضعة، هذا الشعب السخيّ، طالبًا له السلام والبحبوحة. ودليلًا على إيثاري لهذه الأرض، سأعبّر لرؤسائي عن رغبتي بجعل عظامي تستريح في زاويةٍ من هذه الأرض. فليس لديّ وسيلةٌ أخرى للتعبير عن محبّتي لها".

هذا النص ما زال محفورًا في مدفن كنيسة سيّدة النِعَم، في سان جُوڤانِّي رُتونْدو، شاهدًا على تواضع الأب پيّو في غمرة الاضطهاد الذي كان ضحيّته.

تنفيذًا للأمر، أُوفد راهبٌ من مدينة "أنكونا"، كي يقتاد الأب پيّو إلى منفاه، فانبرى أهالي منطقة "فوجّا" بأجمعها، دفاعًا عن بقاء قدّيسهم وسطهم، ونصبوا المتاريس والحواجز، كي يمنعوا دخول أيّ غريبٍ إلى الدير، وانضمّ إليهم متطوّعون من مختلف المدن والقرى، وتناوبوا على السهر ليلًا ونهارًا. حينئذٍ، اقترح الراهب المكلّف باقتياد الأب پيّو إلى منفاه، اللجوء إلى حيلةٍ سخيفةٍ، تقضي بإخراجه في عربة نقلٍ بسيطةٍ، تقلّ

برميلين، أحدهما يحتوي نبيذًا، ويُحشر الأب في الآخر، ثمّ يُنقل إلى فوجّا في عربة نقلٍ عاديّةٍ مُغْفَلةٍ، إلى منفاه. غير أنّ رئيس الدير رفض بحزمٍ هذه الخدعة السمجة والمهينة.

تعذّر، إذن، إخراج الأب پيّو من ديره، وضاق أعداء پادري پيّو في الڤاتيكان ذرعًا، وشدّدوا الضغط على رئيس الجمعيّة الكبّوشيّة المقيم في روما، فطلب مؤازرة الداخليّة الإيطاليّة. وكلّفت الوزارة ضابط أمنٍ بارزًا، بإيجاد مخرجٍ من الأزمة، فقَدِم إلى سان جُوڤانيّ رُتونّدو، حيث لم يستطع إخفاء هويّته ومهمّته، عن المقاومين اليقظين، الذين كادوا يقضون عليه. فسارع بالعودة، وأوضح أن لا مخرج من هذه الأزمة، إلّا بنشر قوًى مسلّحةٍ عديدةٍ، محذّرًا من أنّ هذه العمليّة قد تُفضي إلى سفك أنهار دماءٍ، وإلى أوخم العواقب. وحينئذٍ، اضطرّ الرئيس الكبّوشيّ إلى الأمر بوقف نفي الأب پيّو حتّى أجلٍ مناسبٍ. عبارةٌ غامضةٌ لم تَعنِ إلغاء أمر النفي إرضاءً للمتآمرين، بل إرجاء تنفيذه، حؤولًا دون نشوب حربٍ أهليّةٍ. ويُرجَّح أنّه كان للكردينالَيْن "سيري" و"غسپاري" اللذين عرفا الأب پيّو عن كثبٍ، وأكبرا قداسته، يدٌ طولى وفعّالةٌ في هذا الحلّ، الذي جنّب إيطاليا حربًا أهليّةً، وجنّب الكنيسة كارثةً.

على كلّ حالٍ، لم يكن نفي پادري پيّو، لو حصل فعلًا، قادرًا على تحقيق مآرب المتآمرين عليه، فتكريم معظم الإيطاليّين للأب پيّو، كان أمنع من كلّ المؤامرات الخسيسة، ومن وهَن بعض المسؤولين الكنسيّين.

انتهى، إذن، عام ١٩٢٣ بهدوءٍ، وأقام رهبان سان جُوڤانيّ رُتونّدو صلوات شكرٍ وامتنانٍ، من جرّاء عبور المحنة النكراء التي هدّدت كيانهم. واستمرّ الهدوء الهشّ حتّى الأشهر الأولى من عام ١٩٢٤. فنيران مقت الفاسدين المتآمرين وحقدهم، لم تفتُر. وفي السادس من شهر نيسان، أُجبِر الوكيل العام للجمعيّة الكبّوشيّة على بعث رسالةٍ عامّةٍ إلى جميع الأديرة الكبّوشيّة، تمنع نشر أيّ شيءٍ عن پادري پيّو، وتوزيع صوره،

وتشجيع الحجّاج على زيارة ديره، وبالإجمال، التصرّف كأنْ لا وجود للأب پيّو، وكأنّ اسمه مُحي إلى الأبد، ولم يسمع أحدٌ به. فطلب الوكيل، أيضًا، أن تبقى هذه التعليمات سرّيّةً، بعيدةً عن التداول، وألّا تُتلى في اجتماعات الرهبان العامّة، بل أن يُبلَّغ بها، كلّ راهبٍ على انفرادٍ.

وبالإجمال، بدا أنّ الدوائر الرومانيّة المنحازة والمعادية لپادري پيّو بدافع مصالح خسيسةٍ، أو ممالأةً لأساقفةٍ فاسدين، وكهنةٍ صلِفين نافذين، لن تملّ من محاصرته ومقاومته، ولن تتذوّق طعمًا للراحة، حتّى تقضي عليه قضاءً نهائيًّا، وتمحو ذكراه إلى الأبد، ولكأنّ وجوده كان سوطًا يجلد ضمائرهم بلا هوادةٍ. فأوفدت في ١٩٢٤/٤/١٤، أحد أزلامها إلى دير القدّيسة مريم سيّدة النِعَم، مموِّهةً زيارته برغبته المزعومة في قضاء أيّام هدوءٍ وتأمّلٍ وخشوعٍ، استعدادًا لعيد الفصح، فيما كانت مهمّته استجواب جميع رهبان الدير فردًا فردًا، عن زميلهم المثير للبلبلة، وعن طريقة إقامته للقدّاس، وعن التقادم التي يتلقّاها هو، ويتلقّاها الدير، وعن الضيوف الذين يؤمّون الدير، وعن عدد الحجّاج، وتصرّفاتهم، وجوّ التوبة الذي يُشيعونه في محيطهم، وحرارة الحياة الروحيّة التي تجلّت أثناء أسبوع الآلام. وكان پادري پيّو قد مكث في كرسيّ الاعتراف، يوم الخميس العظيم، منذ الساعة الخامسة صباحًا حتّى الواحدة بعد الظهر. وقد أقبل على كراسي اعتراف الدير أكثر من ألف شخصٍ، ثم أقبل على مائدة الإفخارستيّا يوم عيد الفصح، أكثر من سبع مئةٍ مؤمنٍ. وكانت تلك هي الثمار الظاهرة التي آتتها حياةٌ روحيّةٌ ساميةٌ، دعمتها الظواهر الخارقة، التي كان الأب پيّو بؤرة إشعاعها.

ودوّن المبعوث تقريرًا واقعيًّا بما رأى، ولكنّ الذين أوفدوه بقصدٍ خبيثٍ، أبوا تصديقه، والأخذ بتقريره، وأصدروا، في ١٩٢٤/٧/٢٤، تحذيرًا جديدًا عطفوه على إنذارهم السابق، المؤرّخ في ١٩٢٣/٥/٣١، باسم المجمع المقدّس، وجاء فيه: "بعد أن تجمّعت لدى مجمعنا معلوماتٌ جديدةٌ من مصادر عديدةٍ موثوقةٍ، نرى من واجبنا

تحريض المؤمنين، مجدّدًا، بعباراتٍ أشدّ خطورةً، على الامتناع عن كلّ اتّصالٍ بالأب پيّو دي پْيِترِلْشينا".

هذه الإنذارات الصادرة عن أرفع موقعٍ كنسيٍّ أشاع الاضطراب حتّى في ضمائر كبّوشيّين عديدين، ومن المسؤولين الراعويّين، الذين لم يروا قطّ، پادري پيّو، ولا سمعوا عنه من مصادر قريبةٍ منه، وخبيرةٍ بحقيقته، وصعب عليهم الشكّ بصدقها، حتّى إنّ أساقفة رعايا بعيدةٍ، وزّعت مناشير تتبنّى تحذير الكرسيّ الرسوليّ.

بيد أنّ هذه التحذيرات أخفقت في تعكير حياة الدير. وما انفكّ الأب پيّو يؤكّد أنّه لم يطلب السِمات، ولم يرغب فيها، بل طالما طلب من الربّ إخفاءها. ومن المؤكّد أنّه لم يزْدَهِ بها، يومًا، ومع ذلك، كانت هي شهادةً صارخةً على مشاركته آلام المصلوب، وأنّها، مع الكرامات الخارقة الأُخرى التي ميّزه بها الربّ، كانت وسيلةً إلى غوث الخطأة، وردّهم، وتحويلهم صوب الربّ.

ولم تكفّ آلاف الأفواه تلهج باسمه، وما انفكّ آلاف البشر، يتحرّقون توقًا إلى رؤيته، ولمسه، والاعتراف له بخطاياهم، ونيل بركته، والتماس شفاعته، مواجهةً، أو مراسلةً، أو برقيًّا، من أجل شفاء أمراضٍ مستعصيةٍ، انتهت إلى مرحلة اليأس والموت، وغالبًا ما يؤكّد استجابته، من خلال فوح عبير البنفسجٍ، وأريج الزهور العذبة، وغالبًا، ما تمّت أشفيةٌ معجزةٌ، أفردنا لها كتابًا ملحقًا بهذا الكتاب.

واتّفق، في تلك الفترة أنّه كان، ذات يومٍ، مستغرقًا في الصلاة أمام الهيكل، وعكّر خشوعَه صوتٌ يردّد بلا هوادةٍ: "پادري پيّو بفلسيْن، پادري پيّو بفلسَيْن". وبعد لأيٍ أطلّ من نافذةٍ، فرأى ولدًا يبيع صور الأب پيّو، مجتذبًا الشارين بندائه هذا. وكان يطيب للكاهن القدّيس أن يروي هذه الحادثة لزائريه، ويعلّق عليها، بقوله: "ليت الجميع يعرفون قدري، كما يعرفه هذا الصبيّ: فلسَيْن".

الاضطهاد يزداد قسوةً، وتكوين هيئة دفاعٍ عن پادري پيو

فيما كان پادري پيّو ماضيًا في تصعُّده على معارج الكمال، والتواضع، والألم، والغوص في أعماق الحياة الروحيّة، كان رؤساؤه، بتحريضٍ من السلطات الكنسيّة، يُمعِنون في إذلاله وتهميشه، ولكأنّه مجرمٌ يجب سجنه، أو أبرص يتعيّن حجرُه.

فبتاريخ ١٩٢٥/٤/٢٢، بُلِّغ الأب پيّو رسالةً "سرّيّةً جدًّا" من رئيسه الإقليميّ، الذي وجّهها إلى رئيس ديره، مانعًا إطلاع أحدٍ عليها، سوى معرّف پادري پيّو الأب "أغوستينو". وتضمّنت تلك الرسالة أوامر تحدّ سلطاته الكهنوتيّة ونشاطاته الروحيّة، وتقضي بحصر سماعه الاعترافات على الرجال فقط، ومنعه من إطالة المكوث في الكنيسة حتّى لغاياتٍ تقويّةٍ، وقصرها على إقامة القدّاس، وسماع الاعترافات. وخُتِمت الرسالة بعبارةٍ تحذيريّةٍ، تقول: "إن لم ننفّذ، نحن، تلقائيًّا، هذه التدابير، فستفرضها روما، عاجلًا أو آجلًا، ومن المتوقّع أن تكون روما، في هذه المرّة، شديدة الصرامة".

من جانبٍ آخر، وفي الآن عينه، انبرى أصحاب ضمائر حيّةٍ، وبصيرةٍ نيّرةٍ، إلى منع إطفاء شعلة الروح القدسيّ، التي هبّت في دير القدّيسة مريم سيّدة النِعَم. وكان في طليعتهم إخوةٌ كبّوشيّون لم يطيقوا التشكيك المُغرِض والمجرم بمختار الله، والتشهير به، وإنزال عقوباتٍ جائرةٍ بحقّه.

استُهلّت هذه الحركة بمناسبة احتفالاتٍ كبرى، بذكرى مرور ثلاث مئة سنةٍ على وفاة الكبّوشيّ "الطوباويّ"، بينيديتّو پاسّيونيئيي" (B. Passionei). وكان قد توافد إلى المشاركة في هذه الذكرى كوكبة أساقفةٍ كبّوشيّين، من مختلف المدن الإيطاليّة. وبعد الغداء الذي أُقيم بتلك المناسبة، دار الحديث عن الحيف اللاحق بأخيهم پيّو، وروى أحدهم أنّه سمع المطران "غالياردي" وهو يؤكّد، خلال اجتماع كرادلةٍ وأساقفةٍ، أنّه

رأى بعينيه، الأب پيّو، في صومعته، يتبرّج، ويتعطّر، وأضاف: "تصوّروا، أنّ العقوبات التي فُرِضت على الراهبّ القدّيس، استندت على هذه التخرّصات السخيفة السمجة!".

وكلّف الأساقفة المجتمعون أحدهم بتحقيقٍ دقيقٍ يتناول سيرة الأُسقف "غالياردي"، ودوافعه إلى تشويه صورة الراهب القدّيس، وتطوّع كثيرون للدفاع عن الراهب القدّيس، ولإبراز نصاعة صورته التي فقأت عيون كهنةٍ وأحبارٍ فاسدين، فحاولوا طمس قذارة فسادهم بافتراءاتٍ، استنبطوها من داخلهم النتن.

وكان في طليعة الذائدين عن الأب پيّو، ابنه الروحيّ "إيمّانويلي بروناتّو" (Emmanuele Brunatto)، الذي انتشله الأب پيّو من مستنقعات المجون والضلال، فمكث إلى جانبه في الدير، يتغذّى من تقواه، ويسعى إلى اقتفاء مثاله، وأضحى من أشدّ المدافعين عنه اندفاعًا وجرأةً، وأصدر كتابًا عدّد فيه فضائله، وفعاله الخارقة، فلاقى أصداء بعيدة المدى.

وانضمّ إلى هيئة الدفاع عن پادري پيّو، في المرحلة الأولى، عمدة سان جُوڤانّي رُتوندو "فرنشيسكو موركالدي"، الذي طالب الكردينال "سْباريتي" (Sbaretti) أمين سرّ مجمع الكرسيّ الرسوليّ، بإجراء تحقيقٍ حول مخازي الأسقف "غالياردي" وأزلامه الكهنة، الذين رقّاهم كي يغطّوا على فضائحه، فبزّوه في ميدانها. وتطوّعت ثلّةٌ من المؤمنين، أنقياء النفوس، من أجل الشهادة للحقيقة.

وأسفرت التحقيقات الكنسيّة، وتلك التي قام بها أصدقاء الأب پيّو، عن ملفٍّ بانتهاكات الأسقف وأعوانه، والتي زخرت بتلالٍ من المعاصي الأخلاقيّة والدينيّة. وبالمقابل، تكوّن ملفٌّ مشرقٌ، ازدان بفضائل الأب پيّو، وبالبراهين عن سموّه الروحيّ، وتقديسه لكهنوته، وبكلّ ما استمطر عليه بركات الربّ، وكراماته الاستثنائيّة.

وتأبّط "إيمّانويلي بروناتّو" الملفّين اللذين أعدّ منهما عشرات النسخ، وقصد روما، برفقة الطوباويّ "دون أوريوني" (Orione)، ومعًا قابلا معظم الكرادلة المسؤولين عن الڤاتيكان، وسلّما كلًّا منهم نسخةً من الملفَّيْن.

كان من المتوقّع أن تفضي هذه التقارير الموثّقة إلى تحقيقٍ فوريّ، أو إلى إيفاد زائرٍ رسوليٍّ يتحرّى الحقائق. غير أنّ المذنب الأكبر، والمتّهم الرئيس، الأسقف غالياردي، استخدم نفوذه لدى كرادلةٍ، تربطه بهم علاقات صداقةٍ قديمةٍ، فأحجموا عن اتّخاذ تدابير حاسمةٍ، وماطلوا. وبما أنّ القرارات الهامّة، كانت تقتضي موافقة أكثريّة الكرادلة، تعذّر اتّخاذ هذه القرارات. وفي هذه الأثناء، هدّد الأساقفة المتّهمون وأزلامهم الشهودَ بانتقامٍ يقضي على مستقبلهم. وأثّرت هذه التعقيدات، وتشابك السلطات وتضاربها، وتصادم المصالح، إلى إرجاء التحقيق المطلوب سنةً ونصف سنةٍ.

وعمد المتّهِمون إلى الابتزاز: فقد كان أحد أنصار الأب پيّو قد وضع كتابًا عنه، وكلّف ناشرًا في ميلانو بنشره، قبل الحصول على إذن السلطات الكنسيّة، فاستحصل أحد خصوم الأب على أمرٍ بمنع نشر الكتاب، وطالب الناشر بغرامةٍ باهظةٍ. فاضطرّ شقيق الأب پيّو إلى بيع أرزاقه من أجل تسديد الغرامة.

ثمّ أصدر ناشرٌ آخر كتابًا، احتوى ما شاع عن مخازي أساقفةٍ وكهنةٍ، فسارع الكرسيّ الرسوليّ إلى منع توزيعه، ولكنّه لم يستطع الحؤول دون إفشاء الكثير من مخازي الأسقف غالياردي، وأسهبت الألسن في لوك سمعته، فطالب الأسقف سلطات الأمن المدنيّة بوضع حدٍّ لما وصفه بالصخب المعيب والمخزي واللاأخلاقيّ، الذي أثاره دير سيِّدة النعَم، منذ سنواتٍ، أي منذ ظهور سمات الصلب على پادري پيّو.

كلّ تلك التحرّكات تمّت في غفلةٍ عن الأب پيّو، الذي لم يُطلَع على شيءٍ منها.

وضاق المؤمنون ذرعًا بإرجاء رفع العقوبات عن قدّيسهم، فاحتشد جمعٌ غفيرٌ أمام الدير، مع فريق بوّاقين، بمناسبة عيد شفيع پادري پيّو، في الخامس من شهر أيّار ١٩٢٦، وانضمّ إلى الجمع كاهنان مع رعاياهما. وما إن أخذ الأُسقف غالياردي علمًا بذلك، حتّى سارع إلى نزع سلطة سماع الاعترافات عن الكاهنين.

وكان الصراع جليًّا وسافرًا بين فريقَيْن: بين الحقيقة والضلال، بين الخير والشرّ، بين النصاعة والقذارة، بين الطهر والفسق، بين النعمة والخطيئة.

وحينئذٍ، حدثت معجزة حضور پادري پيّو في مكانَيْن مختلفَيْن، وقرعت جرس بدء تحوّلٍ جذريٍّ.

فقد التأم مجمع الكرسيّ الرسوليّ، بحضور البابا پيّوس الحادي عشر، بقصد وضع حدٍّ لقضيّة پادري پيّو، وكان المجتمعون، والحبر الأعظم، مصمّمين على اتّخاذ قرارٍ حاسمٍ بمنع الراهب پيّو، من ممارسات سلطاته الكهنوتيّة كلّها، وحرمانه حتّى من إقامة القدّاس أمام حضورٍ، وسماع اعترافاتٍ، ومنح الأسرار كلّها.

وبغتةً، دخل راهبٌ كبّوشيٌّ، مُخفيًا يديْه داخل أكمام ثوبه، يعرج في مشيته. ولم يستطع أحدٌ إيقافه، حتّى ركع أمام الحبر الأعظم، وقبّل قدميه، ورجاه، بهذه العبارة: "يا صاحب القداسة، رأفةً بالكنيسة، لا تفعل ما أنت مُقدِمٌ عليه". ثمّ طلب بركة البابا، وقبّل قدمَيْه، ثانيةً، وخرج. واستحوذ الذهول على الكرادلة الملتئمين. وخرج بعضٌ منهم كي يستفسروا الحرّاس عمّا حدث، إذ كانوا قد تلقّوا أوامر صارمةً بمنع دخول أيٍّ كان إلى الاجتماع. ولكنّ الحرّاس أكّدوا أنّهم لم يشهدوا أحدًا يدخل أو يخرج.

وأعلن البابا إغلاق الجلسة، وأوعز إلى الكرادلة التزام الصمت عمّا حدث، وكلّف

الكردينال "سيجي"، بالسفر فورًا إلى دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، والتحقّق من تحرّكات پادري پيّو. ولكنّ رئيس الدير، وجميع الرهبان والإخوة، أكّدوا أنّ الأب پيّو، لم يخرج من الدير، منذ أربع سنواتٍ، أي منذ تدابير الكرسيّ الرسوليّ القمعيّة الأولى.

ربّما كان لهذه الحادثة، ولفضائح الأُسقف غالياردي وزمرته، التي انتشرت رائحتها المقزّزة، أثرٌ حاسمٌ، ودافعٌ إلى مباشرة تحقيقٍ نزيهٍ يكشف الحقيقة، ويعرّي الأكاذيب والافتراءات من زيفها، ويفضح دوافعها.

جلاء الحقيقة، واستمرار المحن

كُلِّف أُسقفٌ بالتحقيق، ورافقه العلمانيّ "إيمّانويلّي بروناتّو"، الذي فضح مخازي الأسقف "غالياردي" وكهنته الفاسدين، وكاهنٌ خبيرٌ من الكرسيّ الرسوليّ تولّي تدوين محاضر التحقيق.

رحّبت السلطات المدنيّة بالمحقّقين، وشجّعتهم على اجتثاث الفساد المتفشّي في فئةٍ من الإكليروس.

الأُسقف "غالياردي"، وحدَه، انتفض، لا سيّما لمّا علم بوجود "بروناتّو" في اللجنة المحقِّقة، وسارع إلى تذكير مسؤولي الدوائر الڤاتيكانيّة، أنّ ذلك الرجل، كان قد أُدين بجرائم احتيالٍ، وسُجِن. فردّوا عليه أنّهم مطّلعون على كلّ سيرة ماضيه، ويعرفون، أيضًا، أنّه تاب، وأنّه أقام في الدير حيث عاش عيشة الرهبان، والكنيسة ترى الإنسان في حاضره، لا في ماضيه.

امتدّ التحقيق من ٢٦ آذار إلى الخامس من نيسان ١٩٢٧، وأدلى شهودٌ كُثُرٌ، كهنةٌ، وعلمانيّون، ومسؤولون حكوميّون بشهاداتٍ مريعةٍ بحقّ الأُسقف غالياردي، والكهنة الدائرين في فلكه. ولكنّ الأُسقف أملى على كهنته نصًّا، يبرّرون به ذواتهم من التهم "الملفّقة"، ويلقون مسؤوليّة كلّ الاضطرابات التي حدثت على پادري پيّو، وعلى رهبان ديره، الذين روّجوا لمعجزاته الزائفة، تأكيدًا لقداسته المزعومة، بقصد استقطاب الجماهير، وكسب المال، على حساب الرعايا.

ولكنّ هذه المناورات اليائسة، لم تنفع الأُسقف وزمرته، في شيءٍ. فقد كان المحقّقون قد جمعوا أكوامًا من شهادات الإدانة الدامغة، التي لا تُفسح متّسعًا لطعنٍ أو لريبةٍ.

ثمّ أُجري تحقيقٌ آخر، بين ٢٩ أيلول و٩ تشرين الأوّل ١٩٢٧، بغاية تقديم خلاصةٍ عامّةٍ، توضع بتصرُّف الڤاتيكان، فسارع إلى معاقبة معظم الذين عملوا على تشويه صورة پادري پيّو، افتئاتًا. وقد أعلن، لاحقًا، العديد من هؤلاء ندمهم عن الإساءات التي ألحقوها بالراهب القدّيس، وبإخوانه رهبان الدير.

وكان لا بدّ أن يسود جوّ الهدوء والسلام في إكليروس سان جُوڤانّي رُتونّدو، لو لم يبقَ رأس الأفعى المتمثّل بالأسقف غاليااردي، بؤرة فسادٍ، لا تكفّ تبثّ ڤيروسات أكاذيبها، وتبخّ سمومها. كان اسمه قد دوّى في التحقيقات ومحاضرها، ولكنّ رئيس اللجنة لم يكن يملك سلطة استجواب أُسقفٍ، وكان لا بدّ من تكليف محقّقٍ مؤهّلٍ لتقييد الشيطان المنقضّ، بلا رحمةٍ، على پادري پيّو.

كانت الشكاوى من تصرُّفات الأُسقف "غاليااردي" المخزية، قد شرعت تنتشر، منذ عام ١٨٩٧، وأمل كثيرون أن تفضي الشكاوى إلى تحقيقٍ، يمهّد لإصلاح رئاسة الرعيّة. ولمّا تلكّأ الإصلاح، بادر سبعةٌ من الكهنة، أعضاء مجلس الأبرشيّة، إلى إرسال كتابٍ إلى المجمع المقدّس، عدّدوا فيه مثالب الأُسقف وانتهاكاته للمقدّسات، وإهماله واجباته الكهنوتيّة، وألحقوا الكتاب برسالةٍ مماثلةٍ إلى مجمع الكرادلة. فسارع الأُسقف إلى فصلهم جميعًا من رعاياهم، ونفيهم إلى مدينة ناپولي لقضاء رياضةٍ روحيّةٍ طويلةٍ.

وفي ١٩٢٨/٥/٢٢، كلّف مجمع الكرادلة المختصّ بشؤون الأساقفة، زائرًا رسوليًّا، وخوّلوه كلّ سلطات التحقيق بشأن الأُسقف "غاليااردي"، وطريقة إدارته لأبرشيّته. ولم يعسر على ذلك الزائر جمع أسباب إدانته سريعًا. وقدّم تقريره بعد عشرين يومًا. غير أنّ عقاب الأسقف الفاسد تلكّأ أكثر من سنةٍ، وفي هذه الأثناء ظلّ پادري پيّو رازحًا تحت عبء العقوبات، وفي وضع المُتّهم. ونشط فريقٌ من مناصري الأسقف الفاسد، في نشر تخرُّصاتٍ، واختلاق أكاذيب تشوّه صورة پادري پيّو، وإخوانه في الدير،

وبالمقابل انبرى الذائدون عن حياض الراهب المضطهَد وإخوانه، لإفشاء مخازي الأسقف وأعوانه.

وظلّ پادري پيّو بعيدًا عن تلك المعركة، يعاني مأساةً داخليّةً مُمِضّةً، لم يعلم بها سوى الله. وحفلت تلك الفترة بالمِحَن الطاحنة. وكانت والدته التي لم ترَه، منذ أربع سنواتٍ، قد حلّت ضيفةً، في البيت التي أعدّته الأميركيّة "ماريّا پايل" للحجّاج، الذين لا يجدون مأوًى، وسعدت بالبقاء بضعة أسابيع على مقربةٍ من ابنها. وطاب لها أن تحضر قدّاس عيد الميلاد، الذي احتفل به الأب پيّو، عند منتصف الليل، فقدمت إلى الكنيسة مُغفِلةً تدابير الحيطة من لسعات البرد، وأُصيبت بالتهابٍ رئويٍّ حادٍّ، ألزمها الفراش. ودأب ابنها الكاهن على عيادتها، كلّ يومٍ، حاملًا لها جسد الربّ. وفي الساعة السادسة من صباح الثالث من كانون الثاني ١٩٢٩، تلقّت من يد ابنها الأسرار الأخيرة، وفارقت الحياة، بين ذراعَيْه. وهو الذي كان قد صمد صمود جلمود صخرٍ في وجه العواصف، والمِحَن والآلام، والاضطهادات، انفجر نحيبًا، مردّدًا بوجعٍ: "أمّاه! آه يا ماما!".

وتصاعدت معاناته تفاقمًا وحدّةً، على امتداد عام ١٩٢٩. واقترن حزنه على فقدان أُمّه، بأوجاعٍ جسديّةٍ، وبمِحَنٍ نفسيّةٍ، جمعت إلى ارتيابه في سلامة سلوكه، خوفه من التردّي إلى القنوط. وإزاء ذلك، نصحه معرّفه بتدوين مشاعره الروحيّة، يومًا فيومًا. وامتثل لهذه النصيحة منذ مطلع شهر تمّوز من تلك السنة، وعكف على وصف حالته النفسيّة، وشكوكه وهواجسه. ولكنّه توقّف عن هذا التدوين، بعد الخامس عشر من شهر آب، من جرّاء تعب عينيه، ووهن فكره.

بيد أنّ ما دوّنه، في تلك الفترة القصيرة، عكس حدّة أوجاعه الجسديّة، ورهافة روحانيّته، كما يتجلّى من المقطع التالي:

"الفكرة الطاغية التي كانت تُحزنني فوق كلّ شيءٍ، هي عجزي عن إظهار مزيدٍ من عرفان الجميل والحبّ للعطف الإلهيّ، ولم يكن خوفي من جهنّم هو الذي يُريعني بقدر ما كان يُرعبني خلوّ الأرض من الحبّ. وكان ذلك يُذيقني، في كلّ لحظةٍ، ميتاتٍ بلا حدودٍ.

"ولمّا بلغتُ قمّة الاحتضار، ولامستُ الموت، وجدتُ العزاء والحياة. ففيما كنتُ ألتهم القربان المقدّس، غشى كلّ نفسي نورٌ، ورأيتُ، بوضوحٍ، الأمّ السماويّة، حاملةً طفلها يسوع على ذراعها، وقالا لي: "اِهدأ روعًا، فنحن معك. أنت خاصّتنا، ونحن لك".

"إثر ذلك، لم أرَ، بعدُ، شيئًا، وتلاشى كلّ شيءٍ، في الحال. وساد الهدوء والسكينة، ورافقتهما الآلام.

"سحابة ذلك اليوم، شعرتُ أنّني أسبح في محيطٍ من العذوبة، ومن حبّ الله والنفوس، يستعصي على الوصف.

"وعند غروب ذلك اليوم، عدتُ إلى حالتي الطبيعيّة، مع شعورٍ مُبهمٍ بقدوم عاصفةٍ آتيةٍ من بعيدٍ، ببطءٍ. الله أعلم بما سيحدث. وبما أنّني أستمدّ قوّتي ممّن يعزّيني، فأنا متأهّبٌ لتحمّل كلّ شيءٍ من أجل يسوع".

دفاعٌ متهوّرٌ، وعقابٌ قاتلٌ

تضاربُ الأحكام في الدوائر الڤاتيكانيّة، أخّر صدور قرارٍ حاسمٍ بشأن قضيّة پادري پيّو. ولم يُطِقْ صديق الكاهن القدّيس، ابنه الروحيّ "إيمّانويلّي بروناتّو"، الذي كان سريع الاشتعال ومندفعًا حتّى التهوّر، احتمالَ هذه المماطلة التي تُطيل أمد استشهاد الأب پيّو وآلامه.

وفي ربيع عام ١٩٢٩، طبع كتابًا بعنوان "رسالة إلى الكنيسة"، نشر فيه أسرارًا تفضح انتهاكات المطران "غالياردي"، وزمرته من الكهنة الفاسدين. وكان قد جمع، على امتداد سنواتٍ، وثائق عن هذه الفضائح، ووثّقها في خمس مئة صفحةٍ، عدّدت مخازي رئيس أبرشيّة "مونفريدونيا"، التي كانت محلّة سان جُوڤانّي رُتونّدو وديرها، خاضعَيْن لسلطة أسقفها، وكشفت أيضًا سلسلةً من المناورات والابتزازات الجارية في دوائر الڤاتيكان. ولكن لم يجسر أيّ ناشرٍ إيطاليٍّ على طبع ذلك الكتاب، خوفًا من وقوعه تحت أحكام الحظر، ومنع توزيعه، ومصادرته، وفرض غراماتٍ باهظةٍ على ناشره. فاضطرّ بروناتّو إلى طبع كتابه في ليبزيغ، بألمانيا. واكتفى، بدءًا بطبع ألف نسخةٍ، استخدمها أداة ضغطٍ، وأرسل منها نسخًا إلى شخصيّاتٍ دينيّةٍ ومدنيّةٍ مؤثّرةٍ، وإلى كرادلةٍ وأساقفةٍ، وزوّد بها الأساقفة الموالين لپادري پيّو.

إثر ذلك، كتب أُسقفٌ، كان يعرف پادري پيّو عن كثبٍ، وكان مقتنعًا بقداسته، إلى الكردينال "پيروزي"، المُعيَّن حديثًا، عضوًا في مجمع الكرادلة، وضمّنه شهاداتٍ تدين بشدّةٍ الأسقف "غالياردي"، وتؤكّد ما ورد في كتاب "بروناتّو". وبعد مضيّ شهرٍ، كان الأسقف "غالياردي"، قد عُزِل من منصبه، ونُزِعت منه شاراته وسلطاته الأُسقفيّة، واعتزل بين ذويه.

أصاب "بروناتّو"، إذن، هدفًا هامًّا، وأزاح أخطر جلّادي أبيه الروحيّ. ولكنّ همّ رفع القيود المفروضة على ذلك الكاهن القدّيس، ما انفكّ يؤرّقه، ويقضّ مضجعه.

في هذه الأثناء، كان الكردينال "غسپاري" (Gaspari)، أمين سرّ الكرسيّ الرسوليّ، قد ناقش مع البابا پيّوس الحادي عشر، محتوى كتاب "بروناتّو"، ورازا قدراته التفجيريّة. ومع ذلك، اكتفيا بفرض عقوباتٍ تأديبيّةٍ على بعض المرتكبين، ولم يمسّا بالقرارات القمعيّة المتّخذة بحقّ الكاهن پيّو، الضحيّة، لأنّ إلغاء قراراتٍ ڤاتيكانيّةٍ، أو تعديلها يستلزمان إجراءاتٍ معقّدةً، وبطيئةً، تُوازن بين صَوْن العقيدة، والحرص على النظام الكنسيّ.

ومرّةً أخرى، لم يُطِقْ بروناتّو استمرار الحيف الآخذ بخناق پادري پيّو، فأمعن في قذف التهم جزافًا، على مقاماتٍ كنسيّةٍ متعدّدةٍ. وفي مطلع عام ١٩٣٠، أخرج من خزنة تاجر جواهر ألمانيّ في مدينة ميونيخ، حيث كان قد أودع كلّ نسخ كتابه، بضع نسخٍ منه، ووزّعها في روما، لكنّه ارتكب طيشًا مميتًا، لمّا سلّم نسخةً إلى أحد معاوني الديكتاتور الفاشيّ موسّوليني، وبذلك أتاح للسياسيّين فرصة التنكيل بالكنيسة.

هذه الزلّة أقلقت العمدة "موركالدي"، الذي كان، مسايرةً لصديقه "بروناتّو"، قد ارتضى أن يصدر الكتاب حاملًا اسمه بصفة مؤلّفٍ. فاضطرّ إلى إطلاع پادري پيّو على كلّ مراحل وضع ذلك الكتاب، وعلى الأخطاء التي ارتكبها "بروناتّو".

صُدِمَ پادري پيّو أقسى صدمةٍ، بما سمع، وكان حزنه خانقًا، وسارع فكتب إلى "بروناتّو": "يا إبليس، إنّ الأحرى بك أن ترتمي عند أقدام الكنيسة". وأفهَمَه أنّ الكنيسة هي، في جوهرها نقيّةٌ، ولا يجوز أن تُنتهَك كرامتُها بإفشاء أخطاء ومخازي بعضٍ من أعضائها.

وأمر پادري پيّو العمدة "موركالدي"، ببذل كلّ مستطاعٍ لسحب كلّ الوثائق الفاضحة، المتعلّقة بارتكابات رجال دينٍ، ولا سيّما تلك التي نُشِرت بحجّة الدفاع عنه، شخصيًّا، حيثما وُجِدت.

وفي مطلع عام ١٩٣١، تضافر ضيق ذرعِ الڤاتيكان بالزوبعة العاتية، التي أثارها "بروناتّو"، مع تدابير تفتقر إلى الحكمة والحيطة اتّخذتها الرئاسة الكبّوشيّة، تحت ضغوط السلطات الكنسيّة، وشائعاتٍ انتشرت في سان جُوڤانّي رُتونّدو، وزادها استعارًا تدبيرٌ غير مألوفٍ، لجأت إليه الرئاسة الكبّوشيّة، التي أقصت رئيس دير سيّدة النِعَم، المُنتخَب أصولًا وفق النظام الكبّوشيّ، وكان يقدّر پادري پيّو، الذي عايشه عن كثبٍ مدى سنواتٍ، أرفع تقديرٍ، وتيقّن من قداسته، واستبدلته الرّئاسة براهبٍ آخر قادمٍ من ميلانو، ومُعيَّنٍ مباشرةً، من قِبَل الرئيس العامّ، خلافًا للنظام الكبّوشيّ، الذي يقتضي انتخاب رئيس كلّ ديرٍ، من قِبَل رهبانه.

وذاع نبأ وصول الرئيس الجديد الغريب، ورافقته شائعةٌ تؤكّد عزم الرؤساء الكبّوشيّين، على نقل پادري پيّو إلى ديرٍ آخر في ألمانيا، تحت اسمٍ مستعارٍ، وبسرّيّةٍ. وفي الحال، نظّم أهالي سان جُوڤانّي رُتونّدو مظاهرةً صاخبةً، مُدمّرةً، واحتشدوا حول الدير مردّدين شعاراتٍ: "فليخرج الغريب، وليُشنق! إنّ إبعاد پادري پيّو يعني مجزرة".

فاضطرّ الأب پيّو إلى الإطلال من نافذة صومعته، وطمأنة الجمهور الهائج إلى بقائه معهم، وتهدئة سورة سُخطهم. ولكنّهم أبوا الإصغاء إلى ندائه، وواصلوا هتافاتهم، فانزوى في صومعته، واستغرق في الصلاة.

وعند منتصف الليل، سُمعت قرعاتٌ مدوّيةٌ على بوّابة الدير. فقد كان الجمع الهائج قد رفع عمودًا حديديًّا، كانت شركة الكهرباء قد أودعته هناك، خلال ذلك اليوم، كي تركّبه صباح الغد، واستخدمه الثائرون مِصدَمًا من أجل خلع بوّابة الدير، وأفلحوا في ذلك، وتدفّق إلى الدير جمعٌ بلغ به السخط ذروة العنف الجامح. وفي داخل الدّير، فاجأهم مشهدٌ جمّدهم. إذ كان پادري پيّو قد استلقى عند مدخل الممرّ، وخاطبهم بشدّةٍ:

- ماذا تريدون؟

- نريد الراهب الغريب الذي جاء اليوم. لن نسيء إليه. ولا نبغي سوى إبعاده لأنّه مكلّفٌ بإبعادك عنّا.

- بل عودوا إلى بيوتكم. فهو لنا أخٌ، وقد جاء كي يتحدّث إليّ. ونحن لن نسلّمكم أحدًا.

- لكنّا نعدك بألّا نسيء إليه.

- أقول لكم، ارجعوا بهدوءٍ. وإذا أصـــــررتم على اقتحام الدير، فعليكم أن تدوسوني.

وبعد ساعتَيْن من النقاش الحامي، وبعد حضور العمدة، وقائد الدرك، وتأكيدهما أنّ الراهب الغريب، سيعود إلى فوجّا مع الفجر، انسحب معظم المقتحمين، ما خلا عددًا من الذين آثروا مواصلة الحراسة، تحسّبًا للطوارئ.

مع خلوّ ذلك الحدث من ضحايا، كان وقعه مدوّيًا، واستلزم تحقيقًا قضائيًّا، وسرّب القلق إلى الرئاسة الكبّوشيّة، فطالبت رئاسة دير سيّدة النِعَم، بتقريرٍ مفصّلٍ، عمّا جرى. غير أنّ حدثًا عفويًّا، زاد الوضع تعقيدًا. فقد نشرت صحيفةٌ محلّيّةٌ مقالًا مسهبًا، غالى كاتبه في الإشادة بمن سمّاه "الأخ المعزّي، صانع المعجزات، الذي تتدافع قوافل الحجّاج للاحتماء تحت جناحَيه المقدّسَين، توقًا إلى تقبيل يده وكتفه النازفتَيْن نزفًا ظاهرًا".

ربّما كان الكاتب حسن النيّة، ولكنّه بدافع الغرور الأدبيّ، والإبهار والتأثير، ناقض الحقيقة والواقع، فمنذ قرارات المجمع المقدّس التي صدرت عام ١٩٢٣، امتنع پادري پيّو عن التقاء أحدٍ، إلّا في كرسيّ الاعتراف.

ولكنّ مقاله هذا أثار ريبةَ مسؤولي الڤاتيكان، فتخيّلوا أنّ التأكيدات التي أُعطيت لهم باحترام قرارات الكرسيّ الرسوليّ، كانت كاذبةً، وربّما أسهم مُغرِضون في تسريب هذا الارتياب، والإيهام بأنّ التدابير الرسوليّة كانت تُنتَهك بانتظامٍ.

وبالإجمال، تضافر تلفيق صحافيّ لخبرٍ لا أساس له، وتهوُّر بروناتّو وتسريبه أسرارًا من كتابه "رسالةٌ إلى الكنيسة"، وللفتنة الشعبيّة التي أدّت إلى اقتحام الدير، أثرٌ حاسمٌ على موقف الكرسيّ الرسوليّ، الذي أصدر، يوم ١٩٣١/٥/١٣، القرار التالي:

«تُحجَب عن پادري پيّو كلّ سلطاته الكهنوتيّة، ما خلا إقامة القدّاس، ولكن على انفرادٍ، داخل جدران الدير، لا في الكنيسة. وبعد يومين بُلّغ هذا القرار إلى رئيس الجمعيّة الكبّوشيّة، الذي استدعى، في الحال الرئيس الإقليميّ في "فوجّا"، وكلّفه بتنفيذ القرار».

ولمّا أُحيط الأب پيّو بالقرار، اكتفى بقول: "لتكن مشيئة الله". ثمّ انخرط في البكاء، فقد كان القرار يحرمه من إقامة القدّاس أمام جمهورٍ، ومن التعريف، ومن مقابلة أبنائه الروحيّين وعموم المؤمنين. ومُنع، أيضًا، من التعليم والإرشاد في الإكليريكيّة الصغرى الملحقة بالدير. وكان يُمارس هذه المهمّة الغالية على نفسه منذ عام ١٩١٦. ولم يُسمَح له إلّا بتناول طعامه مع إخوانه، ومشاركتهم الصلوات الجماعيّة. وما عدا ذلك، أمسى، حسب وصفه "سجينًا بريئًا".

استمرّ سجنه هذا سنتين، وكان أشقّ ما أحزنه حرمانه من سماع الاعترافات، فقد كانت هذه السلطة الاستثنائيّة التي يُمنَحُها الكاهن، وتؤهّله لتحرير النفوس من خطاياها، باسم يسوع المسيح، مع إقامة القدّاس، هي جوهر رسالته. وما حرمانه منهما سوى تشويهٍ، واغتيالٍ.

التحرير

كان لقرار الكرسيّ الرسوليّ صدى حزنٍ، ولا سيّما أنّه أُلحِق بقراراتٍ أُخرى مؤسفةٍ، كان أحد ضحاياها كتابٌ ألّفه ماسونيٌّ بارزٌ سابقٌ، عن پادري پيّو، إثر شفاء ابنه، شفاءً معجزًا، بشفاعة الكاهن القدّيس، وقاد هذا الشفاء الوالد إلى اعتناق الكاثوليكيّة، ونيله العماد من يد كردينالٍ. ومَنَع الكرسيّ الرسوليّ نشر الكتاب بحجّة أنّه يروي "عجائب مزعومةً، وأحداثًا فائقة الطبيعة"، منسوبةً إلى شفاعة پادري پيّو.

ومن جانبٍ آخر، أمعنت رئاسة الجمعيّة الكبّوشيّة في اللجوء إلى تدابير، تفتقر إلى الحكمة، وضاعفت الأمور تعقيدًا ومأساويّةً، فقد بلّغ رئيسها العامّ رئيس دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، أنّه هو شخصيًّا، المسؤول الأوحد عن كلّ شؤون الدير.

ومن سخريّات القدر أنّ قرار منع الأب پيّو من إقامة القدّاس العلنيّ، فُرِض تطبيقُه، منذ يوم الحادي عشر من شهر حزيران، الذي وافق عيد جسد الربّ، الذي كان حبّةَ قلبِ الأب پيّو. ومع ذلك، أُكرِه على الاحتفال بقدّاسه وحيدًا، مع خادم قدّاسٍ أوحد. فاستمرّ ذلك القدّاس ثلاث ساعاتٍ، إذ لم يبقَ للكاهن المضطهَد من عزاء، ومن مورد قوّةٍ، سوى هذا القدّاس. واستمرّت هذه الحال سحابة سنتَيْ عزل الكاهن القدّيس. وقد راقب معرّفه، خفيةً، أحد قداديسه، في تلك الفترة، فقال: "نفسيًّا، ما زال يتألّم من الشوكة التي غُرِست في صميم نفسه. ولكأنّه كان يشعر أنّ السماء صمتتْ، واقتصر قوام حياته على الإيمان والرجاء. وغالبًا، ما كان يقضّ مضجَعه تساؤلُه الوجِع: "هل سأخلص؟..." شهدتُه يقيم القدّاس وحيدًا، في كاپيلّا داخل الدير، ويسهر على إيصاد بابها، كي لا يدخل إليها أحدٌ، مُنفّذًا بهوسٍ تدابير الكرسيّ الرسوليّ... ولم يكفّ عن البكاء أثناء القدّاس...".

كان أبناؤه الروحيّون، الذين مُنِع من لقائهم، وحتّى من مراسلتهم، دائمي الحضور في باله، ولا يني يُصلّي من أجلهم. وبما أنّهم لم يُحاطوا جميعهم علمًا بمنعه من مراسلتهم، ما انفكّت تتدفّق أكوام الرسائل من العالم أجمع، ملتمسةً نِعَمًا وصلواتٍ وشفاعاتٍ، وغالبًا، ما حفلت تلك الرسائل بالبساطة والصدق، وعمق التأثير. فقد طلب منه مهاجرٌ في أميركا نعمةً، "إكرامًا لحبّك ليسوعِ وللعذراء القدّيسة. ولعنايتك الرقيقة بوالدتك".

صلاته من أجل هؤلاء المؤمنين الطيّبين، كانت أحد أسباب تمادي قدّاسه طولًا.

وطوال مدّة أسره، ما انفكّت قوافل الحجّاج تتهافت إلى الدير، ولم يكن يُسمَح لها بمقابلته والتحدّث إليه. ولكن كم كانت مؤثّرةً رؤيتهم راكعين في الكنيسة، يصلّون بحرارةٍ، أمام إيقونة سيّدة النِعَم، ويلتمسون منها فكّ أسر قدّيسهم المحبوب، سريعًا.

وكان برنامجه اليوميّ يتضمّن أربع ساعات تأمّلٍ، وتلاوة خمس مسابح ورديّةٍ، والمطالعة. واتّفق له أن أنفق يومًا كاملًا، في مطالعة مأثرة الشاعر الإيطاليّ "دانتي": "الملهاة الإلهيّة".

ذلك العزل الجائر تقبّله پادري پيّو بصبرٍ، واستسلامٍ، وألمٍ، ولكنّه سعّر سخطَ الشعب الإيطاليّ بأكمله، وجميع محبّي الكاهن القدّيس في العالم. وكان رئيس النظام الفرنسيسكانيّ الثالث (Tiers-ordre)، قد أرسل غداة إصدار حكم إدانة پادري پيّو، باسم أسرته الروحيّة، التماسًا إلى الكردينال "سباريتّي" (Sbaretti)، أمين سرّ المجمع المقدّس، طالبًا إعادة السماح للراهب المصلوب، حقّ الاحتفال بقدّاسٍ أمام جمهوره، وعودته إلى كرسيّ تعريفِه، الذي كان نبع عزاءٍ وخلاصٍ لآلاف النفوس. ولم يلقَ هذا الالتماس ردًّا، لأنّ عودة الكرسيّ الرسوليّ عن قراراته، ليس أمرًا سهلًا.

ولكنّ العناية الإلهيّة كانت ساهرةً على مختارها، وكانت الأوضاع في الڤاتيكان

تتحرّك، فكان كرادلةٌ يتقاعدون ويحلّ آخرون مكانهم، وكان حبرٌ أعظم يرحل إلى جوار ربّه، فيخلفه آخر. وكان الكردينال "پاتشيلّي" (Pacelli)، الذي أصبح، بعد بضع سنواتٍ البابا پيّوس الثاني عشر، أثناء اضطلاعه بمهمّة قاصدٍ رسوليٍّ في ألمانيا، قد اطّلع على قضيّة الصوفيّة الألمانيّة "تيريز نويمن" (Neumann)، التي كُرِّمت، هي أيضًا، بسمات الصلب، وكان العمل على تطويبها جاريًا. فضلًا عن أنّ معظم الكرادلة المناوئين لپادري پيّو، قد أخلوا أماكنهم لآخرين أكثر تعاطفًا مع الراهب الشهير.

وفي هذه الأثناء، كان الدكتور جيورجيو فيستا، قد وضع كتابًا عن تحقيقاته المتعاقبة عن جراح الأب پيّو، وأثبتت تحقيقاته، بدليلٍ علميٍّ يتعذّر دحضه، أنّ تلك الجراح هي ظاهرةٌ فائقة الطبيعة، وتستعصي على كلّ تفسيرٍ طبّيّ. وتريّث الدكتور فيستا في نشر الكتاب الذي ضمّنه نتائج تحقيقاته، بعنوان "بين أسرار العلم وأنوار الإيمان"، ريثما تهدأ العاصفة التي أثارتها الخلافات الحادّة، حول جراح الكاهن القدّيس. وأُحيط عمدة سان جُوڤانّي رُتوندو، السيّد "موركالدي"، علمًا بهذا الكتاب، ونسخَ منه عدّة نسخٍ، وأرسلها بكتمانٍ إلى ثلّةٍ من الكرادلة المسؤولين في الڤاتيكان، لا بقصد الضغط، بل بقصد كشف حقيقةٍ علميّةٍ، رزينةٍ ومقنعةٍ. وكان لمبادرة موركالدي عكس مفعول مبادرات "بروناتّو" المتهوّرة الصاخبة.

وكان لرأي الدكتور فيستا، المبنيّ على حُججٍ طبّيّةٍ متينةٍ، تأثيرٌ بالغٌ خاصّةً على الكردينال "روسّي"، فاستدعى العمدة "موركالدي"، ووعده بإنصاف "پيّو"، وإعادة حقوقه وسلطاته الكهنوتيّة له، بشرط أن يضمن الكرسيّ الرسولي، استعادة كلّ نُسخ كتاب "بروناتّو": "رسالة إلى الكنيسة"، من مخبئها في ألمانيا، وكلّ النسخ المتداولة، وكلّ الصوَر والوثائق المستخدمة من أجل طباعة الكتاب، إثباتًا لوفاء المدافعين عن الأب پيّو، وولائهم للكنيسة، وبذلك تضمن الكنيسة إبعاد مخاطر إفشاء فضائح بعض أعضائها المارقين، ويُرفَع الحيف عن كاهنٍ مظلومٍ. عُقد الاتّفاق، وتعهّد الأب "ساڤيرو"

معرّف الكردينال "روسّي"، بالسهر على تنفيذه. وفي غضون أسابيع، كانت كلّ نسخ الكتاب المشؤوم، وكلّ المعدّات المستخدمة في طباعته، قد أُودعت لدى القصادة الرسوليّة في مدينة ميونيخ، ومن هناك، نُقِلت في حقائب ديپلوماسيّةٍ إلى الڤاتيكان. ثمّ جُمِعت نسخ الكتاب التي عُثر عليها في إيطاليا. وتلقّى العمدة "موركالدي" تهنئة الكردينال روسّي، مُرفقةً بهديّة ذخائر قدّيسين.

ولكن حتّى انصرام عام ١٩٣١، لم يصدر عن الكرسيّ الرسوليّ القرار الموعود، بالإفراج عن پادري پيّو.

وفي هذه الأثناء، كان قد نُصّب أُسقفٌ جديدٌ على رعيّة "مانفريدونيا". ولكن من المؤكّد أنّ أُسقف رعيّةٍ صغيرةٍ قد يستطيع، بعلاقاته، إحداث إساءاتٍ كبرى، كما فعل الأسقف "غالياردي"، ولكنّ أُسقفًا أعزل يعجز عن تحريك عجلات القرارات الڤاتيكانيّة.

وفجأةً، حدث ما أعاد التعقيد إلى قضيّة الكاهن الشهير، وزادها سوءًا. ففي ربيع عام ١٩٣٢، عاد "بروناتّو" من فرنسا، حيث كانت أعماله قد استدعته. ولمّا أُحيط علمًا بالاتّفاق، الذي عُقد بين الكرسيّ الرسولي، والعمدة "موركالدي"، وصف هذا الأخير بالخائن والمباع. وأطلع موركالدي الرئيس الجديد على الجمعيّة الكبّوشيّة، على كلّ ما جرى بشأن الأب پيّو ، ثمّ أرسل مذكّرةً مماثلةً إلى أمين سرّ الكرسيّ الرسوليّ الكردينال "پاتشيلّي، الذي أصبح البابا پيّوس الثاني عشر.

غير أنّ جيشان "بروناتّو" وتهوّره، بقصد إنقاذ صديقه الأب پيّو، زاد أمور الأب تعقيدًا وسوءًا. إذ عاد بروناتّو إلى باريس، ومنها أطلق النداء الأخير إلى الكردينال "روسّي"، مهدّدًا بنشر وثائق عن فضائح مدوّيةٍ، إن لم ينفّذ الكردينال وعوده بالإفراج عن الأب پيّو. واستنتج الكردينال أنّ العمدة "موركالدي"، فشل في جمع كلّ الوثائق

المستخدمة في طباعة كتاب "رسالةٌ إلى الكنيسة". وأنّ وسائل التهديد ما زالت متوفّرةً، وازدادت قضيّة الراهب المضطَهَد تعقيدًا وتشابكًا.

جرت تلك التطوّرات كلّها، وپادري پيّو في منأًى عنها، وجهلٍ تامٍّ لها، ملتزمًا صمتًا مُحكمًا، محاكيًا يسوع أمام بيلاطس، ومثبتًا كونه "معجزة طاعةٍ". فلم يناقش، قطّ التدابير الجائرة، المتّخذة بحقّه، لأنّه كان يَعدّ صوت رؤسائه هو صوت الله. ومثلما خضع للنِعَم التي كرّمه الله بها، خضع للإجحاف اللاحق به، من قِبَل رؤسائه والسلطات الكنسيّة العليا، متألّمًا، صامتًا، مستعينًا بالصلاة.

وقد أقام قدّاس عيد الميلاد، للمرّة الثانية، وحيدًا في كاپيلّا الدير المغلقة عليه، ودام قدّاسه خمس ساعاتٍ، ساعات عبادة الربّ المتجسّد، وساعات تقديم ذاته ضحيّة فداءٍ.

واتّضح أنّ السلطة الكنسيّة العليا ،هي الوحيدة التي تملك مفتاح حلّ تلك القضيّة، وفكّ تشابكاتها. وكان البابا پيّوس الحادي عشر، قد ضاق ذرعًا بمخازي رجال دينٍ فاسدين، وبمماطلة الدوائر الڤاتيكانيّة في معاقبتهم، وبالتدابير القمعيّة التي فرضتها، افتئاتًا، على راهبٍ أيقن البابا، أخيرًا، أنّه مدهشٌ واستثنائيٌّ، وسئم من إقحام الصحافة في هذه القضيّة. ولكي يريح ضميره، كلّف يوم ١٩٣٣/٣/٢١، أُسقفًا كبّوشيًّا بالسفر إلى سان جُوڤانّي رُتونّدو، بصفة زائرٍ رسوليٍّ، والتحقيق بتلك القضيّة التي تمادت تماديًا مؤسفًا. واستصحب الأسقف المكلّف، لمساعدته على إنجاز المهمّة، الأسقف "بيڤالاكوّا"، الذي كان قد حقّق في هذه القضيّة، عام ١٩٢٧.

وفي الساعة الثامنة من صباح ١٩٣٣/٣/٢٤، قرع الأُسقف ومرافقه، باب دير القدّيسة مريم سيّدة النِعَم، في سان جُوڤانّي رُتونّدو، وبعد مقابلتهما رئيس الدير، قابلا الأب پيّو، الذي فرغ لتوّه من قدّاس، بدأ إقامته في السابعة صباحًا. تحدّث الزائر

الرسوليّ مطوّلًا مع الراهب المصلوب، ثمّ مع رئيسه الذي كتب: "أُعجب الموفد البابويّ أشدّ إعجابٍ بتواضع پادري پيّو وبطاعته الصامتة، وبمجمل سلوكه، ورأى فيه رجل صلاةٍ، واهبًا كلّ ذاته لله".

ولا ريب أنّ ما نقله الزائر الرسوليّ عن زيارته غيّر، جذريًّا رأي البابا في "پادري پيّو". ولكن، فيما كانت هذه الزيارة، تبعث نسائم أمل انفراجٍ، في قلوب محبّيه، كان "بروناتّو"، في پاريس، أقلّ اطمئنانًا وتفاؤلًا. ومع أنّ الأب پيّو راسله مرّتين، ورجاه بإلحاحٍ أن يرجئ تهديده، ولكنّ الصديق المتهوّر، كان يرى الأمور بمنظارٍ داكنٍ مختلفٍ. فكم من وعودٍ أُغدِقت، ولم ينفَّذ منها شيءٌ، وكم من آمالٍ تفتّحت، وسرعان ما تبخّرت، على دروب السنوات الفائتة، وقد صرّح عن نواياه، بهذه العبارة: "الثمن الذي أقتضيه عن صمتنا، وعن نشر كتابي معروفٌ: "تحرير البارّ البريء، والاقتصاص من الفاسدين المفترين". وأُلحق هذا الجواب، بتهديدٍ: "إن لم يكن قد تمّ الإفراج عن پادري پيّو بحلول عيد الفصح، فسأنشر، وسأوزّع".

قضى، إذن، پادري پيّو أعياد الفصح، معانيًا أهوال آلام الربّ. ولم يغب عن باله قول اللاهوتيّ "تيرتولّيان" (Tertullien): "الصلاة، والآلام، هي القوى الوحيدة التي ينحني لها الله".

وقد وصف رئيس الدير، كيف قضى الأب أسبوع الآلام كلّه في الفراش، تحت وطأة حمًّى بلغت ٤٨ درجةً، مُقاسيًا آلام الربّ في أعماقه، عاجزًا عن التفوّه بلفظةٍ واحدةٍ، متألّمًا وباكيًا.

وبثمن هذه الآلام، نال تحريره.

ومن العوامل الواقعيّة والملموسة، التي ساهمت في تحريره، وسرّعته، صدور كتاب الدكتور "فيستا": "بين أسرار العلم، وأنوار الإيمان"، الذي كان البحث العلميّ الأوّل،

عن سِمات صلب پادري پيّو، المستند على فحوصٍ سريريّةٍ معمّقةٍ، ومتتاليةٍ. وكان لهذا الكتاب أصداءٌ إيجابيّةٌ فعّالةٌ، لصالح الراهب المضطهَد.

والعامل الآخر كان تعيين خلفٍ للمطران غالياردي، ومبادرة الأسقف الجديد إلى زيارةٍ ودّيّةٍ، وتقديريّةٍ، تعاطفًا مع پادري پيّو، واقتناع الرئيس العامّ على الجمعيّة الكبّوشيّة، بقداسة الأب پيّو، ودفاعه المتين عنه، لدى الكرسيّ الرسوليّ.

بعد سنوات ظلمٍ ومعاناةٍ، تلاقت الجهود والمبادرات، لصالح كشف حقيقة الراهب القدّيس المصلوب. وتوافق ذلك مع إعلان البابا پيّوس الحادي عشر سنة **١٩٣٣**، سنةً مقدّسةً، ومناسبةً لمحو الأخطاء.

ويوم **١٩٣٣/٧/١٤**، بلّغ الكاردينال "سباريتّي" (Sbaretti)، أمين سرّ المجمع الرسوليّ، رئيس الجمعيّة الكبّوشيّة قرار السماح لپادري پيّو، بإقامة القدّاس في كنيسة الدير، وبسماع اعترافات الرهبان القادمين من أديرة أخرى.

كان باب السجن قد شُقَّ، ولكن لم تفكّ قيود السجين، الذي ما زال ممنوعًا من سماع اعترافات المؤمنين، وما انفكّ عدم الاعتراف بكون جراحه ظاهرةً فائقة الطبيعة، قائمًا. وكان لا بدّ من انتظار أشهرٍ عديدةٍ، وحتّى شهر أيّار **١٩٣٤**، حتّى تُعاد إلى پادري پيّو كلّ سلطاته الكهنوتيّة والإنسانيّة.

وكان رئيس الجمعيّة الكبّوشيّة، فور تبلّغه هذا القرار قد أعلم به الرئيس الإقليميّ في فوجّا، فهرع إلى دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، وزفّ البشرى للرهبان الملتئمين على مائدة العشاء، فتفجّرت رعود هتافات الفرح والتصفيق، ونهض الأب پيّو متأثّرًا، باكيًا، وقبّل يدي رئيسه الإقليميّ، وبصوتٍ متهدّجٍ، رجاه نقل شكره إلى الأب الأقدس.

وتوافق اليوم التالي مع عيد سيّدة الكرمل، وتسنّى لپادري پيّو الاحتفال بقدّاس

العيد، في كنيسة الدير. وكان قد ذاع نبأ عودة الأب القدّيس إلى أبنائه، فاكتظّت الكنيسة بالمؤمنين، الذين كانوا يذرّفون دموع الفرح. ولكن لمّا خرج الأب من الموهف، وتقدّم نحو الهيكل، ذُهِل الحاضرون الذين توقّعوا رؤية منتصرٍ عائدٍ مزهوًّا بمشاهدة ما فعلته سنتا حجرٍ وآلامٍ، بالراهب الشابّ، الذي تحوّل إلى شهيدٍ مُنهكٍ، شابت لمّته، وتهدّلت كتفاه، وازدادت مشيته تباطؤًا.

ولم يلبث أن تبيّن أنّ رفع القيود عن الأب پيّو، لم يكن قرارًا رسميًّا، ولم يصدر بشأنه أيّ إعلانٍ في وسائل تواصل الڤاتيكان. وفي شهر آب، بلّغت الرئاسة الكبّوشيّة العامّة، رئيس دير "فوجيّا" المسؤول عن دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، عبر رسالةٍ طافحةٍ بالصرامة والإنذار، أنّ التسامح الذي تكرّم به الكرسيّ الرسوليّ كان بمثابة اختبارٍ، وقد يُنزَع هذا الإنعام، بل قد يُلغى نهائيًّا، إن لم تتوقّف كلّيًّا المظاهر غير المناسبة، والتعليقات المستفزّة...

ومنذئذٍ، لم تكفّ الرئاسة الكبّوشيّة، تذكّر رئيس دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، تذكيرًا منتظمًا، بوجوب الالتزام بتدابير الحيطة والكتمان، وبالقيود المطلوبة من أجل استمرار تحرير الأب پيّو من قيوده. غير أنّ صرامة هذه التدابير الاحتياطيّة، كانت تتضاءل سنةً فسنةً.

ومع ذلك، كانت الفترة الممتدّة، من ١٩٣٣/٧/١٦، وحتّى عام ١٩٦٠، فترةً سعيدةً للأب پيّو، عقب سنوات الاضطهاد والقيود. فقد استعاد الأب وتيرة رسالته الكهنوتيّة المضطرمة، وقد جنى منها حصادًا وفيرًا. فخلال تلك السنوات، ما انفكّ آلاف الحجّاج يتدافعون إلى دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، وتكاثرت التحوّلات الروحيّة المدهشة، والأشفية الجسديّة الخارقة، وفاضت ينابيع النِعَم.

وفي تلك السنوات بنى پادري پيّو الصرحين الأكثر تألّقًا، والإنجازَيْن الخالدَيْن اللذَيْن كرّسا خصب رسالته على الأرض: "بيت تخفيف الألم"، و"جماعات الصلاة".

انتصار القداسة، وأنوارٌ تشعّ من جراح پادري پيو

في غمرة الاضطهادات التي انهالت، بلا رحمةٍ، عليه، لم يكن يشغل بال پادري پيّو، سوى همّ إنقاذ فقراء منطقته من أمراضهم، ولا سيّما أنّهم كانوا يفتقرون إلى مصحّةٍ أو مستوصفٍ، أو أي مركزٍ يعالج أسقامهم، في حين كانت أوبئة الجدريّ، والسلّ، وتسمّم الدم واسعة الانتشار، فضلًا عن عدد العائدين من الحرب، مصابين بأمراضٍ وتشوّهاتٍ، يحتاجون إلى علاجٍ طويلٍ ومناسبٍ، ولا يجدون إليه سبيلًا، إذ كان الجنوب الإيطاليّ، عمومًا، مُهملًا صِحّيًّا، ومفتقرًا إلى مشافٍ.

وأيقن الأب پيّو أنّ المحبّة التي أسّس يسوع عليها تعليمه، تفرض بناء مشفًى، يلبّي كلّ تلك الاحتياجات، ويخفّف أوجاع المتألّمين، ويكون المكان المناسب لإنفاق الصدقات الواردة إلى الدير.

وربّما كان پادري پيّو الأكثر اختبارًا للألم، ومعاناةً منه، بعد أن أنعم عليه الربّ بمشاركته قسمًا من آلام صلبه.

وكان للأب صديقٌ كاهنٌ، يُدعى "دون جيوزيپّي أورلاندو"، يملك شيئًا من الثروة، فاتّفقا على البدء بتحقيق المشروع الشفائيّ، الذي كان يراوده بلا هوادةٍ. وانضمّ إليهما عمدة المدينة، وطبيب الأب پيّو الأوّل، الدكتور "ميرلا". وبما أنّ بناء مستشفًى كبيرٍ مكتملٍ، يستلزم مبالغ طائلةً، لم تكن متوفّرةً لدى الأب پيّو ورفاقه، اكتفوا بشراء دير راهباتٍ قديمٍ في قلب المدينة، وتحويله إلى مشفًى مجهّزٍ.

وفي مطلع عام ١٩٢٥، افتُتح أوّل مستشفًى صغيرٍ حسن التجهيز، في تلك المنطقة الجبليّة الوعرة المهملة، وأُطلِق عليه اسم "مشفى القدّيس فرنسيس"، للدلالة على الإلهام الذي أوحى بتأسيسه، وبالروح الذي سيقود أسلوب عمله. وتولّى طبيبان إدارته مجّانًا،

وتطوّع جرّاحٌ لإجراء عمليّاتٍ دقيقةٍ مرّتيْن في الأسبوع. وكان جميع الممرّضين والممرّضات والعاملين في المستشفى متطوّعين.

كانت غرفتان قد أُعدّتا للعمليّات الجراحيّة. واحتوى المشفى عشرين سريرًا، سرعان ما امتلأت، بما أنّ المعالجة كانت مجّانيّة، وكان أغنياءُ يدفعون عن الفقراء، وفقراء يسدّدون ثمن استشفائهم، تقدمةَ أوجاعهم للربّ. وكان الأطبّاء والممرّضون يضحّون بوقتهم وخبراتهم خدمةً للربّ، وكلٌّ يؤدّي قسطه عملًا، وتقادم وتضحياتٍ في حدود طاقاته ومؤهّلاته، وموقعه. وبهذا التعاون كان يكتمل أروع نموذجٍ للمحبّة المسيحيّة، التي وهبت العلاج والرعاية الصحّيّة لآلاف المحرومين منهما، فقد عوّضت الإدارة الحكيمة، والتضحيات السخيّة، والتفاني اللامحدود عن ضآلة الإمكانيّات المادّيّة، فاستطاعت تلك المؤسّسة الصغيرة تقديم خدماتٍ فاقت، بلا قياسٍ، ما قُدِّر لها.

ولكن، بعد ثلاث عشرة سنةً من الخدمة الخيّرة، دمّرت هزّةٌ أرضيّةٌ عنيفةٌ المبنى بكامله، ودفنت تجهيزاته تحت الأنقاض. ثمّ تحوّل المكان إلى حديقة أطفالٍ، تَصدَّرَه نصبٌ، حُفِر عليه:

"لقد أراد الأب پيّو دي پْيترِلْشينا، تأسيس مشفًى في هذه البلدة، فجمع من أصدقائه الأوفياء المال اللازم لإشادته.

وبمساعدة الدكتور "جوڤا"، رئيس الجمعيّة الخيريّة، ذلّل كلّ الصعاب والمقاومات، وحوّل الخاطرة إلى واقعٍ، وزوّد سان جُوڤانّي رُتونْدو بهذه المؤسّسة الإنسانيّة".

ومن المحقّق أنّ الهزّة الأرضيّة، لم تقضِ على مشروع الأب پيّو الإنسانيّ، بل عملت على تطويره. وكان عمل المشفى على امتداد ١٣ سنةً، قد أغنى الأب بخبراتٍ ثمينةٍ. فقد تعلّم، في المقام الأوّل، أنّ إحاطة المريض بالعطف والمحبّة تخفّف آلامه، وتسرّع شفاءه، وتؤثّر تأثيرًا خلاصيًّا حاسمًا على نفسه وجسده.

واقتنع، أيضًا، بأنّ العناية الطبّيّة، بصفتها واجبًا مهنيًّا، فحسب، لا تكفي، بل على الطبيب إشعار المريض بأنّه أخٌ أو أختٌ له، وعليه أن يدلِّله كما تدلّل أمٌّ ابنها الحبيب.

وأكّدت له محبّته أنّ على الطبّ ألّا يقتصر على معالجة مرضٍ، بل عليه أن يعالج إنسانًا بكامله، روحًا وجسدًا ونفسًا.

هذه القناعات ظلّت تنضج، وتنمو في ذهن پادري پيّو، حتّى تجلّت واقعًا مذهلًا، ومتألّقًا في إنجازه الإنسانيّ الأكبر "بيت تخفيف الألم".

وفي هذه الأثناء، زار الدكتور "فيستا" الأب پيّو في ديره، لا بقصد فحص جراحه الذي كان ممنوعًا إلّا بإذنٍ صريحٍ من الدوائر الڤاتيكانيّة، بل بُغيةَ قضاء بضعة أيّام نقاهةٍ بقرب قدّيسٍ كان يُجِلُّه، إثر علّةٍ أصابته. وكانت تلك مناسبةً سانحةً كي يبسط الأب پيّو للطبيب معاناته أوجاعًا حادّةً، من جرّاء إصابته بفتقٍ في الحالب، أدّى استمراره الطويل إلى إحداث التهاب صِفاقٍ خطيرٍ، واتّضحت الحاجة إلى جراحةٍ عاجلةٍ، وآثر الأب پيّو وإخوته الرهبان إجراءها في الدير، من قبل الدكتور "فيستا"، تفاديًا لجذب الفضوليّين، ولنشر الأقاويل. فاستقدم الدكتور "فيستا"، من روما، العدّة اللازمة، وحوّل الرهبان قاعة اجتماعهم إلى غرفة عمليّاتٍ، وتطوّع طبيب الدير، الدكتور "ميرلا" لمساعدة الدكتور "فيستا"، وقام راهبٌ بدور ممرّضٍ، وقام راهبٌ آخر بحراسة باب غرفة العمليات المُرتَجلة، لكي لا يعكّر أيّ متطفّلٍ مجرى العمليّة.

وكان الأب قد رفض التخدير الكامل، لكي لا يستغلّ أحدٌ غيابه عن الوعي، والقيام بفحص جراحه، ومخالفة أوامر السلطات الكنسيّة، واكتفى ببضع جرعاتٍ من شرابٍ مخفّفٍ للألم. ودامت العمليّة نحو ساعتين، وكان الأب پيّو أثناءها يصلّي، ويئنّ، وتعتريه، بين حينٍ وحينٍ، إغماءاتٌ قصيرةٌ. وفيما كانت الدموع تتدحرج على وجنتَيْه، كان لا ينفكّ يردّد: "يا يسوع، اغفر لي، إن لم أتألّم كما يتوجّب عليّ أن أتألّم".

وعندما نُقِل إلى صومعته، أُغميَ عليه، فانتهز الدكتور فيستا هذه السانحة كي يلقي نظرةً خاطفةً على جراحه. فتبيّن أنّه لم يطرأ عليها أيّ تبدّلٍ. غير أنّه لاحظ أنّ الجزء الأيسر من جرح صدره، لم يكن يُظهِر أثر ندبةٍ، بل كان ينزف نزفًا حديثًا، وقد اتّخذ الجرح شكلَ صليبٍ، تنبعث من أطرافه إشعاعاتٌ مضيئةٌ. هذا الإشعاع اكتشفه الدكتور فيستا للمرّة الأولى. ثمّ تسنّى لمن حظوا، لاحقًا، بزيارة الراهب القدّيس، ملاحظة الإشعاع من جراح يديه، أيضًا.

"بيت تخفيف الألم"

الجزء الرابع

إنجازان عظيمان

"بيت تخفيف الألم"

تجرّع فرنشيسكو فُرجونِه، الذي أصبح "پادري پيّو" كؤوس الفقر منذ مولده. فهو ابن فلّاحين فقراء، يكدحون من أجل اكتساب لقمةِ عيشِهم، من رقعة أرضٍ بخيلةٍ، في الجنوب الإيطاليّ البائس. عانى عضّات الفقر في أسرته، ومع جيرانه، وخَبَرَ الجوع، والهزال، والسير بأقدامٍ حافيةٍ على تربةٍ صقيعيّةٍ، يكسوها الثلج والجليد شتاءً، وعلى حصًى متأجّجٍ، حارقٍ صيفًا. وأَلِفَ خداعَ الجوع بلوك فتات خبزٍ جافٍّ، وعانى ضنك السكن في حجرةٍ مُغرقةٍ في الضيق، يتصادم فيها أفراد الأسرة، لدى كلّ حركةٍ.

وفي جوّ الحرمان هذا خَبَرَ فرنشيسكو، أيضًا، مرارةَ المرض، حيث لا مستوصفاتٌ ولا مشافٍ، ولا تأمينٌ من أيّ نوعٍ. وانحفرت هذه الخبرة الأليمة في تلافيف ذاكرته، وفي صميم قلبه. ومنذئذٍ، وُلِدت لديه رغبةٌ في تحرير الفقراء من ربقة الأوجاع، التي لا ترحم، ولا تُعالَج. وواكبه هذا الهمّ في مختلف مراحل حياته، وترسّخ لديه اليقين بأنّ يسوع يتوجّع في كلّ مريضٍ، ويئنّ في كلّ فقيرٍ، وهو حاضرٌ متألِّمٌ مرّتين، في كلّ مريضٍ فقيرٍ. ومنذ بدء مسيرته الرهبانيّة، وضع في طليعة أهدافه تأسيس مركزٍ طبّيٍّ لغوث المرضى الفقراء.

وقد فصّلنا، في فصلٍ سابقٍ، كيف بنى مشروعه الإنسانيّ الأوّل، الذي أطلق عليه اسم "مشفى القدّيس فرنسيس"، في محلّة سان جُوڤانّي رُتونّدو، والذي، بعد ثلاث عشرة سنةً من الخدمات الجلّى، التي لم تعْهدْ لها تلك المنطقة مثيلًا، من قبلُ، دمّرته هزّةٌ أرضيّةٌ.

انتهى، إذن، مشروع الأب پيّو الإنسانيّ الأوّل، على الصليب، ولكنّه كان إيذانًا

بقيامةٍ مجيدةٍ، ولكأنّه كان تكرارًا لما حدث لزميله القدّيس "كتُّلينغو"، قبل نحو قرنٍ، إذ إنّ إغلاق مشفاه الصغير الأوّل القسريّ، مهّد لبناء مدينةٍ طبّيّةٍ، بحجمٍ عالميّ.

وما انفكّ حلم مشفًى حديثٍ كبيرٍ، يحاصر فكر الأب پيّو، ليلَ نهار. وذات مساءٍ باح بحلمه هذا أمام ثلاثة أطبّاء، اعتادوا التمتّع بقضاء ساعات المساء، مع رهبان الدير، الذين كانوا ينعمون، بعد العشاء، باستراحةٍ يستقبلون، فيها، أصدقاءَهم.

حدث ذلك، في الأيّام الأخيرة من عام ١٩٣٩، وقد التقى في قاعة دير سان جُوڤانّي رُتونّدو الكبّوشيّ، طبيبٌ بيطريٌّ من منطقة توسكانا، يُدعى "ماريو سانڤيكو" (Mario Sanvico)، والدكتور "غوليلمو سانغينيتّي" (Guglielmo Sanguinetti)، وكان قد ارتدّ عن ماسونيّته المتشدّدة، وافتُتِن بقداسة پادري پيّو، وكرّس ذاته لخدمته، وكان ثالثهما "كارلو كيسڤاردي" (Carlo Kisvardi)، وهو صيدليٌّ استقرّ حديثًا في المنطقة.

وأمام هؤلاء الثلاثة، باح پادري پيّو بالهاجس الذي كان يقضّ مضجعه. وأصغوا بخشوعٍ إلى تطلّعات المحبّة الفاعلة. فقد أكّد لهم الأب أنّ جميع شرور العالم هي نتيجة الخطيئة، ولكنّ رحمة الله لامحدودةٌ، وعلينا مقابلتها بحبٍّ لا محدودٍ، وأن نحبّه بكلِّ طاقاتنا، وكلّ كياننا، ونتأهّل لسماع قوله: "كنتُ جائعًا فأطعمتني، وكنتُ مريضًا فعالجتَني". وهذا يقتضي منّا التخلّي عن كلّ أنانيّةٍ، والانحناء بعطفٍ على قروح إخوتنا وأوجاعهم، ونتبنّاها، ونقتسمها معهم، حبًّا بالله. وعلينا إعادة البسمة إلى الشفاه الذابلة، وبعث الرجاء في القلوب اليائسة، وتسريب النور إلى النفوس المعتمة. هذه هي الصلاة الأجمل، والأنبل، الصلاة التي تتغذّى بالتضحية، التي هي جوهر المحبّة، لأنّها عطاءٌ كاملٌ للذّات، جسدًا ونفسًا.

أقوال الأب اخترقت أذهان ضيوفه الثلاثة وقلوبَهم، وأعملوا الفكر مليًّا، بحثًا عن وسيلةٍ تحقّق رغبته السامية.

ويومَ ٩/١/١٩٤٠ اجتمعوا، وأصدقاء لهم في منزل الدكتور سانغينيتّي، الذي كان قد ابتناه على حافّة الطريق المؤدّي إلى الدير، وألّفوا لجنةً هدفها تأسيس مركزٍ طبّيٍّ، يلبّي تطلّعات الراهب القدّيس. وجاؤوا إلى الأب بمشروع التأسيس، وبأسماء الأعضاء، وبكشفٍ عن مهمّات كلٍّ منهم، ووضعوا المشروع بخدمة الأب. وأيّد الأب تأليف اللجنة، وأثنى على الأعضاء، وأخذته نشوةُ سعادةٍ طاغيةٍ، فهتفَ: "في هذا المساء انطلق مشروعي الأرضيّ الأكبر". واستلّ من جيبه قطعةً ذهبيّةً، كان قد تبرّع بها محسنٌ، في ذلك اليوم، مساهمةً في عملٍ خيريٍّ، وقال: "هذا هو الحجر الأوّل في بناء المشفى. فعليكم أن تبنوا مشفًى، يشعر المرضى فيه، أنّهم في بيتهم، وسينعَمون بأحدث اكتشافات الطبّ".

وسأله أحدهم عن الاسم الذي يرغب في إطلاقه على المشفى العتيد، فأجاب، بلا تردّدٍ: "بيت تخفيف الألم".

وافتُتح سجلٌّ من أجل تدوين تبرّعات الحجّاج لهذا المشروع. وانبرت اللجنة للعمل، فطبعت منشورًا بلغاتٍ عديدةٍ، احتوت لمحاتٍ عن المشروع، واحتلّت صفحته الأولى صورة القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، وهو يهب فقيرًا معطفَه. وسرعان ما تهاطلت التبرّعات من إيطاليا ومن العالم. وقد احتفظ الأب پيّو طويلًا، بقطعة نقدٍ قدرُها نصف ليرةٍ إيطاليّةٍ، تبرّعت بها عجوزٌ مُعدَمةٌ من أجل بناء المشفى. وكان الأب يَعدّها من أثمن التبرّعات الواردة، ودليلًا على أنّ تقادم الفقراء، أسهمت في إشادة صرحٍ جسيمٍ.

وكان يطيب لپادري پيّو رواية قصّة ذلك التبرّع الذي كان له، رغم ضآلته، أثرٌ بليغٌ على القدّيس. فغداة شيوع نبأ مشروع بناء مشفًى، بناءً على رغبة الأب پيّو، وفتح

لجنة بناء المستشفى باب التبرّعات، جاءت إلى كرسيّ تعريف الأب، عجوزٌ، كان هو يعلم عمق فقرها، ورغبت في المساهمة ببناء المشفى، وقدّمت له قطعة النقد المذكورة، فتأثّر، وشكرها، وألحّ عليها أن تحتفظ بها لنفسها، بسبب حاجتها الماسّة. ولكنّها أصرّت على التبرّع بها، وظلّ هو مصرًّا على أن تقتات بها. وحينئذٍ، قالت المرأة بحزنٍ: "الآن فهمتُ ما تريد أن تقوله لي، وهو أنّ تبرُّعي لا يفيدك في شيءٍ". وكان قولها هذا طعنةً في قلب الأب، وأدرك أنّ إصراره على رفض تبرّعها الزهيد أهانها، فاستدعاها، وقال لها: "أعطيني تقدمَتَك"، وسارع إلى إسدال الستار على كرسيّ الاعتراف، لكي لا تشهد المرأة انسياب دموعه.

وكان الأب پيّو، من بعدُ، كلّما روى هذه الحادثة يعجز عن حبس سيل دموعه.

وفي غضون أشهرٍ معدوداتٍ، جمعت اللجنة ما يعادل مليون ونصف مليون فرنك. وبما أنّ إيطاليا كانت قد انخرطت في الحرب، راودت اللجنةَ خشيةُ أن تؤدّي الحرب إلى تدهور قيمة التبرّعات، فابتاعت بكلّ التبرّعات، وبموافقة الأب پيّو، عقارًا، يمكن بيعه، بعد الحرب، والحفاظ على قيمة التبرّعات.

وفي هذه الأثناء، كانت اللجنة ناشطةً في البحث عن وسائل تنفيذ المشروع، والاستعانة بخبرات مهندسين، وأصحاب مستشفياتٍ، وأطبّاء، وجرّاحين، ومقاولي بناءٍ. ولكن منذ الوهلة الأولى وصف كثيرون من الخبراء المشروع بالجنون واللاواقعية، وباستحالة تحقيقه. فالعقبات دونه كأداء، وتذليلها يقتضي معجزةً، إذ إنّ بناء مشفًى ضخمٍ في منطقةٍ صحراويّةٍ، على سفوحٍ جرداء محرومةٍ من طرقاتٍ تؤدّي إليها، سوى دروبٍ ترابيّةٍ مملوءةٍ حُفَرًا تتحوّل مستنقعاتٍ، منذ أوّل مطرةٍ، ويفصلها أربعون كيلومترًا عن أوّل مركزٍ مدنيّ مأهولٍ، إنْ هو إلّا سرابٌ، وخيالٌ واهمٌ.

ثمّ اتّضحت عقبة استقدام أطبّاء وجرّاحين، واختصاصيّين، يرتضون العمل في هذا القفر، بدوامٍ كاملٍ، وبلا فرصةٍ للتعويض عن ضآلة الراتب، بدخل عياداتٍ خاصّةٍ،

وبلا فسحةٍ لأسرهم لرفاهٍ أو تسليةٍ، وحتّى لتعليمٍ راقٍ لأولادهم. والعقبة ذاتها تنطبق على العاملين داخل المشفى.

وتمثّلت عقبةٌ جادّةٌ أخرى في تأمين المال اللازم لبناء مشفًى جسيمٍ، وتجهيزه بأحدث المعدّات الطبّيّة. فهذا يستلزم العديد من المليارات.

وتساءل المعترضون عمّن سيتكفّل بالنفقات اليوميّة الباهظة، التي يقتضيها تشغيل مشفًى جسيم الحجم، وعمّن سيواجه تبعات المخاطر المحتملة.

وبالإجمال، أجمع الحكماء، وأصحاب الحسابات الدقيقة، على معارضة المشروع المبنيّ على كتلة مخاطر، والذي قد يؤدّي توقّفه القسريّ عن الخدمة إلى فضائح مدوّيةٍ.

وضاعف كلّ تلك المخاطر توريط موسُّوليني إيطاليا، توريطًا أخرق، مدمّرًا، في الحرب العالميّة الثانية. وحقّ لكثيرين التساؤل، هل تجوز المخاطرة بمشروعٍ جسيم التكاليف تحت دويّ القنابل، وأخطار التدمير الشامل؟

لوهلةٍ، بدا أنّ نجمَ حلم پادري پيّو حُكِم عليه بالأفول قبل سطوعه، وعلى مشروعه الغالي بأن يوأَد، قبل ولادته. غير أنّ ثقة الأب پيّو المطلقة بالعناية الإلهيّة لم تنثلِمْ. فضاعف حرارة صلواته، وسخاء تضحياته، ولا سيّما أنّه لم يبتغِ لنفسه شيئًا، بل كانت كلّ مساعيه وجهوده، مكرّسةً لمنطقةٍ مهجورةٍ مهملةٍ. وتوطّد لديه اليقين بأنّ مشروع المشفى هو أشدّ ضرورةً في أوقات الحرب، منه في أوقات السلم. وغدا يُرفِق صلواته بتقديم نزف دم جراحه، التماسًا لتحقيق المشروع الذي ما انفكّ يطارده، ويستحثّه منذ صباه.

وقابلت ثقتَه المطلقةَ برعاية العناية الإلهيّة، وبكرمها، ثقةٌ وطيدةٌ به وبمشروعه، من قِبَل شريحةٍ عريضةٍ من أصدقائه ومحبّيه، فلم ينقطع سيل التبرّعات. صابًّا في صندوق مشروع المشفى مبالغ ضئيلةً أحيانًا، وخياليّةً أحيانًا أخرى. وكان أجسمها سخاءً تبرّع

ابنه الروحيّ "إيمانويلي بروناتّو"، الذي كان الأب قد انتشله من حياة المجون والضياع، وأطلقه على دروب التوبة والبرّ، فمكث فترةً قريبًا منه في الدير، متعقّبًا خطاه، متمثّلًا بسيرته. إلى أن أكرهته السلطات الكنسيّة على مغادرة الدير، فاستقرّ في فرنسا. وتعاطى صفقاتٍ تجاريّةً أكسبته ثروةً، تبرّع بقسطٍ وافٍ منها، لمشاريع أبيه الروحيّ، وحوّل لمشروع المشفى مبلغ ثلاث مئة مليون ليرةٍ إيطاليّةٍ.

واتّفق، في تلك الفترة، أنّ صحافيّةً بريطانيّةً، مراسلةً لمجلّة "إيكونوميست"، واسعة الانتشار، تُدعى "بربارا وُرد" (Word)، كانت، بمناسبة تحقيقٍ كُلِّفت به، قد عرّجت على روما، حيث التقت الأميركيّة "ميري بايل"، التي أقنعتها باعتناق الكاثوليكيّة، ونصحتها بزيارة ديرٍ كبّوشيٍّ في سان جُوڤانّي رُتونّدو، فحجّت إليه عام ١٩٢٧، وأُخِذت كلّ مأخذٍ بقداسة پادري پيّو، وبمفهومه للمشفى الذي كان ساعيًا إلى بنائه، والذي كان شارعًا في النهوض حتّى مستوى الأرض. وتطوّعت لتعريف العالَم بهذا المشروع الطبّيّ الفريد، وللمساعدة على بنائه، بدءًا بتحريض خطيبها، الذي كان مستشارًا لمؤسّسة الأمم المتّحدة للغوث وإعادة البناء. واستطاع الخطيب المستشار إقناع المؤسّسة الدوليّة بتخصيص مبلغ أربع مئة مليون ليرةٍ إيطاليّةٍ، بواسطة عمدة نيويورك، "فيوريلّو لا غوارديا"، المولود في مدينة "فوجّا"، أي في منطقة مشفى الأب پيّو. غير أنّ "لاغوارديا"، شَرَط أن يُطلَق اسمه على المشفى. ولكنّ الحكومة الإيطاليّة لم تستسِغ هذه التسمية، وحرصت على إبقاء التسمية التي أرادها پادري پيّو، ومن جهةٍ أخرى، لم تهضم الحكومة حرمانها ولو بجزءٍ من ذلك التبرّع الضخم، فاقتطعت منه مئةً وخمسين مليونٍ، وسلّمت لمشروع المشفى مئتين وخمسين مليون ليرةً، إيطاليّةً. وتمّ الاتّفاق على الاكتفاء بوضع تمثالٍ للعمدة "لاغوارديا" على مدخل المشفى.

واتّفق، في تلك الفترة، أن انتقل إلى جوار ربّه، والد الأب الذي كان قد تجشّم

معاناة الهجرة، مرّاتٍ، بغيةَ توفير نفقات دراسة ابنه فرنشيسكو، وتمكينه من أن يكون "پادري پيّو"، الذي طبّقت شهرة قداسته الآفاق. ولمّا شاخ، وعجز عن العمل، رغب في قضاء أيّامه الأخيرة على مقربةٍ من ابنه القدّيس، فحلّ ضيفًا، على بيت الضيافة التي بَنَتْه "ميري پايل"، على بُعد خطواتٍ من الدير، وفارق الحياة مزوّدًا بالأسرار الخلاصيّة، من يد ابنه الحبيب.

وكانت قد تحقّقت، في تلك الفترة، بشفاعة الأب پيّو، معجزةٌ باهرةٌ، أعادت الرؤية لفتاةٍ صغيرةٍ، وُلِدت بعينَيْن محرومتين من بؤبؤَيْهما، وكان لها دويٌّ واسع المدى، أدّى إلى إضرام حماس المتبرّعين لمشروع الأب الجلَل، وتلتها معجزاتٌ أخرى بشفاعته، ضاعفت الاندفاع استعارًا، والتبرّعات سخاءً.

وبُغيةَ مواجهة جسامة المشروع، وضبطه، وإحكام إدارته، تحوّلت اللجنة التي تكوّنت، ليلة ولادة المشروع، إلى شركةٍ مساهمةٍ، تحت اسم "ملجأ المنكوبين"، غايته "استقبال طالبي الإحسان والمساعدة، باسم المسيح". هدَفٌ فذٌّ، في مثل تلك الظروف القاسية.

كان قد تيسّر، إذن، تكوين فريق العاملين في المشفى، من جرّاحين، وأطبّاء، ومعالجين، ومساعدين، وممرّضين، وصيادلةٍ. ولكنّ أعمال البناء كانت ما زالت تفتقر إلى مهندسين متمرّسين، وحريصين على أموال المتبرّعين. وخطر لبعض أعضاء اللجنة، تكليف شركة مقاولاتٍ بالمهمّة. ولكنّ حرص پادري پيّو على تفادي هدر فلسٍ واحدٍ من التبرّعات على نفقاتٍ نافلةٍ، وعلى تجنّب الغشّ والتلاعب، دفعه إلى الاستسلام لحدْسه الثاقب، الذي طالما حيّر الخبراء. فأوكل المهمّة إلى كاهنٍ صديقٍ ومواطنٍ له، لم يكن له من المؤهّلات سوى نزاهةٍ فولاذيّة الصّرامة، وحكمٍ سليمٍ، يُرشده إلى الخيار الصائب. فكلّفه بالإشراف على أعمال الحفر، تمهيدًا لإرساء الأساسات.

ومنذ الشروعِ بالعمل اتّضح أنّ العقبات التي أشار إليها معارضو المشروعِ، كانت أقسى وأعمق ممّا توقّعوا. فطبيعة الأرض الجبليّة كانت تقتضي اقتلاع تلالٍ من الصخور، قبل التمكّن من إرساء الأساسات.

وكانت الدروب الترابيّة البدائيّة المؤدّية إلى موقع البناء، لا تحتمل عبور الشاحنات والعربات الثقيلة. وكانت المسافة الشاسعة بين مصدر الموادّ، والموقع تضاعف أكلاف النقل أضعافًا.

فانبرى عمّالٌ مندفعون إلى تحويل تلك الدروب إلى طرقاتٍ معبّدةٍ مؤهّلةٍ، تحت إشراف كاهنٍ طيّبٍ، ومن أجل تحقيق حلم كاهنٍ قدّيسٍ.

وكان الكاهن المشرف على أعمال الحفر، تشجيعًا للعمّال، وبُغيةَ إزاحة السأم والتعب عن كواهلهم، قد ألّف أغاني تُشيد بالمشفى الحلم، وبالمحبّة، والألم المقدّم تضحيةً فدائيّةً، وتتغنّى بمحبّة پادري پيّو. وكانت أنغام تلك الأغاني تصدح من الصباح حتّى المساء، داخل الورشات، وعلى دروب الذهاب والإياب.

دامت أعمال الإعداد تسع سنواتٍ، وفي تلك الأثناء، كان موقع البناء قد زُوِّد بأكبر قدرٍ من الاستقلاليّة، بقدرة حصوله على الموادّ اللازمة بأسرعِ مهلةٍ، وآلات تقطيع الرخام وصقله، وبمولّداتٍ كهربائيّةٍ، توفّر للمشروعِ الطاقة اللازمة، وجُرّت إلى الموقع المياه، وبُنيت فيه خزّاناتٌ تحتفظ بمياه الأمطار، وأُنشئ فيه معملٌ لصقل الحجار المستخرجة من مقلعٍ قريبٍ.

ولمّا انتهت الأعمال التمهيديّة، وحان وقت مباشرة أعمال البناء، تطوّعت مجموعةٌ من المهندسين لوضع مخطّطاتٍ معماريّةٍ تلبّي تصوّر پادري پيّو وحلمه. ووقع اختيار اللجنة على مخطّطٍ، أعدّه مقاولٌ يُدعى "أنجيلو ليوني لوپّي" (Angelo Leone Lupi)، الذي لم يكن يحمل دپلوم هندسةٍ، ولكنّه كان قد مارس، في حياته، كلّ الأعمال التي

يمكن تخيّلها: التصوير الفوتوغرافيّ، وكتابة السيناريوهات، وأعمال النجارة، إلى جانب مقاولات البناء.

كان مخطّطه قد تميّز بالفخامة التي طمح إليها الأب پيّو، ويتيح بناء مشفًى من أربع طبقاتٍ واسعة، على مساحة ستّة آلاف مترٍ مربّعٍ. وقد ساعده الدكتور سانغينيتّي، رئيس اللجنة الطبّيّة، في وضع تصميمٍ يلبّي مقتضيات المشافي الراقية. ثمّ تضافرت جهود ثلاث مئة عاملٍ، على النهوض بمأثرة الأب پيّو الطبّيّة الخيريّة الكبرى، عاملين باندفاعٍ وهوًى من أجل أبٍ محبوبٍ، وتحت إشراف رجلٍ موهوبٍ يُدعى "أنجيلو ليوني لوپيّ".

كان أنجيلو هو الرجل الذي يحتاج إليه پادري پيّو، كي ينفّذ أبرع تنفيذٍ، مشروعه الذي وصفه كثيرون بالجنون. وقد أكبّ على تنفيذه بهوًى مضطرمٍ. وكان منذ البدء قد اعترف أنّه لا يحمل دپلوم هندسةٍ، فردّ عليه الأب: "الله هو الذي منحك دپلوم الهندسة". فقد كان يتمتّع بما يرمز إليه اسمه[١]: ذكاء الملائكة النيّر، وقوّة الوحوش وعنفوانها، وبحدْسٍ ثاقبٍ، وبعبقريّةٍ خلّاقةٍ تحطّم الأُطر الجامدة.

وكان أنجيلو يسترشد بخبرة الدكتور سانغينيتّي، في كلّ ما يتعلّق بتنظيم أبنية المشافي وبتجهيزاتها.

ولا ريب أنّ الدكتور سانغينيتّي، كان روح تنفيذ مشروع "البيت"، وفق الصورة التي رسمها عنه پادري پيّو. فقد كان الدكتور قد ولج إلى أعماق قلب الأب پيّو وفكره، وكرّس لمشروعه كلّ طاقاته، وأفلح في جمع شخصيّاتٍ متباينة الاتّجاهات، على دعمه. وعمل باندفاعٍ ناريٍّ، وتجرّدٍ مطلقٍ، واستطاع بثّ روح الأب في نفوس جميع الذين اهتمّوا بذلك المشروع، عن قربٍ أو عن بعدٍ، وطمأن الذين كانت جسامة المشروع قد أثارت قلقهم،

---

١ أنجيلو= ملاك. ليوني= أسد. لوپي= ذئاب (دياب). (Angelo Leone Lupi)

وجعل من كلّ حاجٍ إلى سان جُوڤانّي رُتوندو، مساهمًا في تنفيذ ذلك المشروع الفريد، وفي بناء ذلك الصرح الشاهق، متخطّيًا العقبات الكأداء التي نهضت في وجهه.

وقد تعذّر على كثيرين فهم إصرار الأب پيّو على فخامة المشروع، لأنّ هدفه لم يقتصر على خدمة فقراء سان جُوڤانّي رُتوندو وفوجّا، بل تطلّع إلى إشادة صرحٍ طبّيّ، قادرٍ على اجتراح حلولٍ لأكثر المشاكل الطبّيّة استعصاءً. ولذلك لم يضنَّ بشيءٍ، وحرص على استخدام أفضل الموادّ والتجهيزات، مهما غلا ثمنها، ولا سيّما أنّ سخاء المتبرّعين كان بمستوى طموحاته.

وقد رفض رفضًا قاطعًا الاستدانة من المصارف، مكتفيًا بالتمويل الذي كانت العناية الإلهيّة توفّره له من خلال نفوسٍ سخيّةٍ، وفي الوقت المناسب.

ومن المحزن أنّ أشدّ من عارضوا إنفاقه على البيت، وحاربوه بشراسةٍ، هم رؤساؤه الكبّوشيّون، وإخوته الرهبان، وأساقفةٌ فاسدون، لا حرصًا على مالٍ، آثروا إنفاقه على مشاريع رسوليّةٍ، بل محاولةً لتسديد ديونٍ باهظةٍ، كانوا قد تورّطوا فيها، من جرّاء مضارباتٍ حمقاء، أقدموا عليها، انتهاكًا لنذر الفقر الذي التزموا به، وطمعًا في مكاسب سريعةٍ، يبتنون بها لذواتهم صروح مجدٍ باطلٍ.

وسنستفيض في بيان المعركة التي شنّوها عليه، في فصلٍ لاحقٍ.

ومع كلّ ما تعرّض له المشروع من مقاوماتٍ، انتهى إلى تحفةٍ مذهلةٍ. بل إلى صرحٍ طبّيّ شاهقٍ، فريدٍ، لا يضاهي، فقط، أحدث المشافي العالميّة، بل تميّز عن كثيرٍ منها بتحديثاتٍ غير شائعةٍ، آنذاك، مثل تحويل العديد من الأَسقف والشرفات إلى مهابط للهيلوكوبتيرات، التي تأتي بمصابين محتاجين إلى علاجٍ سريعٍ، وتدفع عنهم مخاطر الانتقال بالسيّارات أو القطارات، هادرةً وقتًا ثمينًا، ومضاعِفةً أخطار الموت.

المأخذ الوحيد الذي يمكن التنويه به، هو الإسراف في البذخ على أُبّهة واجهة المشفى، وعلى تزيين داخله، وفخامته المفرطة المتناقضة مع الفقر الكبّوشيّ، الذي تبرزه الأديرة الكبّوشيّة، ومع الفقر الذي لم يحِدْ عنه الأب پيّو قيد شعرةٍ، طيلة حياته، والتزم به إخوانه الرهبان الأوفياء لرسالتهم ونظامهم الفرنسيسكانيّ.

وربّما توخّى الأب پيّو من ذلك التناقض الصارخ التعبير عن حبّه الحارق للفقراء المهملين، وعن البذخ الذي يستأهله بيتٌ موقوفٌ على خدمتهم، وحرصه على إذاقتهم شيئًا من طعم الرفاه، الذي لم يعهدوه قطّ في حياتهم.

ولا غروَ أنّ ذلك الراهب الكبّوشيّ، المدموغ بسمات الصلب، كان، من خلال "بيت تخفيف الألم"، رائدًا في "أنسنة الطبّ".

وما إن انتهت الحرب، وتيسّرت المواصلات، حتّى تقاطرت قوافل الحجّاج إلى سان جُوڤانّي رُتونّدو، وتنافسوا سخاءً في العطاء، من أجل تأمين ذلك المشفى الفذّ.

وهكذا، نهض "بيت تخفيف الألم"، الفريد، على سفح جبل "غرغانو" في جنوب إيطاليا، مثلما كانت قد نهضت الكاتدرائيّات الكبريات، بكلّ روعتها، في القرون الوسطى، مُطِلًّا من مسافة ٦٥٠ مترًا على البحر الأدرياتيكيّ، الذي كان يعكس صورة "البيت" على صفحاته المتموّجة.

هذا البناء المدهش بروعته، وحداثة تجهيزاته، وروح المحبّة الإنجيليّة الذي ألهم ولادته، وواكب تشغيله، استأهل ثناء البابوين پيّوس الثاني عشر، وبولس السادس، وجمهرةٍ من قِمَم السياسة والعلم والفنّ.

وكان المشفى، عند الفراغ من بنائه، يتّسع لثلاث مئةٍ وخمسين سريرًا، ولكنّ مؤسّسيه قد أعدّوه لتوسيعٍ مُطّردٍ، وبفضل استمرار تدفّق التبرّعات، ارتقت قدرته الاستيعابيّة إلى خمس مئةٍ، فإلى سبع مائةٍ، فإلى ألف سريرٍ.

ونظرًا لوجوده في منطقةٍ جبليّةٍ معزولةٍ، زوّده مؤسّسوه بكلّ مستلزمات الاستقلاليّة. فكان له ورشات تصليح المعدّات الخاصّة به، ومنجرتُه، وصيدليّتُه، ومختبراته، ومطابخُه، ومغاسلُ الأغطية والثياب، ومحطّته الحراريّة، ومحطّته الكهربائيّة، ومحطّات تعقيمٍ، وتكريرٍ للمياه، ومرآب سيّارات الإسعاف، ومرآبٌ للسيّارات، ومكاتبُ إداريّةٌ، وعياداتٌ، ومطبعةٌ خاصّةٌ، ومساكن للعاملين فيه، وقاعات محاضراتٍ، وقاعة سينما، ومركزٌ موسيقيٌّ، وكنيسةٌ صغيرةٌ.

وأُلحِق بالمستشفى مركزٌ لطبّ العيون، وآخر للأمراض الجلديّة، وللعمليّات التجميليّة، وللمعالجة الفيزيائيّة، ومحجرٌ للمصابين بأمراضٍ مُعديةٍ، ومدرسة تمريضٍ، ومركز خدماتٍ عامّةٍ.

واستخدم "البيت" خمسةً وأربعين طبيبًا، متفرّغًا للعمل في المشفى حصرًا، ومكرِّسًا له وقتَه كلّه، ولا يملك أيٌّ منهم عيادةً خاصّةً تصرفه، ولو جزئيًّا، عن تلك المهمّة.

وكان الأطبّاء يُنتقَون من أصحاب الكفاءات المهنيّة الرفيعة، والضمير المهنيّ الحيّ، ويحمل معظمهم دبلوم پروفسّور. وكانوا يسكنون على مقربةٍ من البيت، كي يلبّوا الحالات الطارئة بلا تلكّؤٍ، ويتمكّنوا من مراقبة مرضاهم باستمرارٍ، ويتفادوا المضاعفات، التي يسبّبها انشغال كثيرين من الجرّاحين عن مراقبة مرضاهم، قبل العلميّات وبعدها.

وتطوّع أئمّة الطبّ الإيطاليّون في شتّى ميادين الطبّ، لتقديم العون والخبرة لأطبّاء "البيت" الجدُد، ولإكمال خبراتهم. ولم يتوانَ اختصاصيّون شهيرون عن القدوم من روما، من أجل إجراء عمليّاتٍ شديدة الدقّة.

ولا عجب أن أصبح "البيت"، سريعًا، موئل حياةٍ، ومركز أبحاثٍ طبّيّةٍ رفيعةٍ، وحَضَنَ، منذ أيّامه الأولى مؤتمراتٍ طبّيّةً جمعت ألمع العلماء العالميّين في عالم الطبّ.

وأمسى أطبّاء كثُرٌ، ومدراء مؤسّسات عنايةٍ طبّيّةٍ، ينصحون مرضاهم بالاستشفاء، في ذلك "البيت".

وأضحت مدرسة التمريض الملحقة بالبيت مشتلًا لنخبة الممرّضات الإيطاليّات.

لقد توخّى مؤسّس "البيت" أن يجعل منه "مكانَ صلاةٍ وعلمٍ". وجعله تفاني العاملين فيه، الذين استمدّوا طاقاتهم من قداسة پادري پيّو، مدينةً طبّيّةً مُحقِّقةً لأكثر مقتضيات الطبّ الحديث تقدّمًا.

وبفضل هذه المواصفات المثلى، طبّيًّا وإنسانيًّا، بات "البيت" يضاهي أشهر المراكز الطبّيّة في العالم. ومع ذلك، ظلّ "پادري پيّو" يحلم بمدينةٍ طبّيّةٍ كبرى، ولكنّ مقاومةً لم يتوقّعها، أجهضت حلمه.

وكان إنشاء "البيت" الفريد، وما واكبه من دعاوةٍ إعلاميّةٍ، مبعث ازدهارٍ لبلدة سان جُوڤانّي رُتوندو، التي استقطبت قوافل الحجّاج من كلّ صوبٍ. وفُتِحت أبواب العمل لمعظم سكّان البلدة، فتحرّروا من الفقر والحرمان، وعكفوا على إنهاض بلدتهم، فحوّلوا الدروب الترابيّة الملأى بالحُفر، إلى طريقٍ معبّدٍ، يوصل إلى باب الدير، وتسلكه كل أنواع السيّارات. فنشطت حركة المرور والبناء، ونبتت المنازل الجديدة، والفنادق، والمتاجر، كما ينبت الفطر، وسطعت في الأحياء الأنوار الكهربائيّة، حتّى بدت البلدة لزائريها، وكأنّها ضاحية مدينةٍ حديثةٍ، وأصبح التنزّه فيها، ليلًا، على مقربةٍ من صومعة قدّيسٍ، قلّما تجود السماء بمثله، مُتعةً للزائرين، وقبلةً للحجّاج.

وقد وصف البابا پيّوس الثاني عشر ذلك المشروع، بأنّه ثمرة أحد أنبل الإلهامات، ومثلًا أعلى نَضجَ بتؤدةٍ، على اتّصالٍ بمختلف مظاهر الآلام الجسديّة الأشدّ إيجاعًا".

يومُ تدشين "البيت"، في ١٩٥٦/٥/٥، كان يومًا مجيدًا. فبانتظار حضور پادري پيّو للاحتفال بالقدّاس في الهواء الطلق، كان أكثر من ثلاثين ألف مؤمنٍ، قد احتشدوا

في ساحة المستشفى، وملأوا الشوارع المؤدّية إليه، يتأمّلون بدهشةٍ وإعجابٍ أعلام معظم دول العالم، ورايات المدن الإيطاليّة الكبرى، الرامزة إلى تكاتف المحبّة العالميّة على إنشاء "البيت"، وهي تتموّج في فضاءٍ لازوَرْديٍّ، فوق بناءٍ يتألّق بياضًا.

وكان زهاء ثلاث مئةٍ من ممثّلي الصحافة العالميّة، يتزاحمون حول رئيس مجلس الشيوخ، ممثّلًا الدولة الإيطاليّة، وكبار السياسيّين، وأئمّة الطبّ القادمين من مختلف أرجاء العالم، للاشتراك في مؤتمرٍ يحضنه "البيت" في اليوم التالي، من أجل أبحاثٍ تتعلّق بأمراض الشرايين التاجيّة.

وعقب القدّاس الذي تابعه الحضور بخشوعٍ لافتٍ، تلا الكردينال "ليركارو" (Lercaro)، ممثّلًا الحبر الأعظم، برقيّة تهنئة البابا پيّوس الثاني عشر. ثمّ ألقى الكردينال خطابًا، استهلّه بعبارة: "لا داعي للكلام عندما يتكلّم الواقع ببلاغةٍ". وألحقها بقول: "حيث تسود المحبّة، يقيم الله". وأردف: "اليوم يتجلّى وجود الله هنا، لأنّ المحبّة والحبّ حاضران".

وأخيرًا، تكلّم پادري پيّو، فشكر جميع المحسنين، من كلّ جهات العالم، الذين أسهموا، مع العناية الإلهيّة، في إنشاء "البيت". وتابع:

«لقد غَرَسنا في التربة بذارًا سيُدفئه الله بأشعّة حبّه، كي يُنبِت جيشًا قوامه التجرّد، والحبّ، والتفاني في تمجيد الله، والعمل على إنعاش النفوس والأجساد العليلة. فلا تضنّوا علينا بمساعدتكم، وساهموا في رسالة تخفيف الآلام البشريّة، كي يُغدِق الله حبّه اللامحدود، وكنوز نِعَمه على كلٍّ منكم. إنّي أوكل إليكم حماية هذا "البيت" من الفناء جوعًا، والسعي إلى جعله مدينةً طبّيّةً، قادرةً على مسايرة أجرأ مقتضيات الطبّ المتقدّم، وفي الآن عينه، خاضعةً لنظامٍ فرنسيسكانيٍّ نُسْكيٍّ، مجاهدٍ، ومكانَ صلاةٍ وعلمٍ، حيث يتّحد الجنس البشريّ بالمسيح المصلوب".

"لقد اجتزنا مرحلةً من طريقنا، فلا نُبطِئَنَّ السـير، وَلْنلبِّ، باندفاعٍ، دعوةَ الله إلى الانطلاق قُدُمًا على سبُل الخير، وَلْيؤدِّ كلٌّ منّا واجبَه، أنا بصلاتي المستمرّة، بصفتي خادمًا نافلًا لربّنا يسوع المسيح، وأنتم برغبتكم المضطرمة في ضمّ البشريّة المتألّمة بأجمعها، إلى قلبكم، وتقديمها، معي، إلى رحمة الآب السماويّ.

"وَلْنمضِ قُدُمًا، بروح تواضعٍ كلّيٍ. وَلْيباركِ الربّ كلَّ مَن عمل، وسيعمل في هذا "البيت"...»

وبعد القدّاس والاحتفال، حرص رئيس الدير على دعوة أقطاب طبّ القلب، القادمين للمشاركة في المؤتمر الذي سينعقد في "البيت"، على الغداء، وجلس پادري پيّو بينهم. فقال البروفسّور "وايت" (White) الأميركيّ: "إنّي أعود إلى أميركا، وأنا شديد الإعجاب بعمل پادري پيّو. إنّ هذا المشفى، أكثر من أيّ مكانٍ آخر في العالم، يبدو لي النموذج الأمثل المؤهّل لدراسة العلاقة القائمة بين الروحِ والمرض، وليس أفضل منه من أجل هذه الدراسة".

وعلّق زميلٌ أميركيٌّ: "كلّ شيءٍ هنا ممتازٌ ورائعٌ. ولكنّي لا أخفي ضيقي من عدم وجود سوى پادري پيّو واحدٍ. إنّه لمؤسفٌ، حقًّا، ألّا يوجد أمثالٌ له". ولمّا سمع الأب پيّو ترجمة هذا القول، غطّى وجهه بيديه، قائلًا: "حماكم الله، من هذا المصاب!".

أمّا الثناء الأبلغ، فقد ورد على لسان البرفسّور السويديّ "غوستاف نيلن" (Nylin)، الذي قال: "ننحني باحترامٍ، أمام پادري پيّو صانع صرح المحبّة الرائع هذا. فهو، بإيمانه المنيع والجريء، وبحبّه للقريب، يقدّم لنا مثالًا رائعًا في التجرّد من أجل خدمة البشريّة. هذا المستشفى هو التعبير الحيّ عن روح السامريّ الرحيم. نتمنّى من صميم قلوبنا، أن يبارك الله إلهام پادري پيّو الورِع. فبفضل هذه المبادرة، سيستمدّ

زملاؤنا مؤازرةً علميّةً وفيرة الجدوى، ودعمًا أدبيًّا جمًّا. إنّي أقول هذا بصفتي رئيس جمعيّة أطبّاء القلب في أوروبّا".

كان بادري پيّو يُؤْثِر التزامَ الصمت، بعد كلّ ما سمع. غير أنّه، نزولًا عند إلحاح الأطبّاء الزائرين، قال لهم: "... مهمّتكم هي معالجة المريض. ولكن إن لم تتلفّظوا بكلماتِ حبٍّ للمريض المُلْقَى على سريره، فلستُ أظنّ أنّ أدويتكم ستؤتيه شفاءً... احملوا الله إلى المرضى، فهو خيرٌ من كلّ علاجٍ. وليبارككم الله...".

غداة المؤتمر استقبل قداسة البابا پيّوس الثاني عشر الأطبّاء المشاركين فيه، وأشاد بالقيمة الروحيّة السّامية التي يرمز إليها "بيت تخفيف الألم"، الذي أَدخل إلى ميدان العلاج الطبّيّ المفاهيم الأعمق إنسانيّةً، وسموًّا روحيًّا.

وجديرٌ بالتّنويه أنّ البابا پيّوس الثاني عشر، كان من أكثر الباباوات تقديرًا للأب پيّو، ومن أصدقهم تثمينًا ومباركةً لمنجزاته، ولا سيّما "بيت تخفيف الألم"، و"جماعات الصلاة"، التي شجّعها، في حين دفع الطّمع والحقد والأنانيّة أساقفةً على عرقلتها ومنعها. ولا ريب أنّ موقف ذلك البابا الاستثنائيّ، يكفي للإطاحة بكلّ العداوات المغرضة والحقيرة، التي شنّها عليه أساقفةٌ، ومدّعو علمٍ، وحتّى بعض أعضاء جمعيّته الكبّوشيّة.

وارتقى البابا إلى أسمى الأجواء، في تبيان المغزى الروحيّ، لبيت تخفيف الألم، فقال: "إنّ المدعوّين إلى معالجة أسقام النفوس والأجساد، يتبيّنون سريعًا، مدى ترابط الألم الجسديّ، بكلّ أشكاله مع أقصى كيان الإنسان المتعلّقة بمصيره، وسلوكه حيال الله والبشر الآخرين، وبمعنى حجّ الإنسان الأرضيّ، ومسؤوليّاته الفرديّة والجماعيّة... "فعندما يوضع المريض، في الظروف المثلى، مادّيًّا وروحيًّا، لن يصعب عليه أن يكتشف

في العاملين على شفائه، أعوانًا لله، حريصين على تعبيد الطريق للنعمة الإلهيّة، ومن ثمّ تستعيد النفس صفاء رؤيتها لامتيازاتها، ولدعوتها فائقة الطبيعة. وحينئذٍ، يمكن التحدّث، حقًّا، عن تخفيف الألم، تخفيفًا واقعيًّا. من خلال البيت، الذي شاءه مؤسِّسُه ملاذًا للمحبّة والتفاهم والتفاني في الخدمة".

روحٌ جديدٌ كان قد تسرّب إلى الممارسات الطبّيّة، التي أرسى قواعدها پادري پيّو، وحدّد مفهومها البابا پيّوس الثاني عشر، وكان "بيت تخفيف الألم" مختبرها، ففيه يُعالَج الإنسان، نفسًا، وجسدًا، وفكرًا.

ولم ينسَ الحبر الأعظم التذكير بالعوائق الكأداء، والمصاعب التي أقامها في وجه الأب پيّو، الذين كان واجبهم دعمه ومؤازرته، والتي لم تقوَ على لجم اندفاعه البطوليّ، فمضى بمشروعه الفذّ حتّى نهايته، بفضل إيمانه الوطيد، وصبره وعناده، إلى أن نهض مشفاه، مأثرةً فريدةً، وكان واحدًا من أرقى المشافي الإيطاليّة تجهيزًا بأحدث الاكتشافات الحديثة، ومثّل أكثر من نجاحٍ مادّيٍّ مذهلٍ، فتحًا في مفهوم تخفيف الألم، المبنيّ على وحدة الفكر والنفس والجسد، في الكائن البشريّ.

ولم يغربْ عن بال الحبر الأعظم خطر المطامع التي ستسعّرها في نفوسٍ ضعيفةٍ المليارات التي ستُغدَق على المشروع. فسارع إلى اتّخاذ التدابير القانونيّة الحكيمة، التي وضعت المشروع في مأمنٍ، وحَمَتْه من مطامع مَن كان واجبُهم المساهمةَ في تنفيذه الآمن.

ولاحقًا، تضمّن البيت قسمَيْن، أحدهما للرجال، والآخر للنساء، وزُوِّد بمركز أبحاثٍ يمكّن الأطبّاء العاملين فيه، من تحديثٍ دائمٍ لمعلوماتهم ومهاراتهم ومواهبهم، وحياتهم الروحيّة.

وبالإجمال، لم يكن ذلك البيت مجرّد مؤسّسةٍ طبّيّةٍ حديثةٍ. فقد أُنشئ ليكون دعوةً إلى التعبير، بالمحبّة الفاعلة، عن حبّ الله للبشر، وحافزًا لكلّ متألّمٍ على عيش حبّ

الله، بتقبّل آلامه، وتذكّر مصير نفسه، فينمو حبّ الله في نفسه بفضل التأمّل في يسوعِ المصلوب. وحيث يبثُّ معالِجون حبّ المصلوب، يصبح نزلاء المشفى، وأطبّاؤه، وكهنته، مستودعاتِ حبٍّ.

وقد أثبت پادري پيّو، الصوفيّ الفذّ، خَطَل الذين يدّعون أنّ الصوفيّين يعيشون منفصلين عن الواقع الأرضيّ، فقد برهن الأب پيّو من خلال ما عدّه إنجازَه الأرضيّ الأكبر، إدراكه العميق، وواقعيّة رؤيته للمصير البشريّ، وللألم، ولا سيّما إلى الألم المقترن بالفقر. وكان يقول لكلّ قادمٍ، ناشدًا شفاء أمراضه الجسديّة: "أنا سأصلّي من أجل شفائك، وأنت اتبع تعليمات الطبيب". وغالبًا، ما كان يرافق الأطبّاء في زياراتهم الصباحيّة، فيُصلّي مع المرضى، وينصحهم باتّباع وصفات الأطبّاء.

جماعات الصلاة

"إنّ خلاصَ عددٍ لا يُحصى من النفوس، يعتمد على صلوات وتضحيات أعضاء من جسد المسيح السرّيّ، يتطوّعون لتقديمها لهذه الغاية. وخلاصُ الكنيسة يحتاج إلى شخصٍ يتألّم، ويعاني في ذاته آلام المسيح".

(البابا پيّوس الثاني عشر)

"الصلاةُ هي لنا مفتاحُ قلبِ الله، وهي، وحدَها، تملكُ القدرةَ على تغيير العالم".

(پادري پيّو)

كان پادري پيّو راسخ اليقين، بأنّ الرسالة لا تخصب، إلّا بدعم مصلّين يقدّمون أدعيتَهم وتضحياتهم من أجل نجاحها. فاستعانَ بأبنائه الروحيّين الكُثُر، ودعاهم إلى تأليف جماعات صلاةٍ تدعم الرسالات الروحيّة، وتندرج في سرّ الصليب الفادي. وكان بذلك يحقّق أهدافًا ثلاثةً:

– أن يؤتي "بيت تخفيف الألم" حصادًا وفيرًا، ووقايته من تعدّيات الطامعين ومن إساءات المغرضين.

– تلبية دعوة البابا پيّوس الثاني عشر، الذي قد طالبَ مرارًا، في غمرة الحرب العالميّة الثانية، بتأسيس جماعات صلاةٍ، ملتزمةٍ بالمبادئ المسيحيّة الجوهريّة، درءًا

لأهوال الحرب التي تهدّد مصير البشريّة جمعاء، والكنيسة الأمّ، معلنًا: "إنّ أشدّ ما تحتاج إليه الكنيسة، حاجةً حارقةً، هو مؤمنون يؤلّفون جماعات صلاةٍ، من جميع الفئات والطبقات الاجتماعيّة، ولا يخافون من توفيق سلوك حياتهم، ونشاطاتهم، مع وصايا الله، وتعاليم يسوع، ويعلنون إيمانَهم بجرأةٍ، ويحيَون الإنجيل بحذافيره، فيستأهلون أن يُسمَّوا "مسيحيّين".

هذا النداء وطّد يقين پادري پيّو بفاعليّة دور جماعات الصلاة، ومكانتها في سمفونيّة الكنيسة.

– تأكيد سير الأب پيّو في تيّار معلّمه الروحيّ القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، الذي أسّس جمعيّة راهبات القدّيسة "كلارا" (الكلاريس)، بغية دعم وإخصاب رسالة رهبانه الواعظين بصلواتهنّ المتواصلة وتضحياتهنّ الطوعيّة.

كانت تلك الجماعات تصلّي من أجل الوقت الحاضر ومن أجل الأبديّة، من أجل الثبات في الإيمان، ومن أجل الأموات، وكان الأب پيّو يرشدها من خلال تبادل الرسائل. وقد أضحت تلك المراسلات، التي نُشِرت، إثر وفاته، منارةً لنفوسٍ عديدةٍ.

وكان الأب پيّو يملك الجهاز المؤهّل لتلبية تلك الدوافع الثلاثة، إذ كان قد تجمّع من حوله جيشٌ من الأبناء الروحيّين المُشبَعين بروحه، والأوفياء لروحانيّته، فدعاهم إلى تنفيذ هذا المشروع، من خلال رسالةٍ وجّهها إليهم، يوم ١٩٦٦/٥/٥، قال فيها:

"كونوا بُؤَرَ إيمانٍ ومحبّةٍ، كي يكونَ المسيحُ حاضرًا في جماعاتكم، كلّما التأمتم للصلاة، أو للمشاركة في المائدة المقدّسة، تحت إشراف رعاتكم ومرشديكم الروحيّين".

كانت تلك الجماعات، إذن، خاضعةً لسلطة الكنيسة، وكان حضور كاهنٍ في كلّ جماعةٍ، شرطًا أساسيًّا. وكان على الكاهن أن يقود صلوات جماعات الصلاة، في رعيّته، بروح پادري پيّو.

ومنذ البدء، أوضحت جماعات الصلاة التي ألهمها پادري پيّو، أهدافها، من خلال كتيّبٍ، أكّدت فيه: "نريد أن ننفّذَ بأمانةٍ مبادئ الكنيسة الكاثوليكيّة المقدّسة، وشرائعها، وأنظمتها، التي نوليها أعمق إجلالٍ وخضوعٍ، وتفادي المبادرات الفرديّة، التي قد تلهمها غَيْرة النوايا الحسنة، لكنّها قد تفضي إلى إفساد غاية جماعة الصلاة".

لا ارتجال، إذن، ولا ثرثرة، بل اقتصارٌ صارمٌ وحازمٌ على الصلاة الصِرف، وتلاوة المسبحة بروحِ پادري پيّو، عن نيّة مقاصد الحبر الأعظم المتطابقة مع مقاصد الكنيسة، والاحتفال بالإفخارستيّا، بالاتّحاد مع الكنيسة جمعاء.

ولمّا سُئل الأب پيّو هل يمكن لجماعات الصلاة تنظيم محاضراتٍ أو نشاطاتٍ أخرى، كان ردّه قاطعًا، فالثرثرة لا تُفضي إلّا إلى تدمير الجماعة.

جماعات الصلاة الأولى نهضت، إذن، في ظلال "بيت تخفيف الألم"، الذي غذّته روحيًّا، منذ شهر تمّوز عام ١٩٥٠. وكانت معظمها إيطاليّةً، نابعةً من سان جُوڤانيّ رُتونّدو. ثمّ ما لبثت أن تفرّعت، وغزت أفنانها حقولًا شاسعةً، وغطّت بشبكتها العالم أجمع، وأثبتت وجودها في كلّ البلدان، وكلّ القارّات، وكانت كلّها "بنات قلب" الأب پيّو، وأدواتٍ لنشر روحانيّته، وتفعيل رسالته الكهنوتيّة، حتّى أقاصي المسكونة.

واستهدفت الصلاة تعويضًا عمّن لا يصلّون، وحبَّ الله تعويضًا عمّن لا يحبّونه، وبثّ "البُعد الروحيّ"، الذي يفتقر العالم إليه، كي تستقيم حياته. وكانت تولّد مشاريع محبّةٍ، وإنجازاتٍ فاعلةً واقعيّةً، مثبتةً أنّ الإيمان الذي لا يفعل، هو إيمانٌ ميتٌ.

وفوق كلّ ذلك، كانت جماعات الصلاة، التي وُلِدت من رحم "بيت تخفيف الألم"، ومن أجله، دلالةً دامغةً على أنّ ذلك البيت، الذي لم يحمل اسم "مشفًى" مع كونه من أكبر المشافي وأحدثها، كانت غايته أسمى من معالجة الأسقام الجسديّة، لأنّ مؤسِّسَه أرادَه أن يكون بؤرةَ حياةٍ روحيّةٍ وصلاةٍ، وعاملَ تنفيذ التعاليم الإنجيليّة.

ولطالما ردّد الأب پيّو: "فَلْنصغِ إلى دعوة الحبر الأعظم، وَلْنصلِّ ونَدعُ الآخرين إلى الصلاة". ولا عجبَ إن وصفت الصحيفة الناطقة بلسان الكرسيّ الرسوليّ، ذلك البيت بكونه: "مركز حياةٍ وتجدّدٍ روحيٍّ".

وبالإجمال، أثبت پادري پيّو، من خلال جماعات الصلاة، أنّه يُشارك الحبر الأعظم إيمانَه بأنّ الصلاة هي، في آنٍ واحدٍ، أساس الحياة الداخليّة، والعلاج الأوفر جدوًى لأسقام العصر: الجوع، والفقر، وتراخي الأخلاق العامّة، وهي الوسيلة المثلى للثبات في ممارسة الفضائل، والالتزام بتعاليم الإنجيل، وأنّ مصير العالم مرهونٌ بمقدار الصلاة وحرارتها.

وكان الحجّاج المتدافعون، أفواجًا، إلى سان جُوڤانّي رُتوندو، يعودون مضطرمين رغبةً في تنفيذ رغبات الكاهن القدّيس. فنشأت، في كلّ مكانٍ، "قداديس محبّةٍ"، و"قداديس غفرانٍ"، و"ساعة عبادةٍ دائمةٍ"، أو "ساعة صلاةٍ".

وللمرّة الأولى أُطلِقت، عام ١٩٥٠، تسمية "جماعة صلاةٍ"، وصدرت لوائح جماعات الصلاة المتّصلة "ببيت تخفيف الألم"، في عشرات المدن الإيطاليّة.

ثمّ انتشرت "جماعات الصلاة" في العالم أجمع، وكان لها حضورٌ فاعلٌ، حتّى في البرازيل والهند، وارتقى عددها، عام ١٩٥٦ إلى سبع مئة جماعةٍ.

وقد وُضِع لهذه الجماعات نظامٌ، صادقت عليه أمانة سرّ الكرسيّ الرسوليّ في ١٩٨٦/٥/٣.

وبتاريخ ٢٠٠٦/١٠/١٤، استقبل البابا بينيدكتس السادس عشر أعضاء تلك الجماعات في روما، ووصفها بأنّها: "عملٌ يقرع باستمرارٍ قلبَ الله، مثل جيشٍ من المتشفّعين والمكفّرين، ملتمسين النِعَم الضروريّة للكنيسة وللعالم".

عدد هذه الجماعات، في جميع قارّات العالم، اليوم، يتخطّى ثلاثة آلاف وخمس مئة جماعةٍ. وكلٌّ منها تابعٌ لسلطة رعيّةٍ كنسيّةٍ.

ومنذ البدء أرادها پادري پيّو أن تكون دعمًا لبيت تخفيف الألم، وبركان حبٍّ وخلاصٍ للعالم أجمع.

وفي تيّار الأب پيّو، نهج أساقفةٌ إيطاليّون. ففي عام ١٩٥٦، دعا الأسقف "مونتيني"، الذي كان آنذاك رئيس أساقفة ميلانو، وأصبح في عام ١٩٦٣، البابا بولس السادس، ثلاث مئة كاهنٍ من رعيّته إلى تكوين "جماعات صلاةٍ". وعام ١٩٥٩ التأم مؤتمر اتّحاد جماعات الصلاة الأوّل، ثمّ عقد مؤتمره الثاني، عام ١٩٦٠، في مدينة بولونيا الإيطاليّة، برعاية سبعة عشر أسقفًا، وأرسل لهم البابا يوحنّا الثالث والعشرون برقيّة دعمٍ وبركةٍ.

ولا ريب أنّ عزاء الأب پيّو الأخير، كان اعتراف الكرسيّ الرسوليّ، رسميًّا، بجماعات الصلاة، وبضعة أسابيع قبل وفاة پادري پيّو، أي يوم ١٩٦٨/٧/٣١، عيّن الحبر الأعظم كاهنًا كبّوشيًّا، مسؤولًا عامًّا عن جماعات الصلاة.

وعشيّة انتقال الأب القدّيس إلى دار الخلود، احتفل باختتام المؤتمر الرابع لاتّحاد جماعات الصلاة، وأسعده أن يقدّم له بركته الأخيرة، وأن يورّث الكنيسة تلك الجماعات التي كان يَعدّها بؤبؤ عينيه، والتي كانت إنجازَه الأرضيّ الثاني العظيم.

اضطهاد عَبَدة ممّون (إله المال)

"إنّ جميعَ الذين يُريدون أن يحيَوا بالتقوى في يسوعِ المسيح يُضطَهَدون".

(بولس الرسول ٢ تي: ٣: ١٢)

في عشرينات القرن العشرين، كان الأب پيّو ضحيّةَ فسق بعض رجال الدين، وكبرياء لاهوتيّين مُعتدّين بعلمِهم، وقد أسهبنا، من خلال فصولٍ سابقةٍ، في وصف تلك الاضطهادات. وبعد عشر سنواتٍ من الإهانات وفنون الافتراء والإذلال، انصبّت على الكاهن القدّيس، أشرق نور الحقيقة، وحلّ التكريم محلّ الاضطهاد.

وفي ستّينات القرن، عادت حملات الاضطهاد تقضّ مضجع الأب پيّو، بمزيدٍ من الشراسة والحقد، وكان أبطالها زبانية "مَمّون" إله المال، الذي لا يرحم. والمحزن أنّ متزعّمي تلك الحملة كانوا رؤساء الأب پيّو، وإخوةً له، في الجمعيّة الكبّوشيّة، التي كان پادري پيّو زهرتها، ومدعاة فخرها، ومنارة شهرتها.

وكان سبب حملة الاضطهاد الشرس تلك، تورّط أديرةٍ كبّوشيّةٍ، ولا سيّما في منطقة "فوجّا"، التي كان دير سان جُوڤانّي رُتونْدو يخضع لسلطتها، في فضيحة احتيالٍ مدوّيةٍ، كان بطلَها مهندسٌ نجح في إنشاء مؤسّسةٍ مصرفيّةٍ، تقدّم قروضًا لمؤسّساتٍ دينيّةٍ، حتّى اكتسب لقب "المصرفيّ الصوفيّ"، أو "مصرفيّ الله"، في حين كان هدفه الاحتيال، وكان اسمه "جوفْري" (Gioffri).

ومع أنّ البابا پيّوس الثاني عشر، كان قد استشمّ، باكرًا، رائحة الاحتيال الزاكمة المنبعثة من أعمال "جيوفّري"، وحذّر المؤسّسات الكنسيّة والأديرة، ورجال الدّين من التعامل معه، غير أنّ الفوائد الخياليّة التي كان "جيوفّري" يَعدُ بها، مَن يودعون أموالهم لديه، والتي قد ترتقي إلى مئةٍ بالمئة، اجتذبت إلى شبكتها أساقفةً، ورؤساء أديرةٍ، فأودعوا لديه ميزانيّات أبرشيّاتهم وأديرتهم. ودفع المصرفيّ المزعوم، لهم، عن الإيداعات الأولى، الفوائد الموعودة، مسعّرًا نَهَمَهم، فاستدانوا مدّخراتِ المؤمنين البسطاء، وأودعوها لديه، أملًا، لدى بعضهم بالبحبوحة ورغد العيش، ولدى آخرين في بناء مدارس وكنائس، تُصبح لهم صروحَ مجدٍ وخلودٍ.

وبما أنّ حبلَ الاحتيال، مثل حبل الكذب قصيرٌ، انتهت مغامرات "جيوفّري" إلى مصيرها المحتوم، وأعلنت محاكم إيطاليّةٌ، عام ١٩٥٨ إفلاس جيوفّري ومصرفه. وتعيّن على المودعين الأغبياء الذين أعمى الجشع بصائرهم، تسديد المليارات التي استدانوها من فقراء بسطاء، والتي كانت تفوق طاقاتهم الماليّة، بلا قياسٍ، فعلى سبيل المثال، ارتقت ديون دير "فوجّا" إلى نحو ملياري ليرةٍ إيطاليّةٍ، فيما لم يكن محتوى صندوق الدير يتخطّى مليون ليرةٍ.

ولم يجد المتورّطون مخرجًا من أزمتهم سوى الاستيلاء على التبرّعات السخيّة المتدفّقة على صندوق "بيت تخفيف الألم"، وكان البابا پيّوس الثاني عشر، ببعد نظره، قد توقّع مخاطر هذه الهجمة على أموال "البيت"، فأعفى الأب پيّو من نذوره الرهبانيّة، كي يتلقّى الهبات، ولا يُكرَه على التخلّي عنها بأمر طاعة رؤسائه، ونصحَه بتسجيل كلّ أسهم شركة "البيت" باسمه، وبوضع البيت تحت وصاية الكرسيّ الرسوليّ.

وإزاء صمود الأب پيّو البطوليّ، ورفضه القاطع التفريط بليرةٍ واحدةٍ من التبرّعات المخصّصة للبيت، وفاءً لا يتزعزع لنوايا المتبرّعين، وتقديرًا لدعم الحبر الأعظم له، لم

يتورّع أساقفةٌ على محاربة الراهب القدّيس، ومنع رعاياهم من أيّ اتّصالٍ به، أو من التبرّع لمشاريعه. وقادهم الحقد إلى منع جماعات الصّلاة، التي ألهمها پادري پيّو، من ممارسة نشاطها في رعاياهم.

وأمعن الرؤساء الكبّوشيّون في استنباط أخبث فنون السطو والاحتيال، من أجل الاستيلاء على قسطٍ من تبرّعات "البيت"، ومصادرة الحوالات، والمبالغ النقديّة الواردة لهذا الغرض. وتوغّلوا في محاولات تشويه سمعة راهبهم القدّيس، وفي حرمانه من مساعدة أخٍ له، في حركته التي جعلتها جروح قدمَيْه شاقّةً ومؤلمةً، منتهكين بذلك، نظام جمعيّتهم الذي يفرض تلك المساعدة.

لا، بل تمادت الرئاسة الكبّوشيّة في تعدّياتها حتّى انتهاك المقدّسات، التي سنبيّنها في فصلٍ لاحقٍ.

وإمعانًا في محاولة استلاب ما استطاعوا من أموال "بيت تخفيف الألم"، توغّل الرؤساء الكبّوشيّون في انتهاك مبادئ الاستقامة والأمانة الأساسيّة، وواجب صون كرامة راهبٍ قدّيسٍ، مخالفين نظام جمعيّتهم. فلمّا حان أوان استبدال رئيس دير "فوجّا"، وهو، في آنٍ معًا، رئيس دير سان جُوڤانّي رُتوندّو الإقليميّ، عيّنت خلفًا له رئيسًا غريبًا عن المنطقة، إزراءً بنظام الجمعيّة الكبّوشيّة، القاضي بانتخاب رئيس كلّ ديرٍ من قبل رهبانه مباشرةً. وسرعان ما تبيّن أنّ تعيين ذلك الرئيس الغريب، لم يبرّره سوى براعته في الاحتيال، والتلاعب بالأمانات، وعزمه الصريح على سلب ما استطاع من تبرّعات "البيت"، بلا وازعٍ من ضميرٍ، وإخضاع الأب پيّو لمخطّطاته الآثمة.

وفي هذه الأثناء كان "بيت تخفيف الألم"، منذ عام ١٩٥٩، قد عمل، وتوسّع عدّة مرّاتٍ، وكلّف، حتّئذٍ، مليارَيْ ليرةٍ، تأمّنت جميعها من التبرّعات السخيّة، التي لم تجفّ

يومًا، ولم يستدِن الأب پيّو من مصرفٍ ليرةً واحدةً. وكان "البيت"، منذ افتتاحه، يعالج الفقراء مجّانًا، ويتقبّل تبرّعات المرضى الميسورين، وفقًا لأريحيّاتهم ولطاقاتهم المادّيّة، وبمنأًى عن فرض تسعيرٍ محدّدٍ. وكانت هذه التبرّعات تساعد على تسديد نفقات تشغيل المشفى. وكانت ساقية السخاء، التي لا ينقطع لها جريانٌ، تسهم في تسديد نفقات تشغيل المشفى، وأعمال التوسيع والتحديث المستمرّة.

وكانت معظم التبرّعات تُدفَع نقدًا للأب پيّو، أو بصيغة حوالاتٍ وشيكّاتٍ تصبّ، جميعها، في صندوق "بيت تخفيف الألم". وكان، الأب، في نهاية كلّ شهرٍ، يحوّل الفائض عن احتياجات المشفى إلى "مؤسّسة المشاريع الدينيّة" في الڤاتيكان.

وكان "أنجيلو باتيستا"، الذي انتخبه مجلس إدارة "البيت"، وكلّفه بمحاسبة "البيت"، يضطلع بها بأمانةٍ مطلقةٍ، ضابطًا كلّ واردٍ وكلّ إنفاقٍ بحرصٍ، ونزاهةٍ وشفافيّةٍ، ويزوّد الكرسيّ الرسوليّ، في نهاية كلّ سنةٍ، ببيانٍ دقيقٍ عن وضع "البيت" الماليّ.

وفي مطلع شهر تشرين الثاني ١٩٥٩، طلب الرّئيس الإقليميّ الجديد على دير "فوجّا"، من الأب پيّو مساعدةً ماليّةً، تتراوح قيمتها بين مئة مليونٍ ومئتي مليون ليرةٍ. وبما أنّ الأب پيّو، لم يكن يتعاطى الشؤون الماليّة، أحاله إلى المسؤول الماليّ عن "بيت تخفيف الألم"، الذي أجاب بعدم امتلاكه حقّ إنفاق أموال "البيت" على مساعداتٍ من هذا النوع، وأوضح، أيضًا، أنّ المبلغ الاحتياطيّ المتوفّر في صندوق "البيت"، لا يتعدّى خمسةً وخمسين مليون ليرةٍ، وهو معدٌّ لأعمال التوسّع الجارية في المشفى. وأخيرًا، تمّ الاتّفاق على إقراض الرئاسة الإقليميّة أربعين مليون ليرةٍ على دفعتَيْن، تُسدّد في مواعيد محدّدةٍ، بمثابة معونةٍ أخويّةٍ.

غير أنّ الرئيس الإقليميّ، عاد، في مطلع عام ١٩٦٠ إلى المطالبة بمبلغٍ يتراوح بين مئةٍ ومئتي مليون ليرةٍ، زاعمًا أنّ لدى "البيت" القدرة على منح هذا المبلغ، وأنّ على

الأب پيّو، بصفته ابنًا للرهبنة الكبّوشيّة، واجب تقديمه. وحيال تمنّع المسؤول المالي عن "البيت" من تلبية الرئيس الإقليميّ، توقّع الأب پيّو أن يُفرَض عليه الرضوخ باسم "الطاعة المقدّسة"، وإلّا فسيُحكَم عليه بحياةٍ أسوأ من حياة الجحيم. وهذا ما حدث فعلًا، بعد أن تمّ استبدال رهبان دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، المتضامنين مع پادري پيّو، بآخرين يلبّون رغبات الرئيس الإقليميّ الجديد، بلا نقاشٍ ولا اعتراضٍ.

حينئذٍ، لجأ الرئيس الإقليميّ الجديد إلى أسلوب السطو المباشر. فراقب الأب پيّو الذي كان يسلّم، يوميًّا، حصيلة التبرّعات الواردة إلى كاهن رعيّةٍ، يوليه ثقةً مطلقةً، وكان هذا الأخير ينقل كلّ ما تلقّاه، مباشرةً، إلى محاسب "بيت تخفيف الألم". وترصّد الرئيس الإقليميّ هذا الكاهن، وما إن خرج من صومعة الأب پيّو، حتّى وقف في وجهه، وأمره بتسليم ما لديه للمسؤول الماليّ عن الدير، لا إلى محاسب "البيت". وبديهيًّا، رفض الكاهن إلّا العمل بأمر الأب پيّو، ولم تمضِ أيّامٌ معدوداتٌ، حتّى عُزِل الكاهن الأمين عن مهمّته، وأُودِع في مصحّةٍ عقليّةٍ، وعُيّن مكانَه راهبان يدينان بولاءٍ أعمى للرئيس الجديد، وينفّذان، بلا تردّدٍ، كلّ رغباته ونزواته.

ثمّ عمد الرئيس الجديد إلى النهب المباشر، وشرع يصادر البريد الوارد، ولا يسلّم الأب پيّو إلّا الشيكّات المكتوبة باسمه، أو باسم "بيت تخفيف الألم"، ويحوّل إلى محاسب الدير كلّ ما لا يحمل، صراحةً، اسم مستفيدٍ.

ومضى الرئيس الإقليميّ الجديد، أشواطًا، في فنون الاحتيال والاختلاس، مستفيدًا من بطاقات شكرٍ، كان الأب پيّو يبعث بها إلى المحسنين، وطبع نموذجًا جديدًا عنها، استبدل فيه رقم حساب "البيت" المصرفيّ، برقم حساب الدير.

وانضمّ إلى زمرة الفاسدين المفسدين، راهبٌ كبّوشيٌّ سابقٌ، أصبح أُسقفًا على مدينة "بادوڤا"، يدعى "جيرولامو بورتينيون" (Girolamo Bortignon)، كان قد شارك رهبان

"فوجّا" همهم إلى الفوائد الدسمة، واستدان مبالغ طائلةً، أودعها لدى "جيوفّري"، ولمّا أبى الأب پيّو تسديد ديونه من تبرّعات "بيت تخفيف الألم"، أمعن في اضطهاد كهنة رعيّته، الذين كانوا يعلنون تقديرهم للأب پيّو، وكان أحدُهم كاهنًا قدّيسًا، يُدعى "ليوپولدو كاستلنووڤو" (Leopoldo Castelnuovo)، يقصده التائبون للاعتراف لديه، فمنع الأسقف الإكليريكيّين من الإقبال على كرسيّ تعريفه، مدّعيًا جهله مبادئ الأخلاق، وإفساد الضمائر، فمات قهرًا. وكان قد باح للمقرّبين منه، أنّ أسقفَه كان محنتَه الكبرى. وقد أعلن يوحنّا بولس الثاني قداسته، في ١٦/١٠/١٩٨٣.

وأمعن ذلك الأسقف، انتقامًا من رفض پادري پيّو مقاسمته تبرّعات "بيت تخفيف الألم"، في إشاعات افتراءاتٍ مخجلةٍ بحقّ الراهب، مختار الله، وفي إقناع البابا يوحنّا الثالث والعشرين بها. وتمادى ذلك الأُسقف في اضطهاد جميع مُحبّي الأب پيّو، فمنع كاهنَيْن تقيَّيْن من كهنته، كانا مُرشدَيْن لجماعات الصلاة، المستوحاة من روحانيّة پادري پيّو، وحَرَم من الأسرار سيّدةً، جمعت تبرّعاتٍ من أجل "بيت تخفيف الألم".

وجديرٌ بالتنويه، أنّ ذلك الأسقف، كان يستمدّ قوّته الإفساديّة من صداقةٍ قديمةٍ ربَطَته بالأُسقف "لوشياني" الذي أصبح البابا يوحنّا بولس الأوّل، ثمّ بالبابا يوحنّا الثالث والعشرين، واستطاع بوسوساته وافتراءاته النفاذ إلى قناعات ذلك الحبر الأعظم، الذي التزم موقفًا حذرًا من سمات صلب پادري پيّو، عملًا بحرص الكنيسة على اتّخاذ موقف الحيطة، والتأنّي، بشأن الظواهر فائقة الطبيعة قبل التثبّت من طبيعتها، ولا سيّما بعد أن تفاقم التدافع العالميّ على تكريم الراهب المدموغ بسمات صلب المخلّص، والذي كانت شفاعته، وأدعيته تُحدِث أشفيةً معجزةً.

وفي هذه الأثناء كانت ترد إلى الڤاتيكان شكاوى متناقضةٌ، بعضُها يتّهم الرئيس الإقليميّ الكبّوشيّ باختلاس تبرّعات "بيت تخفيف الألم" عنوةً، بينما كانت شكاوى

أُخرى تتّهم محاسبة "البيت" بالفوضى. فأرسل الڤاتيكان الأسقف "كروڤيني" (Crovini)، من أجل استجلاء الحقيقة. وأسفرت عشرة أيّامٍ من التحقيق الدقيق النزيه عن نصاعة حسابات "بيت تخفيف الألم" وسلامتها، وعن تعدّياتٍ لاأخلاقيّةٍ، من قِبَل رؤساء كبّوشيّين. غير أنّ الرئيس العامّ على الجمعيّة الكبّوشيّة، كان، مُذ أُحِيط علمًا بتكليف أُسقفٍ نزيهٍ التحقيق في ما يجري في سان جُوڤانّي رُتونّدو، قد ضغط على البابا يوحنّا الثالث والعشرين، كي يوفد مرسلًا رسوليًّا مواليًا له، يضع حدًّا للّغط السائد، وللفوضى المنتشرة، وأدّت هذه المبادرة، إلى إبطال مفاعيل تحقيق الأسقف "كروڤيني"، وإلى طمس الحقيقة.

وإمعانًا في الانتقام من پادري پيّو، بل في محاولة إلغائه، التقى الرئيس العامّ على الجمعيّة الكبّوشيّة، وستّةٌ من كبار مساعديه البابا يوحنّا الثالث والعشرين، وأقنعوه بإيفاد زائرٍ رسوليٍّ، يتحقّق من قدرات الأب پيّو، على إدارة مشروعٍ رحبٍ، وتقييم كفاءة المدير الذي اختاره للاضطلاع بإدارة "البيت". هذه المبادرة سوّلت للرؤساء الكبّوشيّين، أمل إطلاق يدهم في تدمير الأب پيّو، والاستيلاء على مشروعه الجسيم، وعلى ما يُغدِق عليه من تبرّعاتٍ سخيّةٍ، وبذلك تتسنّى لهم القدرة على سداد الديون الباهظة، التي كان جشعهم قد أوقعهم في شركها.

ولم يقتصر أبناء فرنسيس الأسّيزيّ، الذي أسّس وجودهم على اعتناق الفقر الطوعيّ المقدّس، على انتهاك نذور رهبانيّتهم، وعزوفهم عن ربّهم ومخلّصهم، إلى عبادة "مَمّون"، إله المال، بل تردّوا إلى قعر انتهاك المقدّسات، وإلى أدنى دركات الإثم، فنصبوا أجهزة تنصُّتٍ في كرسيّ تعريف الأب پيّو، وفي صومعته، وفي قاعة الاستقبال حيث كان يستقبل زائريه وأبناءه الروحيّين، وطالبي نصحه، آملين في الاطّلاع على مصادر التبرّعات ووسائل وصولها إليه، أو في التقاط كلمةٍ يدينونه بها، أو خللٍ لاهوتيٍّ يثبتون به عدم كفاءة أخيهم القدّيس، ويقضون بها عليه قضاءً لا قيامة منه، مستعينين

على تنفيذ مهمّتهم البغيضة، براهبَيْن مكلّفَيْن بمواكبة الأب پيّو في تنقّلاته، ودفعهما إلى التجسّس عليه، والوشاية به، بأمر الطاعة المقدّسة، غير عابئين بما قد يسبّبه هذا السلوك الأثيم، والمدان بكلّ الشرائع، من أذًى لجمعيّتهم التي كان الأب پيّو مدعاة فخرها وشهرتها العالميّة، والذي جعل من ديرٍ كبّوشيٍّ مُغرقٍ في الصغَر، تائهٍ في تلالٍ وعرةٍ معزولةٍ، مزارًا، تتداعى إليه قوافل الحجّاج من كلّ أقطار العالم.

وكان راهبٌ يلتقط، مساء كلّ يومٍ، خفيةً، الشرائط المسجّلة، ويستبدلها بأخرى، ويطّلع على كلّ ما جاء فيها، وقد بلغت به القحة، يومًا، أن أسمع سيّدةً كل ما باحت به في كرسيّ الاعتراف، للأب پيّو، سعيًا إلى قتل ثقة المؤمنين في قداسة معرّفهم.

وظلّت أجهزة التنصُّت تعمل مدى أربعة أشهرٍ، إلى أن ارتاب الأب پيّو، يومًا، بشيءٍ غريبٍ في غرفته، فقطع، بسكّينٍ صغيرٍ، شريطًا كهربائيًّا موصولًا بجهاز تنصُّتٍ، وكاد يحرق يده، ولاحظ آخرون أمورًا مُريبةً، فأُطلِق جرس إنذارٍ، وأُحيط الزائر الرسوليّ بذلك، فأمر بإزالة كلّ أجهزة التنصُّت.

في هذه الأثناء، كانت مداخلة المسؤولين الكبّوشيّين لدى البابا يوحنّا الثالث والعشرين، قد طمست التقرير، الذي أثبت فيه الزائر الرسوليّ الأُسقف "كروڤيني" (Crovini)، براءة الأب پيّو من كل التهم المساقة ضدّه. وأثبت نصاعة محاسبة "بيت تخفيف الألم" وكفاءتها. وأكبّ الكردينال "أوتّاڤياني" (Ottaviani)، على دراسة ذلك التقرير، الذي أدان اختلاس التبرّعات الواردة لصالح "بيت تخفيف الألم"، بأمر رؤساء كبّوشيّين. ووفاءً للواجب، سارع أمين سرّ الڤاتيكان إلى إصدار قراراتٍ بعزل الرؤساء والرهبان الكبّوشيّين المتورّطين في جرائم الاختلاس عن مراكزهم، واستبدالهم بآخرين. وفي الآن عينه، عيّن الأسقف "رونكا" (Ronca) المشهود له بالنزاهة، زائرًا رسوليًّا جديدًا.

وبما أنّ أجهزة التنصُّت كانت، آنذاك، ما زالت عاملةً، أخذ الرعب كلّ مأخذٍ بالرئيس العامّ على الجمعيّة الكبّوشيّة، فخفّ إلى مقابلة البابا يوحنّا الثالث والعشرين، للاعتراض على قرارات أمين سرّ الفاتيكان، المتعلّقة بأعضاء جمعيّته، بلا استشارته أو إعلامه. وهدّد بالاستقالة من منصبه، ما لم تُلغَ، فورًا، قرارات أمين سرّ الڤاتيكان، وما لم يُعيَّن زائرٌ رسوليٌّ آخر، غير الأسقف النزيه "رونكا"، وأسفرت هذه المبادرة عن إلغاء قرارات أمين سر الفاتيكان، واستبدال الأسقف "رونكا"، بالأسقف "مكّاري" (Maccari)، الموالي للكبّوشيّين الفاسدين، والممالئ للمختلسين، ومنتهكي المقدّسات.

وصل الأسقف "مكّاري" وكاهنٌ اختاره مساعدًا له، إلى سان جُوڤانّي رُتوندّو، ليلة ٢٦ تمّوز ١٩٦٠، واتّسم تحقيقهما، منذ اللحظة الأولى، بالانحياز والافتقار إلى الحنكة، وحسن النظر. وكان أوّل من استجوباه رئيس كهنة رعيّة سان جُوڤانّي، الذي كان في عشرينات ذلك القرن، يدور في فلك الأُسقف الفاسد "غالياردي"، وغارقًا في مستنقع "الحياة الحلوة"، ومشاركًا في اضطهاد الأب پيّو.

ولم يستجوب المحقّقان سوى مرّةٍ واحدةٍ، استجوابًا سطحيًّا، وجهاء البلدة، ومدير "بيت تخفيف الألم"، ورهبان الدير.

وكان الكاهن الذي اختاره الأسقف مساعدًا له، يقضي معظم أوقات النهار عاكفًا على مصادرة الرسائل الواردة إلى الأب پيّو ورهبان الدير، ممنّيًا نفسه بالعثور على بضعة ملايين الليرات، ولكنّه لم يعثر إلّا على طلبات صلواتٍ، وشكرٍ على نِعَمٍ مُنِحت بشفاعة الأب پيّو، وأحيانًا، على فتات تبرّعاتٍ زهيدةٍ. وفي المساء كان يغشى البارات والحانات، ويستسلم إلى اللهو والمجون. فأثار سلوكُه البغيض هذا استياء ثلّةٍ من شبّان القرية، فترصّدوه، ذات ليلةٍ، وهو عائدٌ من سهرته الماجنة، وانقضّوا عليه، ضربًا بالعصيّ، وركلًا بالأرجل، ولكانوا قضوا على حياته، لو لم يخفّ إلى نجدته، رهبان الدير، الذين أيقظهم الضوضاء.

بيد أنّ حماس أولئك الشبّان، لم يحُل دون اتّخاذ الأسقف المحقّق تدابير قمعيّةً، بحقّ محبّي پادري پيّو. فقد طرد التائبات القادمات للاعتراف من الكنيسة، وأغلق باب الدير في وجه الرجال، الذين كانوا قد مُنحوا دورًا للاعتراف، والراغبين بمقابلة الأب پيّو، من أجل شؤونهم الروحيّة.

وبغتةً، عاد الأُسقف المحقّق ومساعده إلى روما، قبل إنهاء التحقيق ثمّ عادا، بعد ستّة أيّامٍ، إلى سان جُوڤانّي رُتوندّو. واتّضح أنّ دافعهما إلى هذا التحرّك هو رغبتهما في الغياب عن احتفال پادري پيّو، بالذكرى الخمسين لسيامته الكهنوتيّة، التي جمعت حول ذلك الكاهن القدّيس عشرين ألف مؤمنٍ. وقد أرسل له، بهذه المناسبة، برقيّات تهنئةٍ، زاخرةً بالتقدير رهطٌ من كرادلة روما وبولونيا وشيكاغو، وكانت أفصحها تعبيرًا عن المحبّة والثناء برقيّة الكردينال "مونتيني"، رئيس أساقفة ميلانو، الذي انتُخب، بعد بضع سنواتٍ، حبرًا أعظم، باسم بولس السادس. وفيها أشاد الكردينال بكاهنٍ "أُغدِقت عليه المواهب السامية، واتّسم كهنوته بالخصب الوفير"، وقد شارك، أيضًا في تهنئة الأب پيّو ستّون أسقفًا إيطاليًّا، وكتّابٌ وسياسيّون مشهورون، أبرزهم: جوليو أندريوتّي، رئيس وزراء إيطاليا، ورسول البرص راوول فولّيرو، والكاتب البريطانيّ غراهام غرين.

ولكن لوحظ إحجام البابا يوحنّا الثالث والعشرين عن إرسال بركته للكاهن القدّيس، وربّما منعه من ذلك أمناء سرّه، ولم يرد في صحيفة الڤاتيكان الرسميّة أيّ ذكرٍ لهذا الحدث.

وكان الأب پيّو، قد كتب على غلاف الصورة التذكاريّة، التي وُزِّعت بهذه المناسبة، صلاةً أوجز فيها عصارة خمسين سنة كهنوتٍ خصيبٍ، هذا نصّها:

«يا مريم،

يا أمّ الكهنة الرقيقة، ووسيطة كلِّ النِعَم،

أدعوك من كلّ قلبي، أتوسّل وأتضرّع إليكِ،
أن تقدّمي شكري ليسوع، اليوم، وغدًا، وأبدًا،
عن نعمة خمسين سنة كهنوتٍ، تلك النعمة التي لا تُثَمَّن.
ويا يسوع، اغفر لي كلَّ خطاياي، وإهمالي وتقصيري،
وهبني القدرة على المسامحة، والصفح، والثبات.
أغدقْ بركاتِكَ على رؤسائي، وإخوتي،
واجعَل من جماعات الصلاة مناراتِ ضوءٍ وحبٍّ في العالم.

ويا مريم، أمّ المعتلّين وخلاصهم،
ساعدي، واحمي، وعزّي المرضى،
وأعيني بيتَ تخفيف الألم على الازدهار
وَهَبي العالم المدمَّر، السلام الحقيقيّ،
وهَبي الكنيسة الكاثوليكيّة انتصارَ ابنك.

١٠/٨/١٩٦٠»

في ذلك اليوم، كان الأب پيّو، راغبًا في نسيان معاناة المشاقّ والاضطهادات، وسرقات الرؤساء والإخوة، وخياناتهم، وإهانات الزائرين الرسوليّين. ومع توقّعه المزيد من القيود الموجعة، لم يكن يتمنّى، في ذلك اليوم، إلّا تذكّر نعم الله.

كان قد شارف الثالثة والسبعين من عمره، ومع ذلك، كان ما زال، داخليًّا، ذلك الكاهن الشابّ، في شهر آب ١٩١٢، العليل المنفيّ في مسقط رأسه پيِترِلْشينا، ضحيّة هجمات الشرّير، ومع ذلك، قادرًا على الكتابة إلى مرشده الروحيّ: "أجل، نفسي جريحة حبّ يسوع، وأنا مريض حبّه، وأعاني، باستمرارٍ، ألم هذه النار التي تَحرِق ولا تُفني".

عودة الزائر الرسوليّ ومساعده، يوم ١٤/١٠/١٩٦٠، بدّدت رهجة أمجاد اليوبيل الذهبيّ الخاطفة، إذ سارع الزائر الرسوليّ فورَ وصوله إلى وضع حواجز حديديّةٍ بين كنيسة الدير القديمة، حيث كان الأب پيّو يعرّف، والكنيسة الجديدة، التي كانت تحتضن الاحتفالات الكنسيّة، حؤولًا إلى دخول المؤمنين إلى حيث كان الأب پيّو يسمع الاعترافات.

واستمرّ التحقيق بنفس النهج العدائيّ السافر، ولم يتحرّج مساعد المحقّق الوقح من قول: "بركةٌ واحدةٌ من الزائر الرسوليّ خيرٌ من ألف غفرانٍ من الأب پيّو".

العامل الإيجابيّ الوحيد كان إزالة أجهزة التنصُّت، بعد أن فاحت فضيحتها. وسعى الكرسيّ إلى خنقها، بعزل مرتكبيها عن مناصبهم، ونقلهم إلى أديرةٍ أُخرى.

وأقفل الزائر الرسوليّ تحقيقه قبل إنهائه، لأنّه كان مستعجلًا إلى بثّ سمومه.

وبالإجمال، مثلما كانت كرامة سمات الصلب، التي جاد بها الربّ على كاهنه القدّيس، وميّزه بها، قد فجّرت عليه عواصف الاتّهامات الباطلة، والإهانات والاضطهادات، على مدى سنواتٍ، كان إنجازاه الأرضيّان، المتألّقان: "بيت تخفيف الألم" و"جماعات الصلاة"، قد فتحا عليه أبواب جحيم زبانية "مَمّون" إله المال.

وهذا ما أشار إليه الكردينال "ليركارو"، في خطابه بمناسبة مؤتمر اتّحاد جماعات الصلاة، عشيّة وفاة پادري پيّو، عام ١٩٦٨، فقال:

«إنّ ما أحزنَ الأب پيّو، حتّى الاحتضـــار، كان واجب الذود عن أموال "بيت تخفيف الألم"، التي كـانـت توفّرهـا محبّـة أبنـائـه الروحيّين. وصَــوْن نوايا المحسنين، التي من أجل الحفاظ عليها، كانت السلطات الكنسيّة العليا قد أعفَتْه من النذور النســكيّة، كي يتصــرّف بها كأنّها ملكه الخاصّ، ولكي لا يُكرَه على التنازل عنها إطاعةً لأوامر رؤســـاء جمعيّته، وحرمان إنجاز حياته الأكبر "بيت

تخفيف الألم" منها. وقد صمد الأب پيّو، وردّ كلّ محاولات رؤسائه غير المشروعة، بثقةٍ، وتواضعٍ، وسكينة نفسٍ.

غير أنّ ما فجعه، في أعماق نفسه، وأذاقه احتضارًا يحاكي احتضار المخلّص في بستان الزيتون، هو معاناته اضطهاد سلطاتٍ كان واجبها دعمه، عملًا بالتطويبات الموعودة للمضطَهَدين من أجل الإنجيل، فاحتمل، من أجل الكنيسة، مغبّات انحرافات بعض رجال الكنيسة، الذين حمّلوا الجماعة التي يحييها المسيح بروحه، أعباء ذنوبهم، وجشعهم ومطامعهم، وخسَّتهم، وانحرافاتهم.

"لقد تجرّع پادري پيّو مرارة الوسائل الاعتباطيّة، والتدابير الجائرة، القاسية والمهينة، والخبيثة، ولم يشكُ. عزلوه عن أصدقائه، فتنهّد، مثل يسوع: "عبثًا بحثتُ عن مُعزٍّ... ولكنّهم أبعدوا عنّي إخوتي وأصدقائي".

وعوضًا من الإخوة والأصدقاء، انقضّ عليه خصومٌ تدفعهم حقارة الحقد الذي لا يَحتَمل تفوّق الفضيلة، وتدعمه قوًى نافذةٌ. فأصبح إخوتُه جلّاديه، والذي كان، حسب التقليد الكبّوشيّ، عكّاز شيخوخته وسقمه، أمسى خائنه الحقير... "وظلّ يسوع صامتًا".

"حتّى العناية الإلهيّة صمتت، ولم تمنع عبيد أهوائهم الآثمة من تنفيذ مخطّطاتهم، بمُداخلةٍ سماويّةٍ. وربّما تنهدّ الأب پيّو داخليًّا: "ربّي لِمَ تخلَّيْتَ عنّي؟"».

وإثر تدخّل الزائر الرسوليّ، الأُسقف مكاري، عام ١٩٦١، أمر رئيس الجمعيّة الكبّوشيّة، مُكرَهًا، وفي نفسه غصّةٌ، التنازل عن مئتي ألف سهمٍ، تمثّل رأسمال "بيت تخفيف الألم" للكرسيّ الرسوليّ.

وكتب معرّف الأب پيّو، الأب "أغوستينو": "لا ريب أنّ أسباب آلام پادري پيّو كانت عديدةً، ولكنّه استسلم دائمًا، للمشيئة الإلهيّة".

وكان الأب أغوستينو قد سجّل في مذكّراته: "جاء الرئيس العامّ، جزيل الوقار، يوم ١٦/١١/١٩٦١، وبلّغ پادري پيّو قرار الكرسيّ الرسوليّ اعتبار "بيت تخفيف الألم" جزءًا من أعمال الكرسيّ الرسوليّ، تاركًا الأب پيّو حقّ البقاء رئيسه حتّى مماته".

وهكذا أنقذ الكرسيّ الرسوليّ إنجاز الأب پيّو الأرضيّ الأكبر، من جشع رؤساء جمعيّته.

افتراءاتٌ وعقوباتٌ جائرةٌ

"الله يتألّم لأنّه يحبّ".

(الكردينال رتسنغر)

في ٣/١٠/١٩٦٠، صدر عن الڤاتيكان بيانٌ مريعٌ، محشوٌّ بالتلفيق، مستندًا على افتراءات الأُسقف مكّاري الشفهيّة – إذ لم يكن قد دوّن تقريره – وجاء في نصّ البيان:

"عاد الأُسقف مكّاري من سان جُوڤانّي رُتونّدو، وهو عازمٌ على القيام بزيارةٍ أُخرى، في أجلٍ قريبٍ، وقد قام الأسقف المذكور بتحقيقٍ حول ما يجري في حرَم دير سيّدة النِعَم، حيث يقيم پادري پيّو، وخاصّةً حول إدارة "بيت تخفيف الألم"، وحول تبادل رسائل، ورزَمٍ بريديّةٍ بين مواطنين أجانب، خاصّةً في أميركا الشماليّة، وعناصر محلّيّةٍ غريبةٍ عن حياة الدير.

ووقايةً للكنيسة من نزعةٍ وبيلةٍ إلى التعصّب الذي غالبًا ما يتسلّل، للأسف، في متاع الأهواء البشريّة، شُدِّدت الحماية على حَرَم الإخوة الرهبان، وفُرِضت رقابةٌ شديدةٌ على علاقتهم بالمؤمنين. وقد كُلِّف رئيسٌ جديدٌ كان يتولّى، حتّى الآن، الرئاسة الإقليميّة على منطقة پاليرمو، برئاسة دير سيّدة النِعَم. وهكذا، سيتسنّى للأب پيّو وإخوة الدير التفرّغ، بمزيدٍ من الهدوء، لرسالتهم السامية، ولكلّ أعمال البرّ والمحبّة المسيحيّة التي يضطلعون بها، منذ أكثر من أربعين سنةً، في هذه البقعة السعيدة من منطقة "غرغانو".

هذا البيان الرسميّ المصطبغ بالارتباك والاتّهام الوقِح، كان وخيم العواقب، وسبّب للكنيسة أذًى جسيمًا، لأنّه أصدر حكمًا قبل انتهاء التحقيق، وقبل وضع تقريرٍ عنه، ولم يحتوِ سوى ترديد إشاعاتٍ مغرضةٍ، أكّد صحّتها البيان والتدابير القمعيّة التي أملاها. وكان الإعلان عن حملة تحقيقٍ أُخرى إيذانًا بإعلان مزيدٍ من الفضائح، ومن الفتك بالرّاهب القدّيس. ومع أنّ المحقّق لم يقم بالزيارة الثانية الموعودة، فتح بيان الڤاتيكان المجال واسعًا لأعداء الكنيسة، ولمبغضي الأب پيّو كي يتقيّأوا حقدَهم، وللصحافيّين السطحيّين، لصبّ سموم مقتهم، وإشباع نَهمهم إلى اغتيال البطولات، وقذف كلّ ناصع النظافة بأوحال الافتراء، وبقذارة صغاراتهم، فتنافسوا على التسابق في هذا الميدان، من خلال مقالاتٍ حاملةٍ عناوين "فضيحة الكاهن الشهير بصانع المعجزات"، وادّعاء أنّ تحقيق الڤاتيكان أثبت التلاعب بالعديد من المليارات. وحملت صحفٌ عناوين "الراهب الكبّوشيّ الأغنى في العالم"، و"عبادة أوثانٍ، ومصالح ماليّةٌ، في ديرٍ كبّوشيٍّ".

هذا ما جناه بيانٌ ڤاتيكانيٌّ، أملته الكبرياء، ورغبة الانتقام من قدّيسٍ، وإرادة تحطيمه، ونشوة السلطة وغرورها.

وفيما كانت بعض الصحف ماضيةً في سَورة انتقامها من كلّ مقدّسٍ، ما انفكّت أفواج المؤمنين تتدافع إلى الدير، للتعبير عن وفائها للكاهن القدّيس، ومساندته. وظلّت آلاف الرسائل تتدفّق على الڤاتيكان، وعلى الحبر الأعظم، مستنكرةً المعاملة الجائرة واللاأخلاقيّة، اللاحقة براهبٍ لم تشُبْ سلوكَه، قطّ، لوثةٌ، ولم تؤتِ يداه سوى الخير، ولم ينبض قلبه إلّا بالمحبّة، ولم يَحُدْ مسيرتَه سوى التضحية والزهد.

وبالإجمال، انطلقت حملةٌ لم يُطِق مطلقوها التشهيرَ الرسميّ بالكاهن الأوّل الذي دمغه الربّ بسمات صلبه.

وفيما كانت الحملات محتدمةً بين الناقمين على الأب پيّو، والذائدين عن حياضه، انزوى، هو، كي يُدبّج وصيّته، نائيًا بنفسه عن ضوضاء وصراعٍ، هو عنهما غافلٌ ولامبالٍ.

وكان الأب "كارّي" (Carré)، عضو الأكاديميّة الفرنسيّة، قد قابل الأب پيّو، في تلك الحقبة، ونشر مقالًا عنه، جاء فيه: "التقيتُ پادري پيّو مرّتين. وفي اللقاء الثاني، بعد أن ساعدتُه على الصعود إلى الهيكل، قضيتُ معه معظم فترة قبل الظهر. وكان محاطًا، أو بالأحرى "مراقَبًا" من قِبَل رهبانٍ كئيبي الوجوه، ولكأنّهم عاملو مشانق. كان يحيا جلجلةً مريعةً. ومع ذلك، لم يخلّف أحدٌ، مثل ما خلّفه هو في نفسي، من انطباعٍ بقوّةٍ ملجومةٍ، يواكبها فكرٌ سديدٌ نيّرٌ، وفرحٌ مصطبغٌ بالمرح والسلام. وقد شاهدتُ سماتِ صلبه، بوضوحٍ، وتأمّلتُها بعنايةٍ. كان الروح القدس يسكنه، والعلاقة واضحةٌ بين صليب يسوع، وحضور الروح القدس في دير سان جُوڤانّي رُتونّدو...".

بعد إصدار الڤاتيكان بيانه المشؤوم، أكمل الأسقف مكّاري تدبيج تقريره، الذي حرص الكرسيّ الرسوليّ على كتمه. غير أنّ الأُسقف أشبع فضول صحافيّين أصدقاء له، وسرّب لهم بعض تفاصيله.

وسارع الكرسيّ الرسوليّ إلى تنفيذ اقتراحات الأسقف المتعلّقة بالأب پيّو، وأرسل، بتاريخ ١٩٦١/١/٣١، رسالةً إلى الرئيس العامّ على الجمعيّة الكبّوشيّة، نعى فيه ما عدّه انتهاكاتٍ للنظام الرهبانيّ، ولا سيّما في ما يتعلّق بواجب الحيطة والحذر من الحماس الشعبيّ المفرط في تكريم پادري پيّو. وبالتالي، طلب فرض التدابير التالية:

- إلزام الأب پيّو بالنظام الرهبانيّ بقدر ما تتيحه له سنّه، وحالته الصحّيّة.
- منع كهنةٍ آخرين وأساقفةٍ من مشاركته الاحتفال بالقدّاس.
- تغيير الموعد اليوميّ لقدّاسه، منعًا لاكتظاظ الكنيسة بالمؤمنين.

- إفراد مسافةٍ كافيةٍ، بين كرسيّ تعريف الأب پيّو والمؤمنين المنتظرين دورهم، ونصب حواجز لهذه الغاية.
- منع الأب پيّو من استقبال نساءٍ، عندما يكون وحيدًا في قاعة الزائرين.
- تعيين رئيسٍ إقليميّ جديدٍ، على ألّا يتمّ انتخابه من قِبل رهبان دير "فوجّا"، وفقًا للنظام الكبّوشيّ، بل يُعيَّن مباشرةً من قِبَل رئيس الجمعيّة العامّ، ويُكلَّف باستبدال كلّ عناصر دير سان جُوڤانيّ رُتونّدو ورهبانه بآخرين، بدءًا بإبعاد الأب "رافائيلّي"، الذي تربطه أواصر صداقةٍ بالأب پيّو.

نُفِّذت، إذن، توصيات الأسقف مكّاري الاعتباطيّة والانتقاميّة، والتزم بها رهبان الدّير. وإثر إبعاد الأب "رافائيلّي"، الذي كان لپادري پيّو الأخ والصديق والنجيّ، أمسى الأب پيّو معزولًا عزلةً تامّةً، ولكنّ عزلته كانت خاضعةً لمراقبةٍ صارمةٍ.

وعملًا بالتعليمات لم يعُدْ يُسمَح لأكثر من خمس نساءٍ معًا، انتظار دورهنّ للاعتراف في الكنيسة، على أن يُبقين ظهورهنَّ، موجّهةً صوب كرسيّ الاعتراف، وأنظارهنَّ إلى الخارج.

ومُنِع الأب پيّو من الاحتفال بطقوس أسبوع الآلام، في كنيسة الدير، واضطرّ إلى الاحتفال بها وحيدًا، بعيدًا عن جمهوره، في كاپيلّا الدير الداخليّة. وكان لحرمان الحجّاج والمؤمنين من مشاركة أبيهم المحبوب، أصداءٌ واسعةٌ في الصحافة، التي سرّبت، أيضًا، شائعة احتمال نفي الأب پيّو إلى ديرٍ كبّوشيٍّ في إسبانيا. هذه الأخبار دقّت ناقوس الخطر في الكرسيّ الرسوليّ، فالتأم الكرادلة الكبّوشيّون، وأجمعوا على تدابير صارمةٍ، بحجّة الحؤول دون تجمّعاتٍ حاشدةٍ، تضمّ مؤمنين يقدّسون شخص الأب پيّو. وحذّروا من لجوء الكرسيّ الرسوليّ إلى عقوباتٍ قُصوى، ما لم يتمّ الالتزام بتدابير تحديد وقت قدّاس الأب پيّو بأربعين دقيقةً على الأكثر، وتغيير موعد إقامته القدّاس اليوميّ.

وحدَهم العالمون بما يعني القدّاس لپادري پيّو من عيش أحداث الجلجلة، وتجديد هذه التضحية جسديًّا، والتي كان يحياها الكاهن القدّيس بكلّ أوتار نفسه، يستطيعون تقدير وقع هذه القرارات السخيفة والجارحة عليه. ومع ذلك، شهد رئيس الدير الذي بلّغه هذا القرار، أنّه تقبّله بخضوعٍ وتواضعٍ، وبلا اعتراضٍ، مثبتًا أنّه، حقًّا، "معجزة طاعةٍ"، ومؤمنٌ بأنّ الخضوعِ للرؤساء هو الخضوعِ لله، ملتزمًا بمبادئ شفيعه القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ.

نقل ملكيّة "بيت تخفيف الألم"

كان زخمُ سخاءٍ استثنائيٌّ، قد مكّن من إشادة "بيت تخفيف الألم"، وساعد على استمرار تمويل عمله، وتوسيعه، وتحديثه. وكان هطول التبرّعات قد أذكى شهيّة رؤساء الجمعيّة الكبّوشيّة المتورّطة في فضائح ماليّةٍ، بسبب إقدام أديرةٍ لها على مجازفاتٍ حمقاء، ودفعتها تلك الشهيّة التي غذّتها الرغبة في تسديد ديونها ولملمة فضائحها، إلى درك اختلاساتٍ آثمةٍ معيبةٍ، واضطهاداتٍ ظالمةٍ لابنها البارّ، الذي رفض حَرْف التبرّعات الواردة إلى "البيت" عن هدفها، من أجل إصلاح أخطاء إخوةٍ مذنبين، ورؤساء.

وخلافًا لما روّجته بعض الصحف، لم يُظهر التحقيق، الذي أجراه الفاتيكان، حول سلامة إدارة أموال "بيت تخفيف الألم"، أيّ خَلَلٍ في استعمال التبرّعات الواردة استعمالًا مثاليًّا، لا غبارَ عليه.

وكان البابا پيّوس الثاني عشر، ببعد نظره، قد أعفى الأب پيّو من نذوره الرهبانيّة، كي يمكّنه من استلام التبرّعات وينفقها في ما استهدفته، ومن أن يكون هو مالك "بيت تخفيف الألم"، وغير خاضعٍ لسلطةٍ قادرةٍ على مشاركته فيه أو انتزاعه منه.

وحؤولًا دون استيلاء الجمعيّة الكبّوشيّة، الغارقة في أزمةٍ ماليّةٍ خطيرةٍ، على "البيت" بعد وفاة الأب پيّو، وإفساد الهدف النبيل الذي قام "البيت" من أجله، استحسنت اللجنة الڤاتيكانيّة، المكلّفة بالمشاريع الخيريّة الدينيّة نقل ملكيّة البيت إلى الكرسيّ الرسوليّ، بعد وفاة الأب پيّو. وبلّغ أمين سرّ الڤاتيكان رغبة البابا، بهذا الشأن، يوم ١٩٦١/١٠/٨.

وبما أنّ نقل الملكيّة كان يقتضي توقيع الأب پيّو على وثيقة هِبة مئتي ألف سهمٍ، تمثّل رأسمال "البيت"، إلى مؤسّسة المشاريع الدينيّة التابعة للكرسيّ الرسوليّ، على أن يبقى الأب پيّو هو رئيسه حتّى مماته، طلب الكرسيّ الرسوليّ من رئاسة الجمعيّة

الكبّوشيّة حمل نصّ هذه الوثيقة إلى پادري پيّو، كي يوقّعها. فجاء رئيس الجمعيّة العامّ، مع اثنين من مساعديه، والرئيس الإقليميّ على مقاطعة "فوجّا"، إلى صومعة الأب پيّو، وطلبوا منه توقيع الوثيقة بحضورهم. وللوهلة الأولى استغرب الأب پيّو هذه المبادرة، من قِبَل الطامعين في الاستيلاء على "البيت" وعلى أمواله، فالتمس إمهاله ليلةً للتفكير.

وفي اليوم التالي، وقّع الأب پيّو على الوثيقة التي انتزعت منه ومن أصدقائه، طوْعًا، ملكيّة "مشروعه الأرضيّ الأكبر".

هذه التضحية، كانت له، في الواقع، التزامًا بمطلب مؤسّس الفرنسيسكانيّة القاضي بالتخلّي عن كلّ تملّكٍ أرضيٍ.

وكان الأب پيّو قد طلب من البابا پيّوس الثاني عشر، عام ١٩٥٧، أن تستلم مؤسّسة المشاريع الخيريّة الدينيّة في الڤاتيكان ملكيّة "البيت"، ولكنّ الحبر الأعظم رفض تلك الهِبة، آنذاك، وها إنّ خَلَفه يطلبها، ويسارع الأب إلى منحه إيّاها، مؤمنًا أنّه يهبها للكنيسة.

وهبّ "إيمانويلّي بروناتّو"، المدافع الشرس عن پادري پيّو، ومن أسخى المتبرّعين لبيت تخفيف الألم، للاعتراض على انتقال الملكيّة، لأنّه لم يكن مطّلعًا على بواطن الدوافع الحقيقيّة لتلك المبادرة، فأوضح له أمين سرّ الكرسيّ الرسوليّ، الكردينال "أوتّاڤياني": "لقد فعلنا ذلك لصالح البيت، ولصالح پادري پيّو، وأفهمه أنّ انتقال ملكيّة "البيت"، استهدف وقايته من استيلاء الجمعيّة الكبّوشيّة عليه، وهي تجتاز أزمةً ماليّةً".

وفي الواقع، لم يكن هذا الانتقال عقابًا للأب پيّو، بل للجمعيّة الكبّوشيّة، وكان الفاتيكان، قد أكره رؤساء الجمعيّة على حمل وثيقة الهبة بأنفسهم إلى الأب پيّو، كي يشهدوا على توقيعه عليها، وينقذوا "البيت" من مطامعهم، تكفيرًا عمّا ألحقوه بابنهم البارّ من اضطهاداتٍ وإهاناتٍ.

أنصار الأب پيّو

في حين كان رجال كنيسةٍ، ناقمون أو مُغرضون، دائبين على تحطيم كاهنٍ قدّيسٍ فذٍّ، كان حدْسُ مؤمنين بواسل، راسخي الإيمان ببطلان هذا الاضطهاد وجَوره، وبقداسة الأب پيّو التي لا يشوبها ولا ظلّ شكٍّ، ولو ظلّ شكٍّ، يحثّهم على الذود عن حياضه. فانبرى فريقٌ من العلمانيّين للدفاع عنه بصلابةٍ، وعنادٍ، وبسلاح الحجج الدامغة.

كان في طليعتهم صديقه المندفع حتّى التهوّر، إيمّانويلّي بروناتّو"، وعمدة سان جُوڤانّي رُتونّدو "فرنشيسكو موركالدي"، وانضمّ إليهما كُثُرٌ، كان أبرزَهم صناعيٌّ ثريٌّ يُدعى "جيوزيپّي پانيوسِّين" (Pagnossin)، الذي دأب، طوال ثلاثين سنةً، على جمع كمّيّةٍ مدهشةٍ من الوثائق حول الكاهن المدموغ بسمات الصلب، واستحقّ بجدارةٍ لقب "حامل لواء الحقيقة". وقد وفّر للعديد من كتّاب سيرة "الكاهن المصلوب"، وثائق هامّةً، جمعها في كتابٍ بعنوان "جلجلة پادري پيّو"، واكتفى بطبع بضع مئات النسخ منه، لأنّه كان قد أعدّه مرجعًا للّجنة التي ستتولّى دعوى تطويب الأب پيّو.

أمّا "إيمانويلّي بروناتّو"، فقد أسّس، عام ١٩٦٠، في مدينة جنيڤ السويسريّة، اتّحادًا للدفاع عن شخص پادري پيّو وعن مشاريعه، وكان إثر تحقيق الأسقف "مكّاري" في قضيّة الأب پيّو، وما اعتوَر ذلك التحقيق من مغالطاتٍ وتشويهٍ مقصودٍ للحقائق، قد بعث برسالةٍ إلى أمين سرّ الكرسيّ الرسوليّ، منذرًا بنشر كتابٍ، يوضح "رسالة پادري پيّو، وعلاقتها بالكنيسة الكاثوليكيّة"، بناءً على توثيقٍ وحيدٍ في العالم، لا يمكن دحضه. وأرسل إلى الڤاتيكان نسخًا عن مسوّدة الكتاب، منذرًا بنشره، إن لم يُحرَّر پادري پيّو من القيود الظالمة المفروضة عليه، وإن لم تعُدْ له حرّيّة أداء رسالته السامية. وهدّد بنسف "العصابة" الجهنّميّة، الدائبة على اضطهاد الأب پيّو، منذ ثلث قرنٍ.

وبما أنّ الكرسيّ الرسوليّ لم يبالِ بهذا الإنذار، بل قرّر فرض المزيد من القيود على پادري پيّو، في مطلع عام ١٩٦١، سرّب "پانيوسِّين"، بالاتّفاق مع "بروناتّو"، وثائق عن أجهزة التنصّت، التي وضعت في كرسيّ تعريف الأب پيّو وفي صومعته، إلى صحيفةٍ واسعة الانتشار في إيطاليا، وتسجيلاتٍ عن رسائل متبادلةٍ بين كاهنَيْن كبّوشيَّيْن متورّطَيْن في هذه الجريمة.

ومنذ نشر الوثائق الأولى عن هذه المؤامرة الأثيمة، كلّف الكرسيّ الرسوليّ الأسقف "نيستا"، رئيس الأكاديميّة الحبريّة بالتفاوض مع بروناتّو.

وعقب لقاءاتٍ عديدةٍ بين الرجلَيْن، عُقِد اتّفاقٌ على التوقّف عن نشر الوثائق المحرجة، من جانب أصدقاء الأب پيّو، على أن يباشر الكردينال "أُوتّاڤياني"، أمين سرّ الكرسيّ الرسوليّ مفاوضاتٍ مباشرةً مع بروناتّو وأصدقائه، بُغية تحرير الأب پيّو من كلّ القيود المفروضة على ممارسته مهامّه الكهنوتيّة، بحرّيّةٍ، وعلى عدم المسّ ببيت تخفيف الألم، أثناء المفاوضات، وعلى احترام جماعات الصلاة التي ألهمها پادري پيّو، وباركها البابا پيّوس الثاني عشر.

وكانت ثمرة هذا الاتّفاق الأوّليّ مجيء رؤساء الجمعيّة الكبّوشيّة إلى دير سان جُوڤانّي حاملين وثيقة نقل ملكيّة "بيت تخفيف الألم" إلى الكرسيّ الرّسوليّ، وإنقاذه من مطامعهم.

وبادر "بروناتّو"، فور اتّفاقه المبدئيّ مع الكردينال "أوتّاڤياني"، إلى استئجار مكتبٍ في فندقٍ، على بعد خطواتٍ من الڤاتيكان، كي يتابع، عن كثبٍ، تطوّرات الشؤون المتعلّقة بالأب پيّو. واستغرق في مشروع استطلاعٍ دقيقٍ كي يُلمّ بكلّ ما حدث أثناء غيابه الطويل عن إيطاليا، الذي دام خمسًا وعشرين سنةً.

وأطلق حملةً صحافيّةً للدفاع عن پادري پيّو، ونشر في مجلّة "قانونٌ وعدالةٌ"

المشهورة بجدّها ورزانتها، تفاصيل عن أجهزة التنصُّت، طالبًا إبداء رأي رجال القانون في هذا الفعل. وحاولت جريدة الڤاتيكان تكذيب خبر أجهزة التنصّت، من خلال أسطرٍ موجزةٍ لم تحمل توقيعًا، ولم يحفل بها أحدٌ. فحاول مسؤولو الڤاتيكان إكراه الأب پيّو نفسه، على نفي أمر أجهزة التنصّت، فأبى، رافضًا الكذب دفاعًا عن فعلةٍ نكراء.

وفي هذه الأثناء، كان الرئيس المعيّن على دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، خلافًا للنظام الكبّوشيّ، ماضيًا في فرض تدابير قمعيّةٍ وانتقاميّةٍ، لم تنمّ إلّا عن سماجةٍ، وحسر نظرٍ. فمنع، مثلًا، سيّدةً من الوصول إلى كرسيّ الأب پيّو، لأنّها عرضت في مكتبتها نسخةً من مجلّة "قانونٌ وعدالةٌ"، ومنع أيضًا من الاعتراف السيّدة التي ارتضت أن تعمل سكرتيرةً لدى "بروناتّو".

وأصدر "بروناتّو" نشرةً شهريّةً، سمّاها "فرنشيسكوس"، جعل منها منبرًا للدفاع عن پادري پيّو، ومجلّةً روحيّةً مريميّةً. وأصدر منها طبعةً إيطاليّةً، وأخرى فرنسيّةً، وكانت توزّع ستّة آلاف نسخةٍ شهريًّا. وكان محرّرها بروناتّو نفسه، وممّولها "پانيوسّين". وفي الآن عينه، نشر صحافيٌّ كتابًا روى فيه قصّة المصرفيّ المحتال "جيوفّري"، وتورّط أساقفةٍ ورهبانٍ كبّوشيّين في فخّه، طمعًا بفوائد خياليّةٍ. وسرد، أيضًا، تفاصيل، عن أجهزة التنصّت، التي ردّدت صداها مجلّاتٌ إيطاليّةٌ وفرنسيّةٌ عديدةٌ.

حجّاجٌ مُيتّمون، ورجَال دينٍ حَذِرون، ومواطنون ثائرون

التدابير القمعيّة المتلاحقة، التي كانت السلطات الكنسيّة قد اتّخذتها بحقّ پادري پيّو، وأمواج الافتراءات التي أُشيعت بشأنه، عجزت عن النفاذ إلى يقين مؤمنين، شاهدوا بعيونهم، سموّ قداسة الكاهن المدموغ بسِمات الصلب، ولم تهزّ ثقتهم بعلوّ مكانته لدى الربّ. ففي أحلك مراحل اضطهاده، لم تتباطأ وتيرة تدافع جحافل الحجّاج إلى سان جُوڤانّي رُتونّدو، نشدانًا لنصح الكاهن القدّيس، والتماسًا لصلواته، وسعيًا إلى شفاء نفوسهم وأجسادهم.

ودلّت الإحصاءات أنّ وسطيّ عدد الاعترافات اليوميّة، في كرسيّ تعريفه، خلال عام ١٩٦٣، قد بلغ ٢٧٣ اعترافًا.

وما انفكّت أكوام الرسائل تتهاطل عليه، بلا توقّفٍ ولا تباطؤٍ، من كلّ آفاق المسكونة، ولا سيّما أنّ معجزاتٍ مدهشةً، كانت تتحقّق استجابةً لصلواته. وكان شهودَها أقطابٌ، لا يرقى إلى مصداقيّتهم، ولو ظلّ ريبةٍ، أمثال الأسقف كارول فوتييووا، الذي أصبح البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني، ونال شفاء أصدقاء له في پولونيا، عن بُعدٍ، بفضل دعاء الأب پيّو.

وكان العديد من الكرادلة والأساقفة المدعوّين إلى روما، يغتنمون هذه المناسبة كي يعرّجوا على سان جُوڤانّي رُتونّدو، ويحضروا قدّاس الأب پيّو، ويتحادثوا معه، متجاوزين تحذير بعض كرادلة الفاتيكان، الداعين إلى التزام الحذَر حيال الكاهن الأوّل، الذي دَمَغه المخلّص بسمات صلبه.

وكانت الحرّيّة التي أعادتها الدوائر الڤاتيكانيّة لپادري پيّو، تنفيذًا لطلب البابا بولس السادس، المنتَخَب حديثًا، متردّدةً ومحدودةً، ومُكَبَّلةً. فقد سُمِح للأب باستماع

الاعترافات، والاحتفال بالقدّاس علنيًّا. ولكن ضمن مدّةٍ لا تتخطّى أربعين دقيقةً. ومُنِع الحجّاج من مقابلته خارج كرسيّ الاعتراف. فلم يكن يزوره سوى أحبارٍ قلائل، لا قِبَل لرهبان الدير على منعهم من محادثته. أمّا المؤمنون البسطاء الذين كانوا يتغذَّوْن بنصائحه، وأحاديثه البنّاءة، والحجّاج الذين كانوا يتجشّمون عناء أسفارٍ بعيدةٍ وشاقّةٍ أحيانًا، لكي يبوحوا له بهمومهم وهواجسهم، ويستمدّوا منه العزاء، فكانت حواجزُ صارمةٌ تحول بينهم وبينه، وتبدّد آمالهم وأحلامهم.

وبالإجمال، كان الحجّاج يتجرّعون مرارة الخيبة، وأبناء الأب الروحيّون يعانون قسوة اليُتم. ولم يبقَ لهؤلاء وأولئك من فسحة عزاءٍ سوى الاحتشاد مساء كلّ يومٍ، في باحةٍ تحت نافذة صومعته، طمعًا في استراق نظرةٍ خاطفةٍ إلى طيفه، أو إطلالةٍ منه. وكان الأب يعبّر لهم، عن شوقه ومحبّته وشكره، بالتلويح، طويلًا، بمنديله الأبيض الكبير.

في هذا الجوّ الكئيب احتفل پادري پيّو، يوم ١٩٦٣/٥/٥، بالذكرى الستّين لارتدائه الثوب الرهبانيّ. وكانت قسمات وجهه تعبّر عن حزنٍ دفينٍ، عميق الغوْر. فهو لمّا اختار درب الفقر الطوعيّ، والبساطة الإنجيليّة، في أحضان أشدّ الجمعيّات التزامًا بروح القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، لم يتخيّل، لحظةً، أنّه سيُقحَم، ذات يومٍ، في ورطةٍ ماليّةٍ معقّدةٍ، وقع فيها رؤساؤه الذين انتهكوا روح رهبانيّتهم، وزاغوا عن روح مؤسّسهم الأسّيزيّ، "الفقير الصغير". ثمّ طمعوا في أموال مشروعِه الخيريّ، وإنجازِه الأرضيّ الأكبر، وأمعنوا في اضطهاده، تمهيدًا لسلبه المشروع.

داخل الجمعيّة الكبّوشيّة كان الانقسام حادًّا، بين مُعجَبين بقداسة أخيهم، ولم يكن يشوب ولاءهم له وَهَنٌ، وحاسدين طامعين، معادين له بلا رحمةٍ. حتّى إنّ بعضًا من رؤسائه، عدّوه وبالًا على الرهبان المبتدئين، الذين اتّخذوه معرّفًا لهم، ومرشدًا روحيًّا، فأبعدوهم عن منطقة "فوجّا"، كي يبتروا كلّ صلةٍ لهم به، ويبعدوهم عن تأثيره.

وعلى نقيض إخوة الأب الناقمين، كان مواطنوه قد عقدوا العزم على جعل تلك الذكرى مناسبةً متألّقةً، نابضةً بالفرح والحماس. وقد احتشد أبناء سان جُوڤانّي رُتونّدو، وحجّاجٌ قادمون من إيطاليا ومن الخارج، بقيادة عمدة المحلّة وأعضاء البلديّة، بُغيةَ تقديم التهاني للأب، باسم بلدةٍ كان الأب پيّو مبعث شهرتها، وازدهارها، وطلبوا إرجاء موعد القدّاس الذي سيحتفل به الأب پيّو، ريثما يكتمل وصول وفود مهنّئين، أعلنوا رغبتهم في المشاركة. غير أنّ رئيس الدير المعيَّن حديثًا، خلافًا للنظام الكبّوشيّ، واجههم بجفوةٍ صقيعيّةٍ، وأفهمهم أنّه لن يحيد، قيد أُنملةٍ، عن القيود المفروضة على الأب پيّو. وكان الأب، في هذه الأثناء، بدافع طيبته العفويّة وبساطته، قد جاء للتعبير عن شكره لمهنّئيه وأحبابه، وإذ براهبَيْن ينقضّان عليه، ويعيدانه عنوةً إلى صومعته، بأمر الرئيس.

هذا السلوك الفجّ، المغرق في السماجة والمهانة، أسخط العمدة ومعاونيه وحشدَ المهنّئين، وسرعان ما شاع أمره في سان جُوڤانّي رُتونّدو وفي جوارها. وتلقائيًّا، شرعت تحتشد في ساحة الكنيسة، جموعٌ من أبناء البلدة، والبلدات المجاورة، وقد وحّدهم السخط، واستنكار ما يُسام قدّيسهم من حَيْفٍ وإذلالٍ. ومساء ذلك اليوم، انطلقت مظاهرة احتجاجٍ صاخبةٌ، صوب الدير معبِّرةً عن مناصرتها للأب المحبوب بالصلوات، والأدعية، والتراتيل. وما لبث أن اندسّ، في صفوفها، شبّانٌ مسلّحون بالهراوات، جائرين تهديدًا، ومردّدين:

- اخرجوا أيّها الجلّادون! وحرّروا پادري پيّو!.

وسارع العمدة "موركالدي"، إلى إخماد جيشان الغضب الشعبيّ، بصلابة أعصابه، وحنكته، مؤكّدًا أنّه أرسل، في ذلك اليوم عينه، برقيّتَيْن، إحداهما إلى رئيس الجمهوريّة الإيطاليّة، والأُخرى إلى أمين سرّ الكرسيّ الرسوليّ، وتلا على مسامع الجمع نصّها الذي جاء فيه:

"أهالي ســــان جُوڤانّي رُتونّدو، الذين أهانهم منعهم من التعبير اللائق عن شكرهم لپادري پيّو دي پْيِترِلْشينا، بمناسبة ذكرى شفيعه، ومرور ستّين سنةً على ارتدائه الثوب الرهبانيّ، يرجون نيافتكم الطلب من صاحب القداسة، رفع كلّ القيود التي ما زالت مفروضةً عليه، والتي تحول دون أدائه رسالته الكهنوتيّة، الأداء اللائق".

وغنيٌّ عن القول أنّ هذه المظاهرة وتداعياتها، احتلّت عناوين الصحف الإيطاليّة.

"كتابٌ أبيض"

واكبَت استنكارَ أهالي سان جُوڤانيّ رُتوندو الصاخب، حملةٌ مباشرةٌ مدوّيةٌ، قام بها مناصرو الأب پيّو المخلصون بقيادة "بروناتّو" و"پانيوسّان"، والاتّحاد الدوليّ للدفاع عن شخص پادري پيّو وعن مشاريعه، الذي تأسّس في جنيڤ عام ١٩٦٠، وكان، في هذه الأثناء، قد نَعِمَ بدعمٍ متينٍ، بعد أن انضمّت إلى هيئته، لجنةٌ من ستّة حقوقيّين، متخصّصين في الحقّ الدوليّ، برئاسة محامٍ سويسريٍّ شهيرٍ، سبق له تولّي أمانة السرّ الأولى لمحكمة لاهاي الدوليّة.

هؤلاء معًا، وضعوا "كتابًا أبيض"، كي يودعوه بتصرُّف الأمم المتّحدة، والرأي العامّ الدوليّ، بُغية فضح "انتهاكات حقوق الإنسان"، التي كان الأب پيّو ضحيّتَها، والمطالبة بالتعويض عنها. وفي الواقع، كان هذا الكتاب قنبلةً معدّةً للتفجير، فقد ضمّ أربع مئة صفحةٍ، عدّدت المظالم والعقوبات والافتراءات التي أُلحِقت، مدى عشرين عامًا، بالكاهن المدموغ بسِمات الصلب، وفصّلت فعال الأُسقف "غالياردي"، والأب "جيميلّي"، وجميع الذين جعلوا من پادري پيّو كبش فداءٍ، للتغطية على فسادهم، ومطامعهم، وكبريائهم.

فبعد أن أصمّت السلطات الكنسيّة العليا آذانها، وأبتِ الإصغاء إلى شكاوى مناصري الأب الضحيّة، والمعلّلة بالشواهد الدامغة، كان لا معدى لهؤلاء عن مخاطبة الرأي العامّ الدوليّ، ومن طلب تحكيمه. وتوخّت خطّتهم إرسال نسخةٍ من الكتاب الأبيض، إلى جميع سفراء الدول في منظّمات الأمم، ووضع الملفّ بين يدي الأُمم المتّحدة.

وقد تمّ كلّ ذلك، بمنأًى عن علم الأب پيّو وعن اطّلاعه.

غير أنّ الشروع بطبع الكتاب، في ١٩٦٣/٦/٣، توافق مع رحيل البابا يوحنّا الثالث والعشرين، ومع إعلان الصحف عن نقل جميع الآباء الكبّوشيّين المتورّطين في قضيّة أجهزة التنصّت إلى أقاليم نائيةٍ، وإبعاد مضطهدي الأب پيّو عن مراكزهم، تنفيذًا لقرار الكردينال المسؤول عن الشؤون الرهبانيّة في الڤاتيكان. وشرعت العقوبات تسقط على المذنبين والمرتكبين، ولكأنّ عهدًا جديدًا كان يُشرِق، مع جلوس البابا بولس السادس على السدّة البابويّة. حينئذٍ، ارتأى مناصرو الأب پيّو إرجاء نشر الكتاب وتعميمه. غير أنّهم كانوا قد أرسلوا نسخةً منه، إلى كلٍّ من يوتانت، أمين عام الأُمم المتّحدة، ورئيس الجمهوريّة الإيطاليّة.

وفي شهر آب ١٩٦٣، عيّن الڤاتيكان مديرًا رسوليًّا لدير إقليم "فوجّا"، وكلّفه مباشرةً، تحرير پادري پيّو تحريرًا كاملًا.

ويبقى التساؤل هل كان تدخّل علمانيّين نزيهين ضروريًّا، كي تقوم السلطات الكنسيّة العليا بواجبها؟!

تحرير الأب پيّو

يوم العاشر من تشرين الأوّل ١٩٦٣، زار المدير الإقليميّ للدّير الكبّوشيّ في منطقة "فوجّا" دير القدّيسة مريم سيّدة النِعَم، حيث يقيم پادري پيّو. وصَدَمته شراسة الطريقة، التي كان يُعامِل بها رئيس الدير الراهب القدّيس پيّو. ووطّن العزمَ على فكّ القيود الظالمة، التي كانت ما زالت تكبّل ذلك الراهب. فكفّ يد الرئيس واستبدله. ومقابل ذلك، أوعز رئيس الجمعيّة العامّ إلى الرئيس الإقليميّ المعيّن من قِبَل الكرسيّ الرسوليّ، بالحصول من الأب پيّو على تصريحٍ يعلن به رفع كلّ القيود المفروضة عليه. ومرّةً ثانيةً، رفض الأب ذلك التصريح، لأنّه كان يعدّه كذبًا، إذ كان ما برح مكبّلًا بقيودٍ ثقيلةٍ كثيرةٍ. وأوضح أنّه لا يطلب إلّا أن يُعامَل على قدم المساواة مع سائر رهبان الدير. ومع ذلك ما انفكّ الرئيس العامّ دائبًا على الضغط على الراهب الشهيد، لانتزاع تصريحٍ منه يبرّئ ساحة الجمعيّة أمام الرأي العامّ.

وكان قد سبق للبابا بولس السادس، قبل تبوّئه السدّة الباباويّة في ١٩٦٣/٦/٢١، أن كان رئيس أساقفة أبرشيّة ميلانو. وكان قد اطّلع على قضيّة پادري پيّو، واقتنع بأنّه مختار الله، ورَجُلُه. وكانت تربط الرجُلَيْن علاقةٌ روحيّةٌ وثيقةٌ. وكان الأب پيّو، إثر انتخاب البابا يوحنّا الثالث والعشرين، قد كلّف صديقًا لرئيس أساقفة ميلانو، بإعلام الكردينال "مونتيني"، أنّه هو الذي سيخلف البابا المنتخَب حديثًا، ولمّا تبلّغ الكردينال هذه النبوءة علّق بقوله: "يا لغرابة أفكار القدّيسين!". وكان الكردينال "ليركارو" رئيس أساقفة بولونيا، قد زار مرّاتٍ عديدةً دير سان جُوڤانّي رُتونّدو، ورأس احتفالات الدير، وتحقّق من قداسة الراهب المدموغ بسِمات الصلب، وطالما حدّث عنه زميله رئيس أساقفة ميلانو. ويُرجّح بأنّه همس في أذن صديقه، البابا الجديد دعوته إلى الاهتمام

بقضيّة الراهب المضطهَد. وسارع البابا بولس السادس إلى مراجعة الملفّات المتعلّقة بهذه القضيّة، والتي كان سلَفه المسنّ، قد تركها في عهدة أمناء سرّه، الدائبين على الانتقام من پادري پيّو، والفتك به. وكان قد اطّلع على "الكتاب الأبيض"، الذي زوّده به "بروناتّو"، وأحاط علمًا بدوافع الاضطهاد الذي كان الأب پيّو ضحيّتَه. فضلًا عن خبرته الذاتيّة، وذكره روحِ التقوى السائد في جماعات الصلاة، في ميلانو، المستلهمة روحانيّة پادري پيّو.

وما كادت تنقضي أشهرٌ معدوداتٌ، على انتخاب البابا بولس السادس، حتّى خفّ إلى تحرير الراهب المضطهَد من كلّ القيود. وفي الثلاثين من كانون الثاني ١٩٦٤، بلّغ أمين سرّ الڤاتيكان الرئيسَ الكبّوشيَّ على إقليم "فوجّا"، رغبةَ الحبر الأعظم في أن يمارس پادري پيّو رسالته الكهنوتيّة بحرّيّةٍ تامّةٍ. وفي الحال، فُتِحت الأبواب أمام الحجّاج والمؤمنين إلى كرسيّ تعريفه، ولطالبي نصحه وإرشاده، وظلّ نظام التسجيلِ المسبّق والحصول على بطاقاتٍ، يحدّد لكلّ طالب اعترافٍ دورًا معيّنًا، ظلّ ساريًا تفاديًا للفوضى والازدحام، كما أُلغيت القيود السخيفة المفروضة على منتظرات الدور، بإدارة ظهورهنَّ لكرسيّ الاعتراف وتوجيه أنظارهنّ إلى الخارج، ومنع وجود أكثر من خمس نساءٍ في طابور الانتظار.

تأخّر اطّلاع مناصري پادري پيّو على التدابير الجديدة، المحرِّرة للأب من قيوده، فقرّروا إعادة تفعيل حملتهم، وأعلنوا عن مؤتمرٍ صحافيٍّ دوليٍّ، في جنيف بتاريخ ١٩٦٤/٣/٢٥، واستعدّوا لتوزيع نسخةٍ من "الكتاب الأبيض"، على كلٍّ من الخمس مئة مدعوٍّ إلى المؤتمر، وقبل تنفيذ هذه الحملة، أوفدوا قاضيًا، مهمّته إطلاع پادري پيّو على مخطّطهم، فحذّرهم الأب، بحزمٍ، من القيام بهذه الخطوة، وكلّف القاضي الموفد من قِبلهم بإبلاغ اللجنة واجب الامتناع عن أيّة حركةٍ، لأنّ الإصلاح سائرٌ على

الدرب الصحيح، وأنّ المظالم والقيود آخذةٌ في الزوال بوتيرةٍ متسارعةٍ. وقد لحظ القاضي بنفسه هذا التحوّل على أرض الواقع، وتبيّن السلم الآخذ في الاستقرار، وأحاط اللجنة علمًا بكلّ هذا التطوّر الحميد.

للوهلة الأولى، ساورت الشكوك أعضاء اللجنة، وصعب عليهم تصديق هذا التحوّل المفاجئ، ولكنّهم، نزولًا عند رغبة الراهب المصلوب، أعلنوا إرجاء المؤتمر إلى ١٩٦٤/٤/٢. ثمّ لمّا تيقّنوا من حقيقة الإصلاح، الذي جرى بأمر البابا بولس السادس، أصدروا بيانًا، زفّوا به إلى العالم بُشرى نهاية جلجلة الأب پيّو.

ومع تقدير پادري پيّو لإسهام اللجنة في تحريره، كان مؤمنًا أنّ الخلاص الحقّ، لا يأتي إلّا من السماء، من خلال الصلاة، وتقبّل الآلام والتضحيات.

وأخيرًا تسنّى لپادري پيّو، عام ١٩٦٤، بعد ثلاث سنواتٍ من الحجر والحرمان، الاحتفال بعيد الفصح محاطًا بأبنائه الروحيّين، وبجموعِ الحجّاج والمؤمنين.

وكان المفكّر وعضو الأكاديميّة الفرنسيّة، جان غيتّون (Guitton)، العلمانيّ الوحيد الذي دعاه البابا بولس السادس إلى حضور المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، قد قام، في هذه المناسبة، بزيارةٍ إلى پادري پيّو، برفقة كاهنٍ من روما، وكتب انطباعاته:

«سُمِح لي بدخول صومعته... كان طريح الفراش، ضحيّة التهابٍ رئويٍّ حادٍّ، وخُيِّل إليَّ أنّه يحتضر. ومع ذلك، أودعتُ في أُذنه القرويّة الضخمة، التي طالما أصغت إلى ملايين النجاوى والاعترافات والتوسّلات، آلامي الملازمة لحياتي، بلغتي الفرنسيّة التي لم يكن يفهمها.

"وفي الغد نهض من احتضاره، وخطا، بثِقلٍ ومشقّةٍ، إلى الهيكل، عند الساعة الرابعة صباحًا، بحضور جمهورٍ من المؤمنين...»

(وتابع وصف قدّاسه الذي أوردناه في فصلٍ سابقٍ)، وأضاف:

«... كان يُعصَر من كلّ صوبٍ، فكلٌّ يريد أن يبسط مشقّاته ومِحَنه، بين يديه، وهو كان يردّ بإجاباتٍ تُبكي البعض، وترسم البسمة على شفاه آخرين. ثمّ يعود كبّوشيًّا بسيطًا، ويعود إلى صومعته، عارجًا، مثل بقرةٍ جريحةٍ. وكأنّه يحمل آلام البشريّة جمعاء.

"كان يحيا في عالمٍ غير عالمنا، ويتنفّس في جوّ حاملي المسيح، ولا يريد أن يعرف إلّا المصلوب.

"قد يكون إصدار حكمٍ بشأن پادري پيّو مُربِكًا، ولكنّ أُلوف الشهود ينبرون للتأكيد، بأنّه رسّخ قناعتهم بالحضور الإلهيّ، وبحقيقة الإنجيل».

إمعانٌ في صلب الراهب القدّيس

"رؤية الله وجهًا لوجهٍ مستحيلةٌ، ما لم يُصلَب الجسد".

(غاندي)

فيما كان الراهب القدّيس يدلف نحو الثمانين، ما انفكّت شهرته العالميّة، التي تضاهي شهرة ألمع الأعلام المسيحيّين الأحياء، تجتذب إليه مواكب الحجّاج الحاشدة، الذين، مع ذلك، لم يجدوا فيه الكاهن الضاجّ حيويّةً الذي عهدوه. فقد كانت الأوجاع، والآلام النفسيّة التي ولّدتها القيود المهينة الجائرة التي أمعنت في إرهاقه، قد قضت على حميّا نشاطه، ولكنّها لم تسلبه شيئًا من طابع السموّ، فائق الطبيعة، المنبعث منه.

ومع ذلك، ما انفكّ بعض رؤساء جمعيّته، متعاونين مع أحبارٍ كنسيّين، يتفنّنون في انتزاع كلّ ما يمكنهم انتزاعه منه. ورغم أنّه كان، منذ عام ١٩٦٠، قد ورّث "البيت" للكرسيّ الرسوليّ. جاءه رئيسٌ كبّوشيٌّ بنصٍّ يتنازل بموجبه عن كلّ ممتلكاته للجمعيّة، بحجّة أنّ الوصيّة التي أقام بها الكرسيّ الرسوليّ وريثًا للبيت بعد وفاته، باتت غير صالحةٍ قانونيًّا، وأوعز إليه، بأمر الطاعة، نسخ نصّ التنازل نسختين، فنسخه ووقّعه بتاريخ ١٩٦٤/٥/١١.

ولم تكتفِ الجمعيّة بذلك، بل ارتكبت خطأً، لا يمكن وصفه إلّا بالرعونة واللاأخلاقيّة، فأكرهته على توقيع نصٍّ، يكذّب فيه كلّ ما نُشر في الصحافة عن اضطهاد جمعيّته له، وإعلان براءة جلّاديه. ولمّا اطّلع أمين سرّ الفاتيكان على هذا

النصّ، طلب أن يُخيَّر بين توقيعه، واعتباره خدمةً للجمعيّة، أو رفضه، ولكنّ الموفد الذي جاء بالنصّ، أكّد له أنّ الكرسيّ الرسوليّ يطلب منه توقيعه، فوقّعه، مرغمًا، بأمر الطاعة المقدّسة، وقد جاء، في النصّ، حرفيًّا:

"منذ فترةٍ نشرت الصحافة معلوماتٍ غير واقعيّةٍ، تفيد تعرُّضي لقيودٍ واضطهاداتٍ من قِبَل السلطات الكنسيّة. وإنّي، أمام الله، أشعر بواجب استنكار هذه الأنباء الخاطئة، وإعلان أنّني أتمتّع بحرّيّة ممارسة رسالتي، وليس لي أعداءٌ ولا مضطهِدون. ويطيب لي التأكيد، علنًا، أنّي لا ألقى من رؤساء جمعيَّتي سوى التفاهم، والدعم والحماية، وبالتالي لستُ بحاجةٍ إلى نصيرٍ سوى الله وممثّليه.

"وأعلن، أيضًا، أنّ نشرة "فرنشيسكُس" الصادرة في باريس، لم تتلقَّ منّي أيّة موافقةٍ على الصدور، وأنّه ليس لها علاقةٌ بمشروع "بيت تخفيف الألم"، الذي كنتُ مؤسِّسَه الوحيد، بعون الله والمؤمنين.

"إنّي أُعلن ذلك خدمةً للحقيقة، والعدل، ومن أجل تبديد الملابسات المسيئة إلى النفوس وإلى الكنيسة، والتي تُحزن نفسي. ولست أبتغي سوى الخير للجميع وتمجيد الله".

هذا التصريح، الذي نُشِر يوم ١٩٦٤/١٢/١٦، بحجّة "مصلحة الجمعيّة والكنيسة"، أثار دهشة أصدقاء پادري پيّو، والمطّلعين على صنوف معاناته. ولكنّ غير المطّلعين على المؤامرة، التي كانت تُحاك في الخفاء، ولا سيّما أنّ الأب پيّو قد لجأ إلى الصحافة للمرّة الأولى، وألقى على الساحة العامّة شؤون الجمعيّة الكبّوشيّة الداخليّة، لم يدركوا خلفيّات ذلك التصريح.

وتوخّى نائب أمين سرّ الكرسيّ الرسوليّ، الكردينال "أنجيلو ديلّاكوا" (Angelo dell'Acqua)، التثبّت من صحّة هذا التصريح، قبل نشره في صحيفة الڤاتيكان،

فأوفد رئيس تحرير صحيفة "أوسّيرڤاتوري رومانو" إلى سان جُوڤانّي رُتوندو، واستفسر الأب پيّو عن حقيقة التصريح، ولم يستطع الأب أن يقول له: "لقد أُكرِهتُ". فاتّضحت الأمور، وأحجمت صحيفة الڤاتيكان على نشر البيان. وعلى غرارها فعلت الصحف الإيطاليّة الكبرى والجادّة. ثمّ تجرّأت جريدة "لاستامپا" الصادرة في ميلانو، على اقتحام عرين الرؤساء الكبّوشيّين، ونشرت تفاصيل مؤامرتهم، في عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٥/١/٢١، وساندتها جريدة "لاكروا" الفرنسيّة، في عددها الصادر يوم ١٩٦٥/١/٣٠.

وأدلى المدافع الأوّل والأشرس عن پادري پيّو "إيمّانويلي بروناتّو"، بتصريحٍ أكّد فيه أنّ الراهب المصلوب قد أُكرِه على نسخ نصٍّ مطبوعٍ، وتوقيعه بأمر الطاعة، لأنّه آثر، دائمًا، إذلال نفسه، على التمرّد على الكنيسة. وصرّح لجريدة "تيمپو" الإيطاليّة: "كان پادري پيّو دائمًا، مطيعًا، وهو الآن أكثر إصرارًا على الطاعة من أيّ يومٍ سابقٍ، لأنّه يشهد تمرّد المكرَّسين والعلمانيّين، تمرُّدًا يهدّد الكنيسة بالخطر".

وكان ذلك آخر تصريحٍ أدلى به بروناتّو، الذي التقى وجه ربّه، بعد أن اطمأنّ على تحرير صديقه الشهيد، الذي ذاد عن حياضه، بأقصى عنفوانٍ، تحريرًا كاملًا.

ولمّا ثبُت لدى الكردينال "ديلّاكوا"، أنّ تصريح الأب پيّو قد انتُزِع منه بالإكراه، أثار ضجّةً في الكرسيّ الرسوليّ، وكان في طليعة مناصريه ومستنكري هذا السلوك اللاأخلاقيّ البابا بولس السادس، الذي أوعز إلى أمين سرّ الڤاتيكان رغبته في إعفاء الأب پيّو حتّى من نذر الطاعة، مثلما كان البابا پيّوس الثاني عشر قد أعفاه من نذر الفقر، كي يحميه من مطامع بعض إخوته ورؤسائه في الجمعيّة. وقد أثبت هذا الإيعاز المُبهَم والمستغرب ثقة البابا المطلقة بالأب پيّو، وعزمه الثابت على حمايته من كلّ إكراهٍ.

ولم يشوّش هذا التلاقي الروحيّ بين الحبر الأعظم والراهب الكبّوشيّ، سوى اختلاف نظرٍ إلى الطقوس الليتورجيّة. ففيما كان البابا من روّاد التحديث، وتحبيذ العزوف عن إلزام استخدام اللغة اللاتينيّة أثناء الاحتفال بالقدّاس، ولم يمانع باستخدام اللهجات العامّة، توجّس الأب پيّو خشيةً، من أن يؤدّي ذلك إلى تشويه الطقوس، ومن تسلّل عباراتٍ تفقد الطقوس قدسيّتَها. وهو، شخصيًّا، لم يُطِق التخلّي عن النصّ اللاتينيّ الذي اعتمده منذ قدّاسه الأوّل، ولم يحِدْ عنه يومًا. ولذلك طلب موافقة الحبر الأعظم على استمراره في استخدام هذا النصّ. وأرسل له البابا بولس السادس موافقته بواسطة الكردينال "باتشي" (Bacci)، الذي كان من الكرادلة القلائل المعارضين للاستغناء عن نصّ الليتورجيا التقليديّ.

ولمّا ختم البابا بولس السادس المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، يوم ١٩٦٥/١٢/٨، كان مغتبطًا بالتحديث الذي أجراه المجمع، فيما كانت الشكوك تساور پادري پيّو خشيةً من عواقب هذا التحديث.

بيت ذوي الأب پيّو، في ذلك الزمن

والده "غراسيو فُرجونِه" ووالدته "جيوزيپا دي نونسيو"

الحجرة البسيطة التي تدرّب فيها على حبّ الله، ومقاومة هجمات الشّرّير

الحجر الذي كان للأب پيّو المقعد الذي يقضي عليه معظم أوقات يومه في پيِترِلْشينا، متأمّلًا، مصلّيًا

بقايا شجرة الدردار التي كان الأب پيّو يصلّي في فيئها، عندما تلقّى سمات الصلب الخفيّة

كرسيّ تعريف پادري پيّو في پْيِترِلْشينا، بين ١٩١٠ و١٩١٦

كرسيّ اعتراف النساء في كنيسة الدير

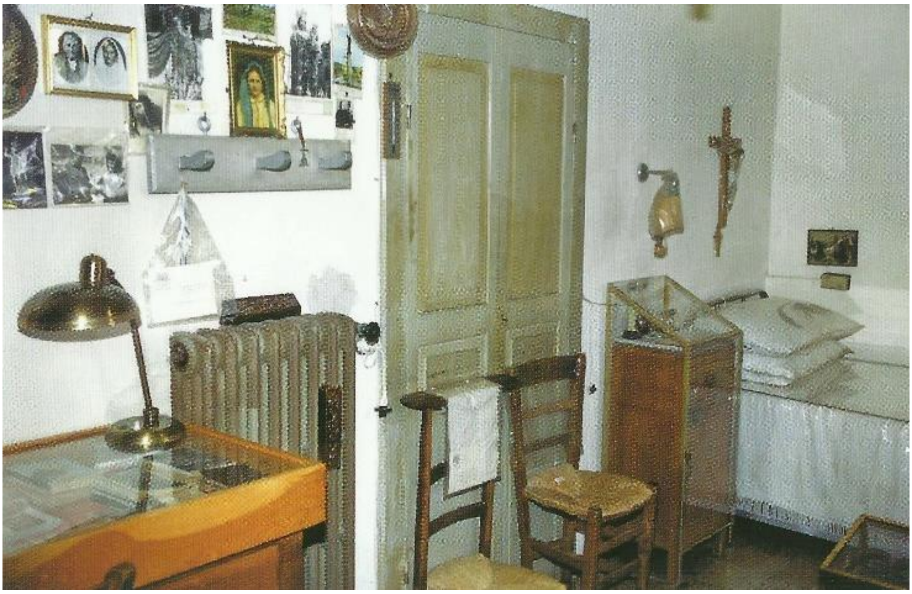

صومعته، كما كانت يوم وفاته في ١٩٦٨/٩/٢٣

واجهة "بيت تخفيف الألم"

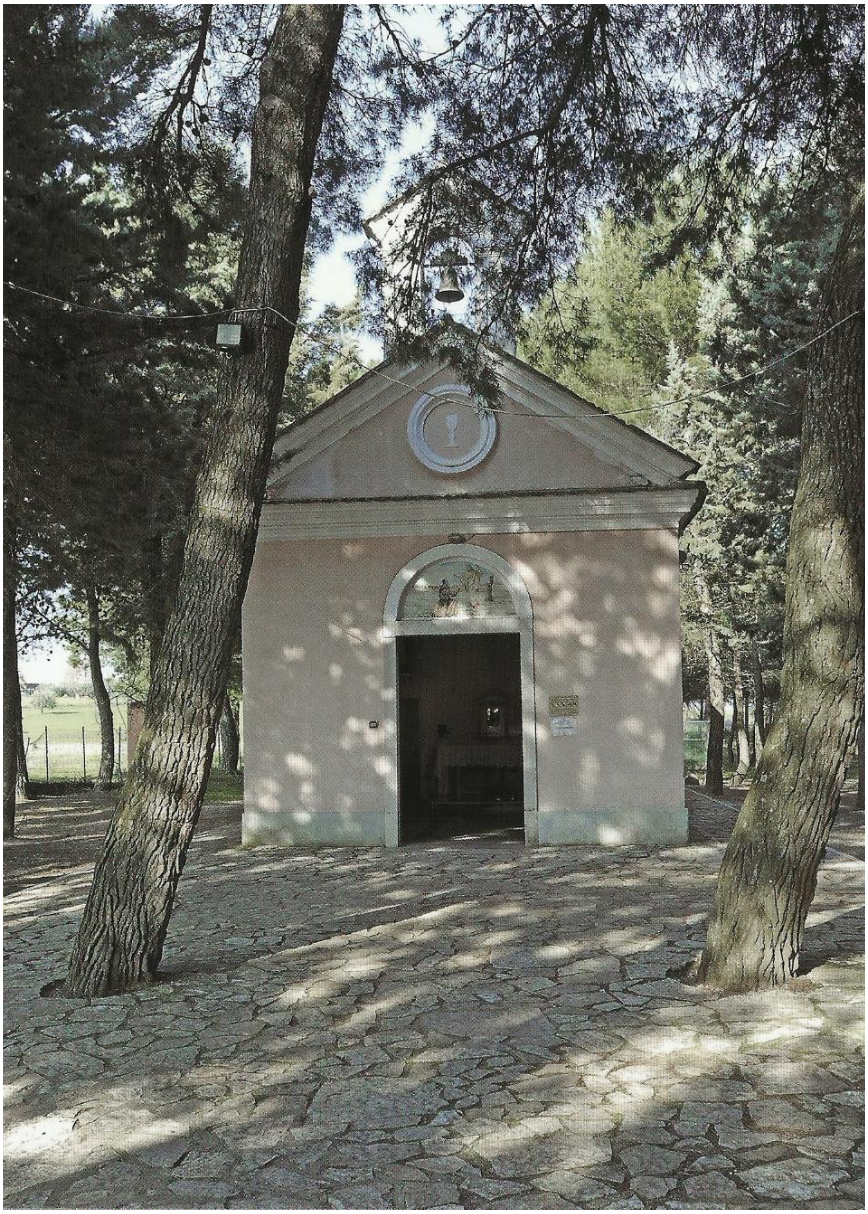

كابيلّا مكرّسةٌ للقدّيس فرنسيس، تكريمًا لتلقّيه سمات الصلب الخفيّة

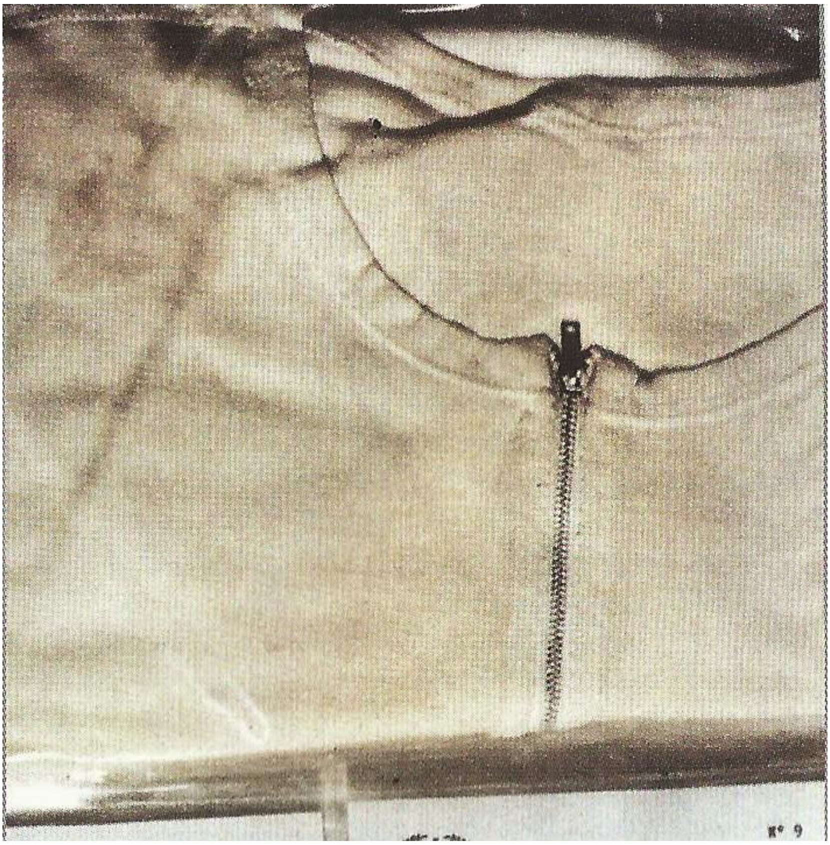

قميصه الذي يظهر آثار الصلب على كتفه

مناشف كان يمسح بها دم إكليل الشوك على جبينه

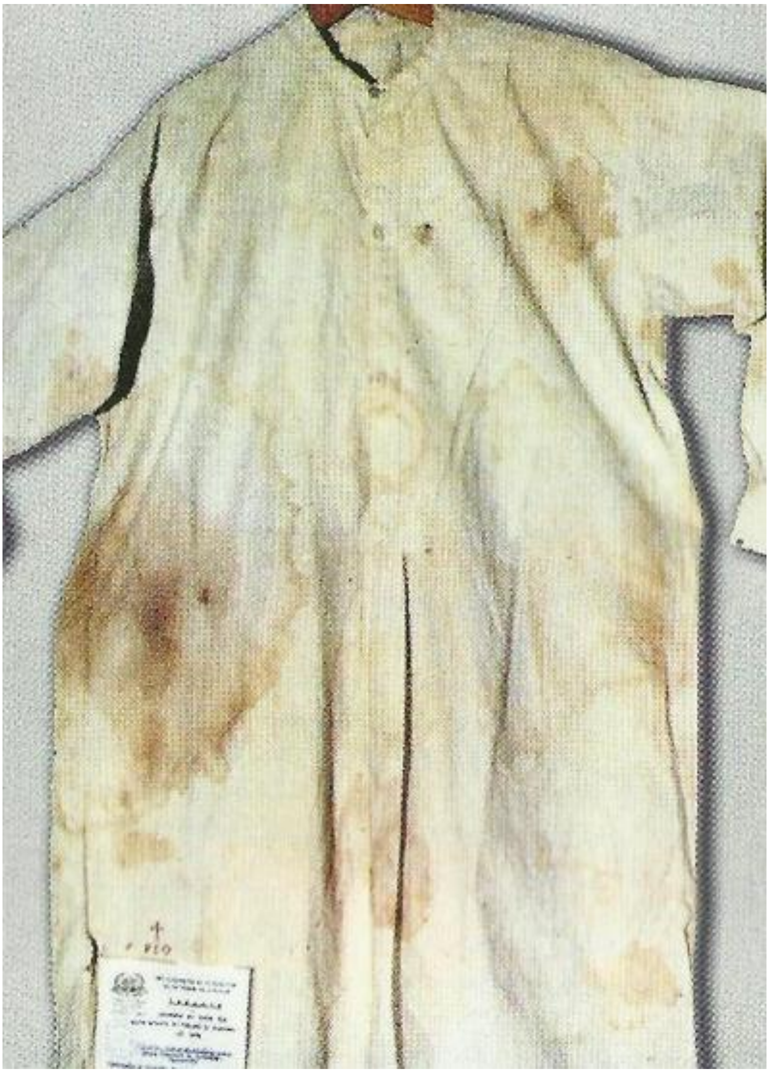

قميصٌ يظهر آثار دم الجلد

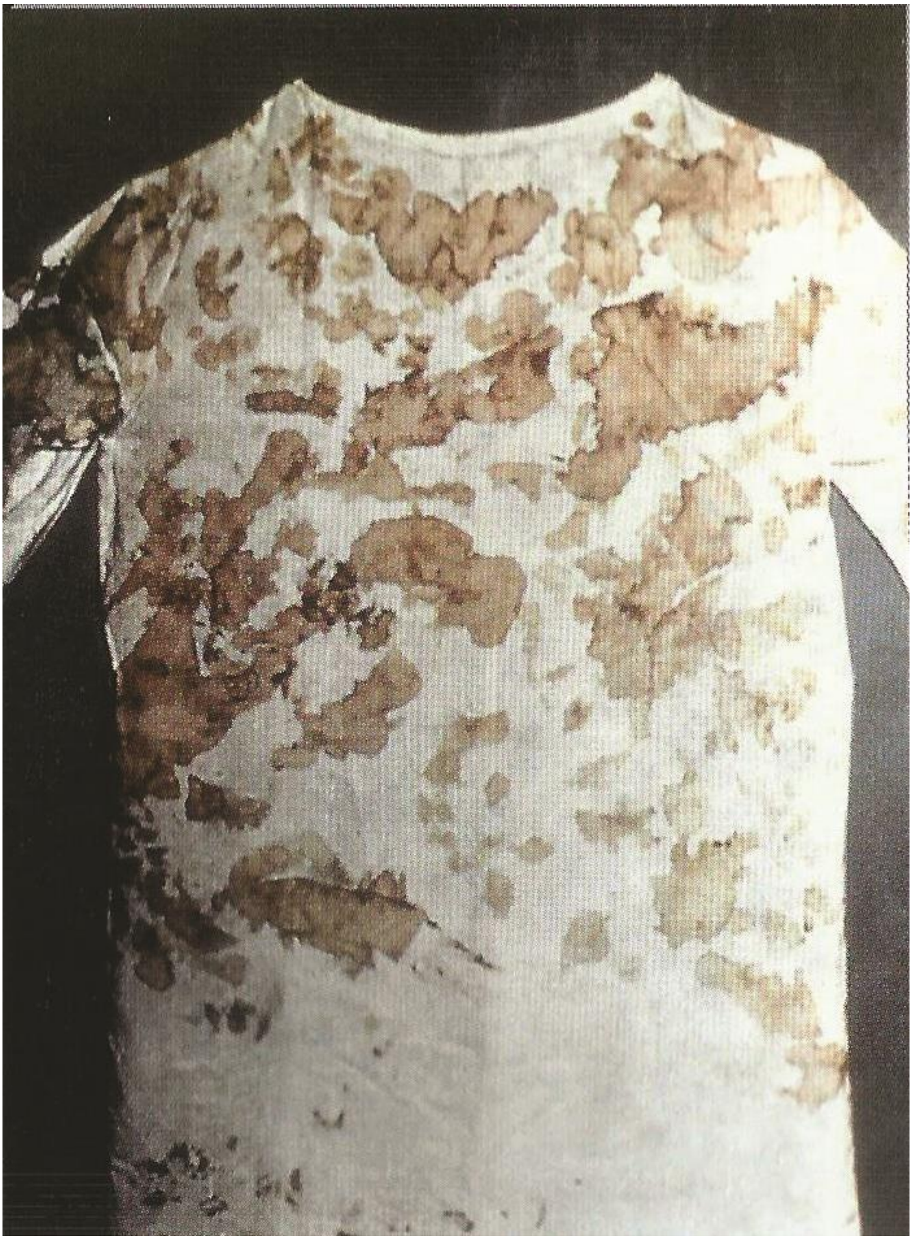

قميصٌ مضمّخٌ بدم جراح جنبه

أثناء القدّاس كان ينزع القفازات فتظهر جراح يديه

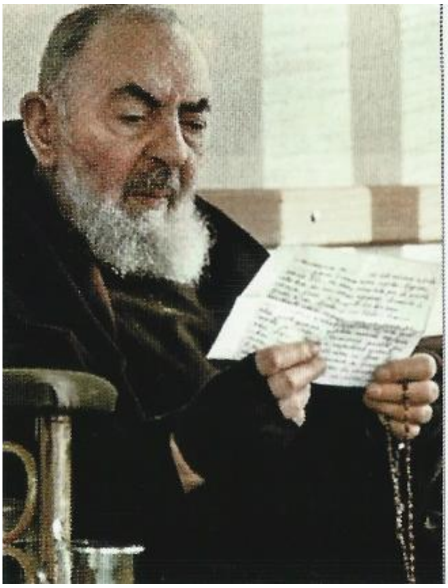

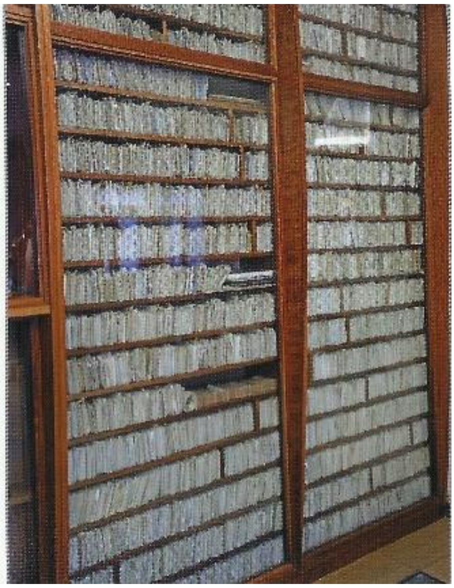

يقرأ الرسائل العديدة المنهمرة يوميًّا من كلّ صوبٍ

قاعة القدّيس فرنسيس، حيث كان يستقبل الزائرين، ويتلقّى طلباتهم

يبارك بتمثال الطفل يسوع أعمًى أميركيًّا

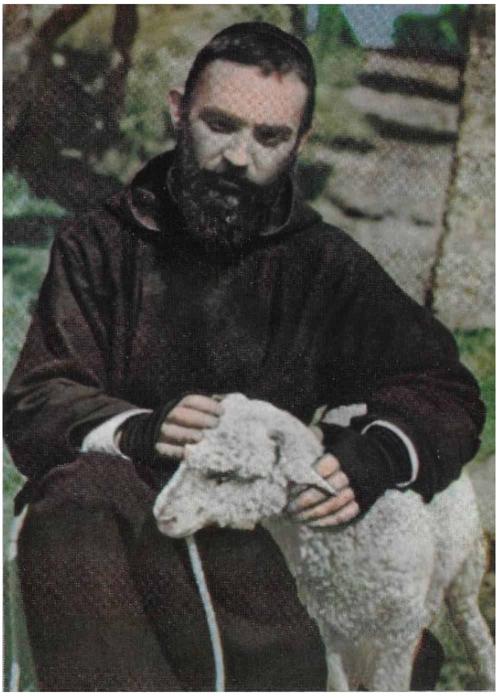

صورةٌ فوتوغرافيّةٌ من عام
١٩٢٠، تذكّر بالراعي الصالح

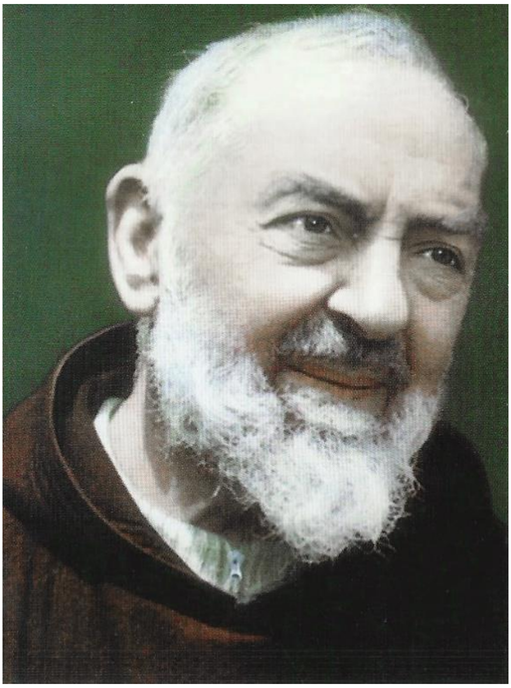

كلّ طيبة القداسة

يرحّب بالزائرين، ويلاطف الأطفال

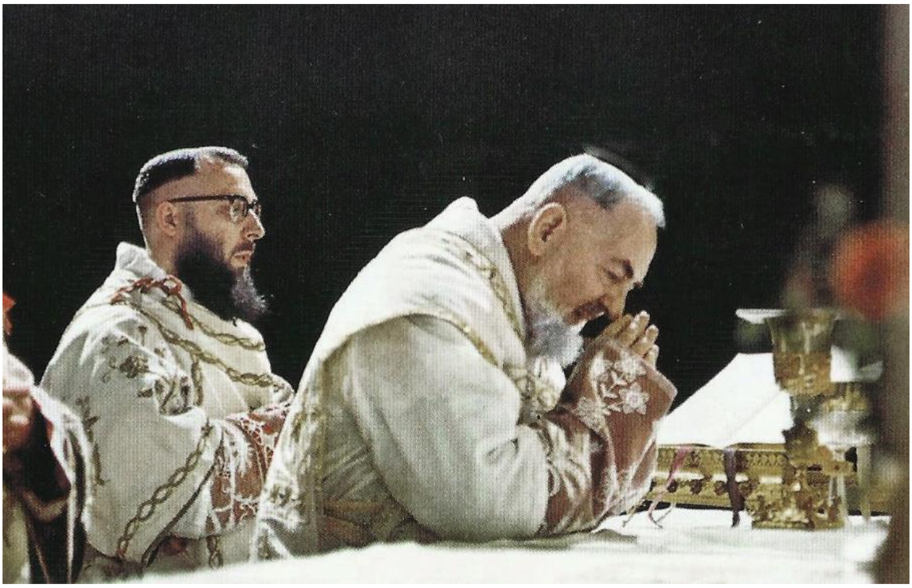

متّكئًا على الهيكل، مركّزًا على ذكر الأحياء والأموات

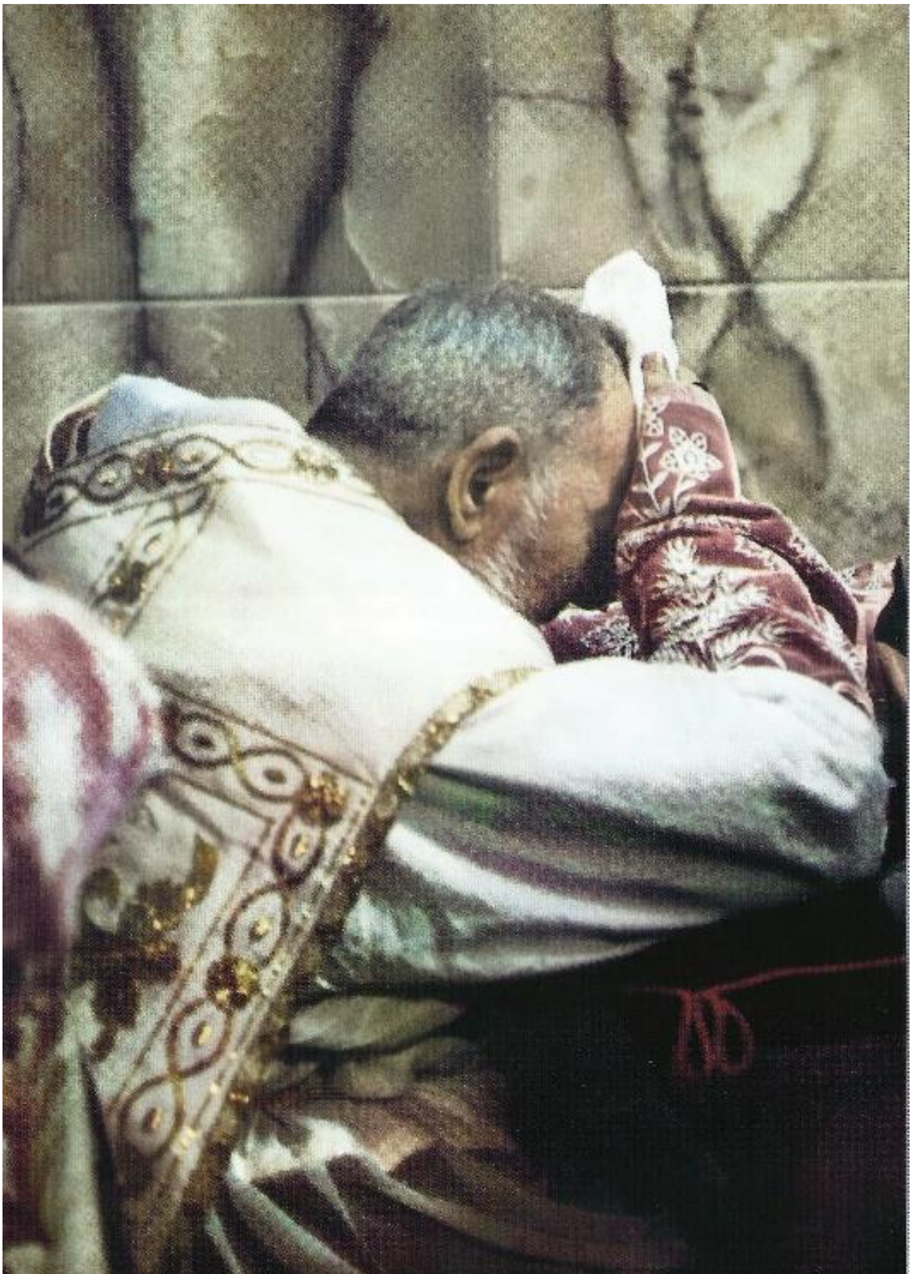

هو والقربانة واحدٌ

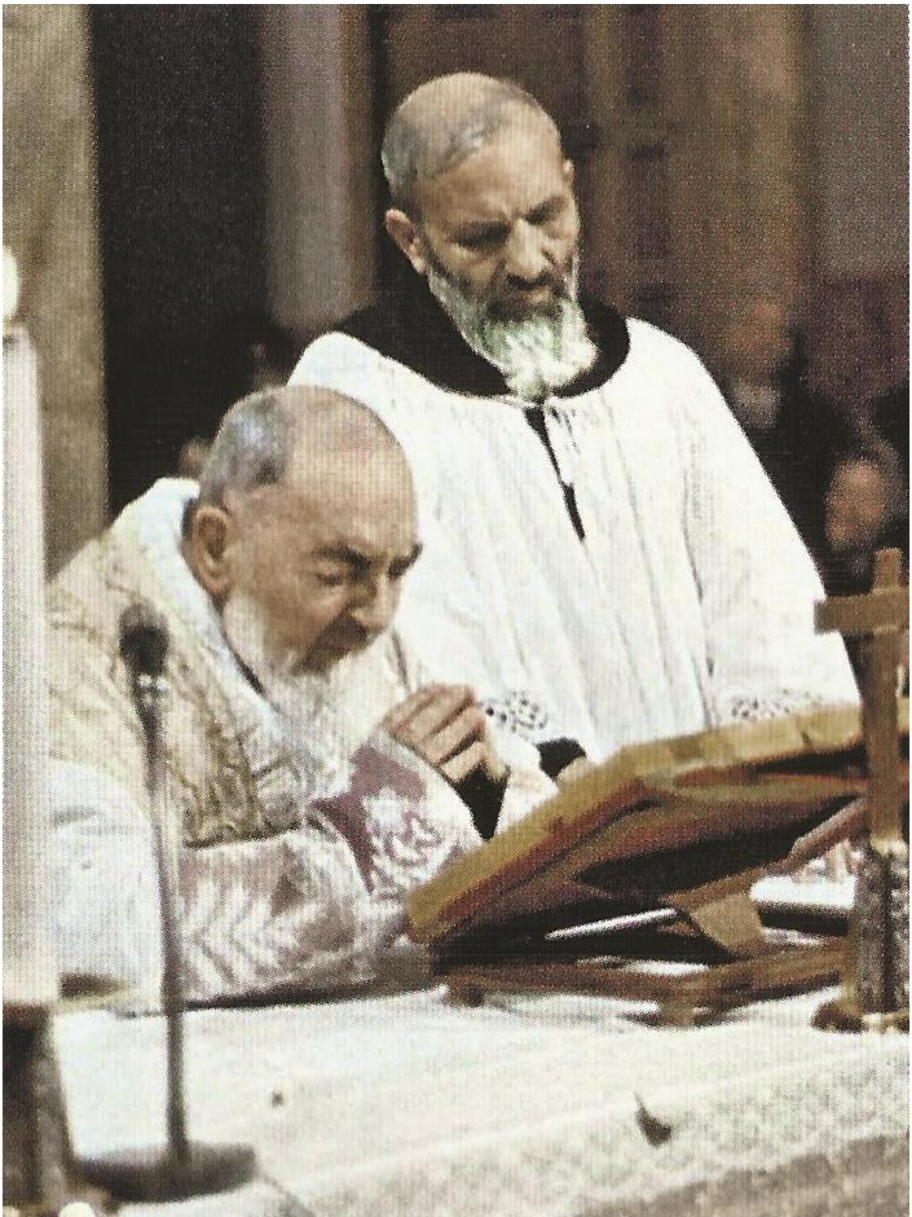

بإذنٍ خاصٍّ كان يقيم القدّاس جالسًا على كرسيٍّ، مواجهًا الشعب

تعالَ: أنت حياتي، وكلّ شيءٍ لي

صورةٌ في صيف ١٩٦٤، يظهر متجهّم الوجه بسبب صراعه مع إبليس

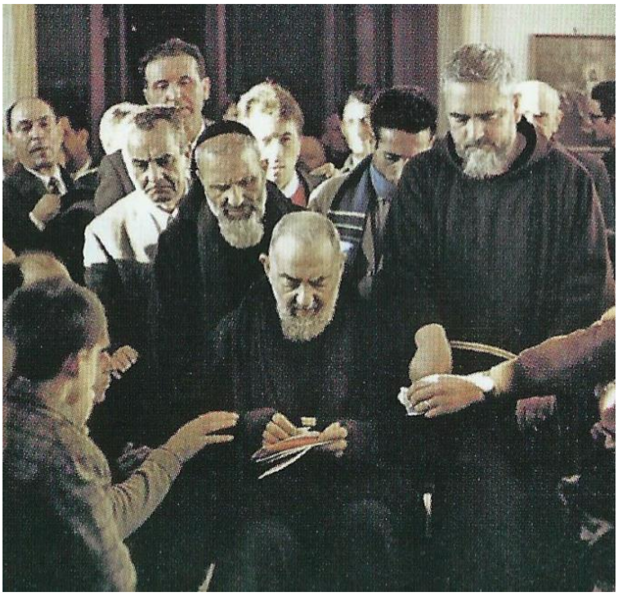

مصغيًا إلى الحجّاج، مسجّلًا طلباتهم

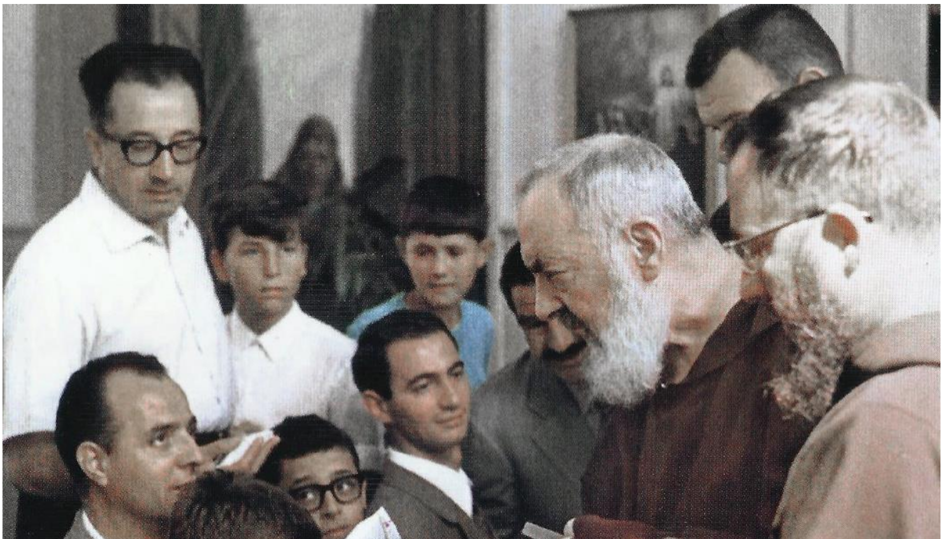

مصغيًا إلى طالبي العزاء والصلوات

لمن يشكرونه يقول: "الله هو الذي يهب النِعَم"

أثناء الاستراحة مع إخوانه الرهبان، وإلى يمينه يجلس شقيقه "ميكيلي"

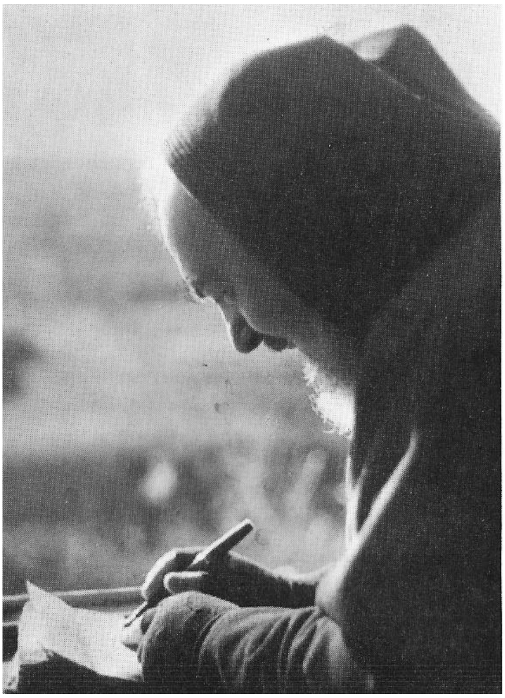

يكتب

يبارك صبيًّا فرنسيًّا نال شفاءً عجيبًا

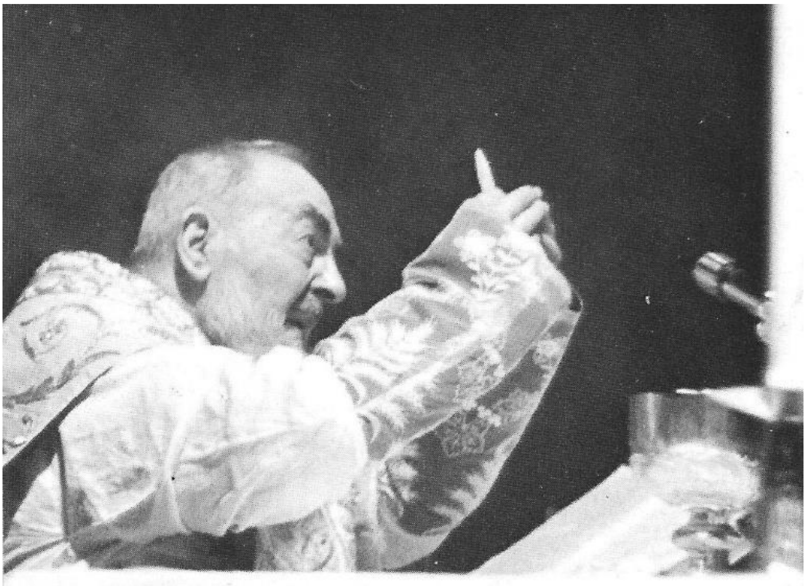

في قدّاسه الأخير يرفع القربان المكرّس كي يعبده المؤمنون

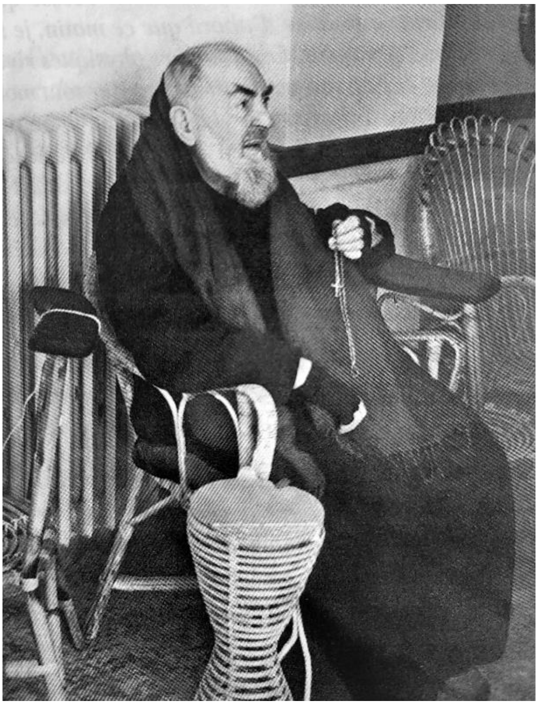

المصلّي

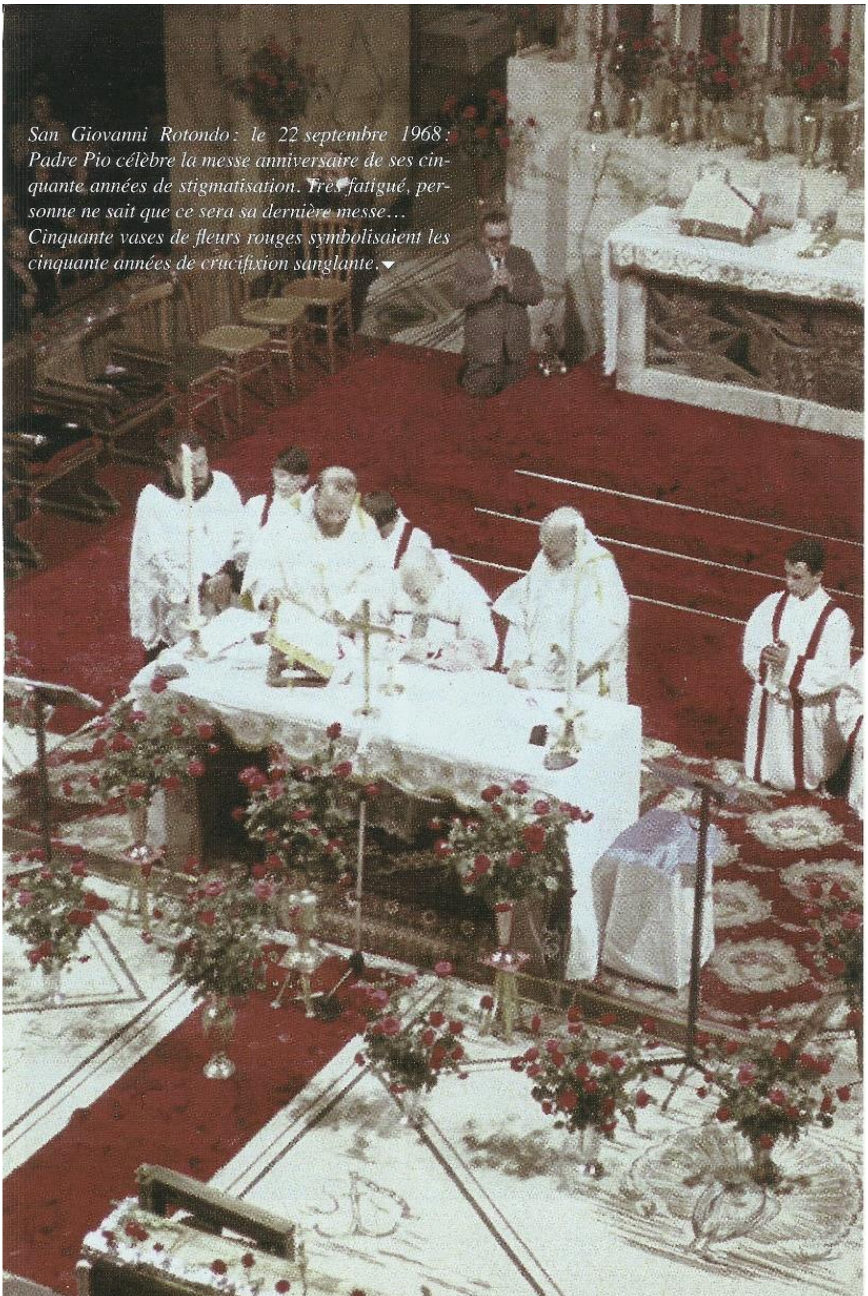

قدّاسه الأخير ١٩٦٨/٩/٢٢ ، بمناسبة مرور خمسين سنةً على ظهور سماته

مسجًّى في تابوته، عند أقدام الهيكل

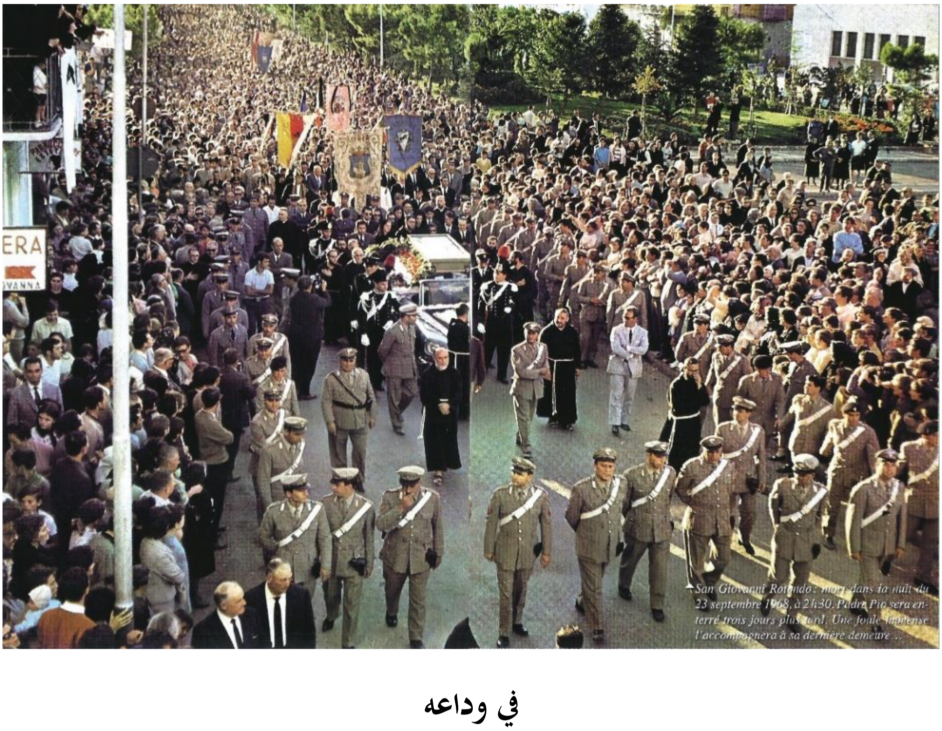

في وداعه

يوم عيد الميلاد ١٩٥٤

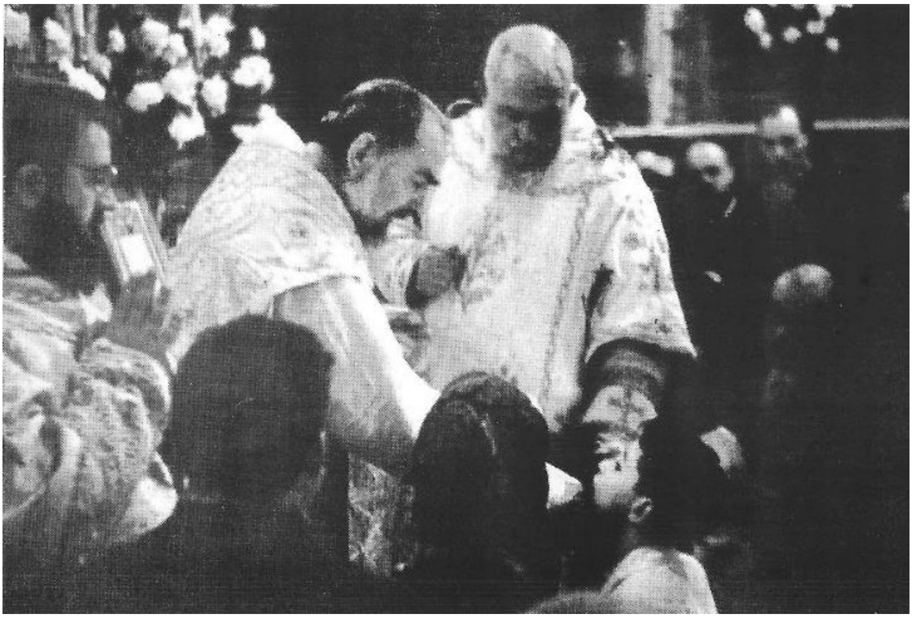

يعطي أطفالًا المناولة الأولى

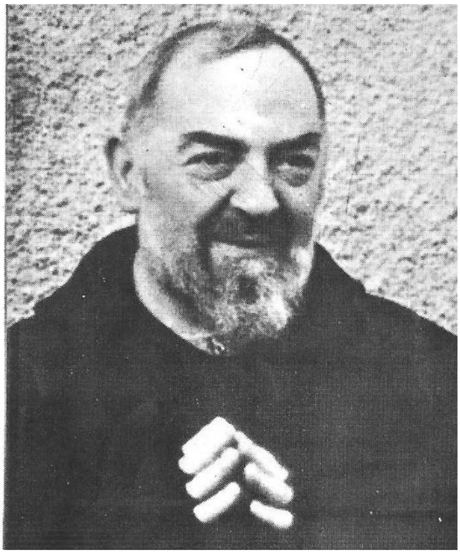

١٩٥٤

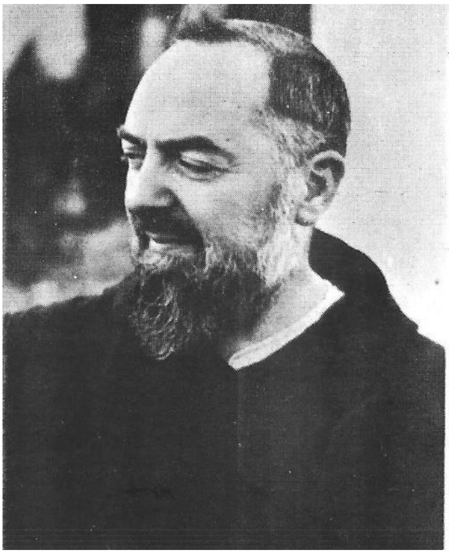

١٩٤٠

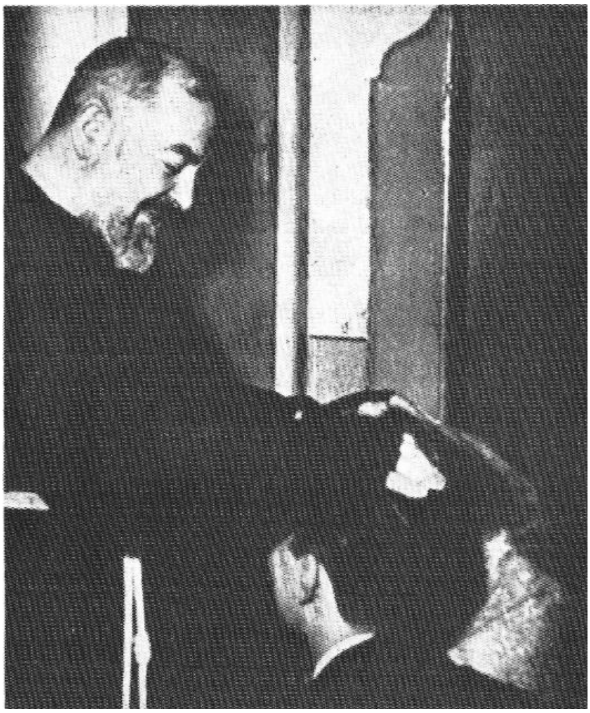

يبارك عروسَيْن

يحاول دائمًا الحدّ من حماس محبّيه

حتّى اللحظة الأخيرة يرحّب بالكبار والصغار على السواء

المكرِّس

"في الكتب نبحَث عن الله، وفي الصلاة نجده"

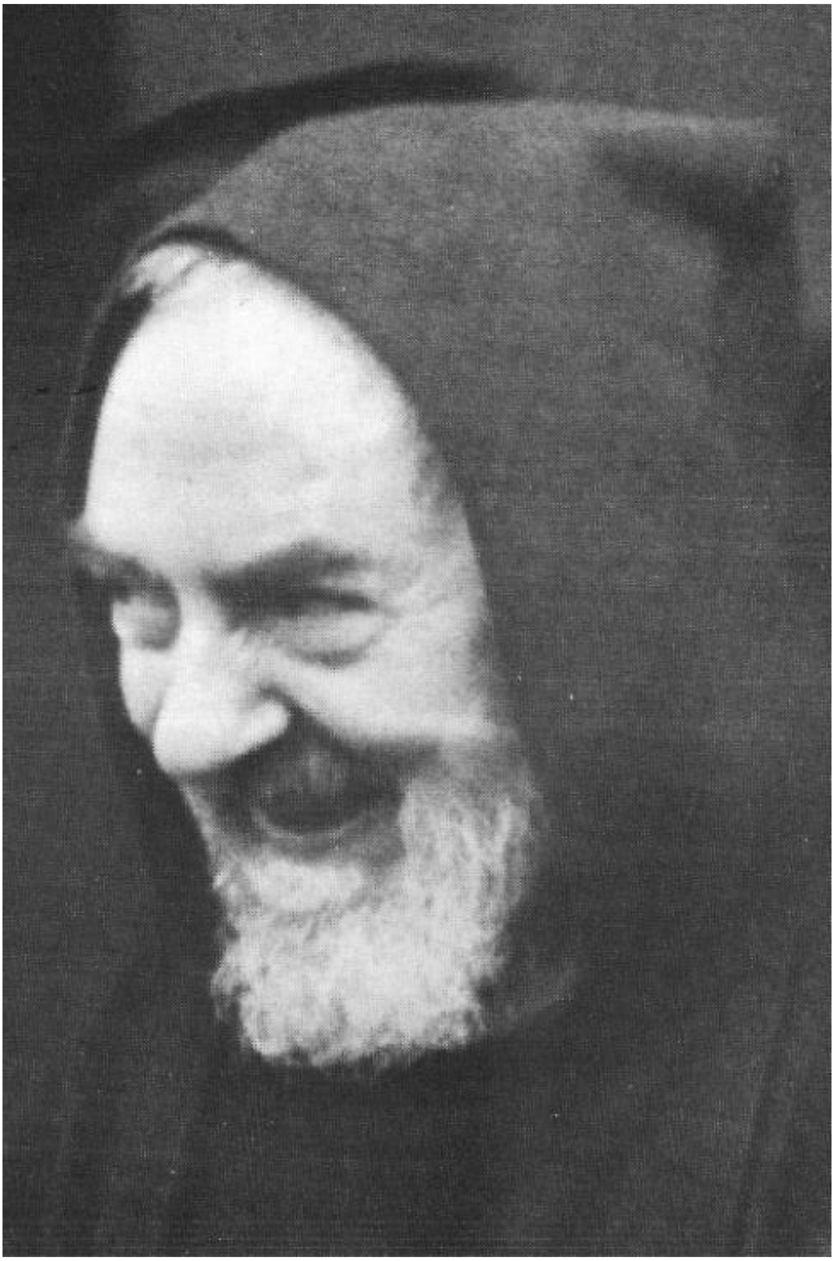

محيّا شفّافٌ يطفح رقّةً

الجُزْءُ الخَامِسُ

أيّامه الأخيرة

شيخوخةٌ وجيعةٌ وبوادر عَزاءٍ مؤثّرةٌ

"تحتاج الكنيسة إلى أن تُخَلَّص بشفاعة إنسانٍ يتألّم، ويحمل في ذاته آلام المسيح".

(البابا بولس السادس)

تحرير پادري پيّو من قيوده جاء متأخّرًا، حين لم تعُدْ له قدرةٌ على التنعّم بتلك الحرّيّة. فقد شارف الثمانين من سنوات عمره، وهدّته العِلَل والأوجاع. وهو كان منذ حداثته، واهن الصحّة، ولم تفسح له الأمراض المتعاقبة هدنةً، فضلًا عن التضحيات الطوعيّة التي كان يفرضها على ذاته، وفضلًا عن اقتصار طعامه على وجبةٍ يوميّةٍ واحدةٍ، قوامها القليل من الخضراوات والمعجّنات المسلوقة، وقطعة فاكهةٍ واحدةٍ، وفضلًا عن جراحه الخمسة، التي استنزفت دمه على مدى خمسين سنةً.

وإكمالًا لتمثّله بالمصلوب، تفاقمت أوجاعه الجسديّة، وضاعف إبليس حملات انتقامه منه، وفتكه به.

فمنذ عام ١٩٦٥، لم تعد ساقاه تقويان على حمله، وضعف بصره، واشتدّت أوجاع صدره، وظهره، وركبتَيْه.

وليلة الخامس إلى السادس من شهر تمّوز ١٩٦٤، سمع إخوانه الرهبان ضوضاء مرعبًا في صومعته، فخفّوا لاستطلاع الأمر، ووجدوه مرميًّا أرضًا، وقد شُقّ قوس حاجبه.

ووجده أحد إخوته، ذات صباحٍ، إثر رؤيةٍ شيطانيّةٍ مريعةٍ، يتصبّب عرقًا باردًا، وقد اضطرّ إلى استخدام عشرة مناديل، كي يجفّف العرق الذي لم يكفّ يتقطّر من جبينه. وقال پادري پيّو لأخيه الراهب: "لو رأيتَ ما رأيتُه، لمُتَّ في الحال".

ولكأنّ آلامه الجسديّة، وهجمات الشيطان لم تكن كافيةً لإنهاكه، فانضمّت إليها محنةٌ نفسيّةٌ، أمعنت في إخجاله، إذ دأبت صحيفة "إلتيمپو" (El Tiempo) الإيطاليّة، مدى نحو شهرين، رغم اعتراضه الشديد، على نشر رسائله السرّيّة إلى مرشدَيْه الروحيَّيْن.

وكانت تلك خطواته الأخيرة لتسنّم قمّة الجلجلة، ولاكتمال تمثّله بالمسيح.

وفي ١٩٦٥/٣/١٩، قيّدته الأمراض بالفراش، ولم يستطع مغادرته إلّا من أجل إقامة القدّاس، بمساعدة إخوةٍ، كانوا يعينونه في كلّ حركةٍ، ليلًا ونهارًا. واستمرّت آلامه شهرين بلا هوادةٍ، ولم يجد الأطبّاء إلى معالجتها أو إلى التخفيف من وطأتها سبيلًا، سوى مسكّناتٍ، كانت تبقيه في حالة نعاسٍ دائمٍ. ولكنّه يومَ سبت النور، أحسّ تحسُّنًا في قواه، فاستوى، واستمع إلى بضع اعترافاتٍ، أثلجت بضع قلوبٍ، ثمّ احتفل بقدّاس الفصح، مشيعًا العزاء والبهجة في نفوس الحجّاج، وأبنائه الروحيّين.

وزاره، حينذاك، رئيس ديره السابق، وأوجعته رؤيته له شاحبًا متصبّبًا عرقًا، منتحبًا كالأطفال، بسبب اضطراره إلى جرّ نفسه جرًّا، والاستعانة بإخوانه في كلّ حركةٍ، وبكونه عالةً عليهم.

وفي غمرة هذه المحنة، سمعه رفاقه وأبناؤه الروحيّون يتأوّه: "هذه هي الساعة التي يدعوني فيها الله إليه". وكان لهذا التأوّه في قلوب سامعيه نغمة تمنٍّ.

ولما حار أطبّاء "بيت تخفيف الألم" بشأن طبيعة أوجاعه الغامضة، استشاروا البرفسّور "كسَّانو"، الذي كان، حينذاك، في الولايات المتّحدة الأميركيّة، مرافقًا رئيس وزراء إيطاليا، "ألدو مورو". وما إن حطّت الطائرة العائدة بهما في مطار روما، حتّى وضع رئيس الوزراء بتصرّف البرفسّور "كسّانو" طائرةً عسكريّةً، نقلته إلى سان جُوفانّي رُتوندو. غير أنّ رئيس الدير الكبّوشيّ، منع البرفسّور من مقابلة پادري پيّو. واستنكرت الصحافة الإيطاليّة هذه الإهانة لقمّةٍ طبّيّةٍ عالميّةٍ، ولرئيس الوزراء نفسه، والتي لا يمكن وصفها إلّا بتصميمٍ أثيمٍ على طبخ الراهب القدّيس، على نارٍ هادئةٍ، حتّى القضاء عليه.

وكادت تنشب أزمةٌ وطنيّةٌ، لو لم تنشر وكالة أنباءٍ رسميّةٌ نبأً هدّأ العاصفة، إذ أعلنت أنّ پادري پيّو قد أبلّ من علّته الناجمة عن نزلة بردٍ شديدةٍ. وكان الأب پيّو، في الواقع، قد استعاد نشاطه المألوف، وعاد إلى الهيكل وكرسيّ الاعتراف. ففي كرسيّ الاعتراف كان يغسل النفوس من آثامها، ويصالحها مع مخلّصها. أمّا القدّاس فكان له مناسبةً لتجديد تقدمة ذاته قربانًا، تكفيرًا عن خطايا العالم. وقد صرّح، يومًا، أنّ القدّاس هو اتّحادٌ كلّيٌّ بين يسوع وبينه. وكان يطيب له أن يذكر فيه أبناءَه الروحيّين الحاضرين، كلًّا منهم باسمه.

منذ ١٩٦٦/٣/٢٤، لم يَعُدِ الأب پيّو يستطيع التحرّك إلّا على متن كرسيٍّ بعجلاتٍ. وتعذّر عليه النزول إلى طبقة الدير السفلى، حيث الكنيسة، وأمست أشهر حياته الأخيرة، جلجلةً حقيقيّةً.

غير أنّ أبناءه الروحيّين لم يكونوا يفوّتون فرصةً كي يلتفّوا حوله، ويسرّبوا إلى نفسه مذاق عزاءٍ، ونفحة بهجةٍ. وقد أعدّوا له، بمناسبة عيد شفيعه، في ١٩٦٦/٥/٥، الموافق لذكرى تدشين "بيت تخفيف الألم" الثانية، احتفالًا حاشدًا. وبهذه المناسبة، أقام

الكردينال "ليركارو" قدّاسًا في باحة "البيت"، حضره الأب پيّو المنهك، محاطًا بألوف القادمين من مختلف أرجاء العالم، للمشاركة في مؤتمر اتّحاد جماعات الصلاة، التي ألهمها، ودعا إلى إنشائها، وزوّدها بروحانيّته.

وفي السنة التالية، احتشد في سان جُوڤانّي رُتونّدو جمعٌ أشدّ كثافةً، ضمّ مجموعاتٍ من أبنائه الروحيّين، ومن أصدقائه الحريصين على تهنئته ببلوغه الثمانين من عمره. وشاركهم أكثر من ألف ممثّلٍ عن جماعات الصلاة، فكانوا شهادةً حيّةً على سِعة رقعة رسالة الأب پيّو الروحيّة.

وفي ذلك اليوم، الذي توخّى أصدقاؤه، فيه، إدخال العزاء إلى نفسه، لم يحِدْ، هو، عن برنامجه اليوميّ، فأقام قدّاسه، في الساعة الخامسة صباحًا، واستقبل التائبين في كرسيّ تعريفه حتّى الظهر، ثمّ اقتيد، بعد الظهر، إلى حقلٍ بجوار الدير، من أجل تحيّة مهنّئيه، الذين قدم العديد منهم من خارج إيطاليا.

وبما أنّ قواه كانت تتلاشى، يومًا فيومًا، وكان حسر بصره، يحول دون قدرته على تلاوة كتب الصلوات، كان رؤساؤه قد أعفوه، منذ عام ١٩٦٢ من بعض الممارسات الرهبانيّة.

وفي عام ١٩٦٦، أمسى الأب يقيم القدّاس جالسًا على مقعدٍ ووجهه نحو الشعب. وعام ١٩٦٧، تنبّأ عن موعد وفاته أمام ابنة أُخته، التي حدّثته عمّا كانت أسرتها تعتزم فعله بعد سنتَيْن، فقال لها: "يؤسفني ألّا أكون معكم، حينذاك، لأنّي أكون قد رحلتُ عن هذه الدنيا".

بيد أنّه، مع انهيار قواه، كان قد استمع، خلال عام ١٩٦٧، إلى اعترافات نحو خمسة عشر ألف امرأةٍ، ونحو عشرة آلاف رجلٍ، أي بمعدّل سبعين اعترافًا كلّ يومٍ.

ولكأنّه نسخةٌ عن خوري أرس الذي، قبل نحو قرنٍ، كان يقضي في كرسيّ الاعتراف اثنتي عشرة ساعةً شتاءً، معانيًا بردًا قارسًا، وستّ عشرة ساعةً، صيفًا، محتملًا القيظ الخانق، والرطوبة المضنية. وكان كلٌّ من الكاهنَيْن بفضل نعمة بصيرةٍ ثاقبةٍ، ينفذ إلى أعماق النفوس، ويحرّرها من كلّ قذارةٍ. كلاهما مثّل صورة المخلّص محبّ البشر الرحيم، وأبرزا أبهى صورةٍ لعظمة الكهنوت.

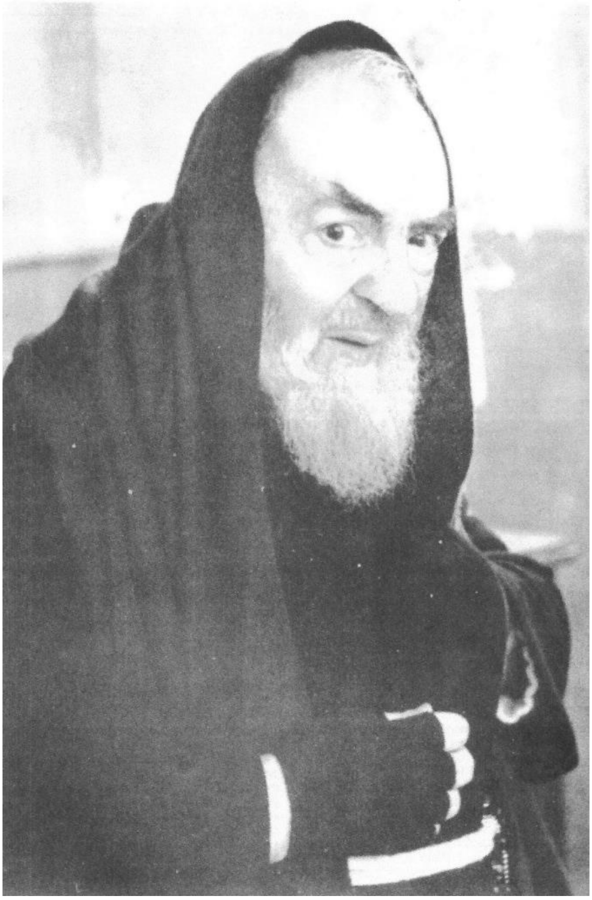

هذا ما فعلته المِحَن والأمراض به

وفاته وزوال سمات صلبه

وافق يوم ١٩٦٨/٩/٢٠، ذكرى مرور خمسين عامًا على ظهور سمات صلبه. وكان قد أقام قدّاسه على انفرادٍ، في الساعة الخامسة صباحًا. وقضى فترة قبل الظهر في كرسيّ الاعتراف.

وكان، في الأيّام السابقة يبدو محتضرًا، وكان يُدفع على كرسيٍّ بعجلاتٍ، وسط المؤمنين، ويُضطرّ مساعدوه إلى حمله كي يجلسوه على مقعد خاصٍّ قرب الهيكل، الذي كان يتّكئ عليه بساعدَيْه. وأثناء إقامته القدّاس، لم يكن يُسمَع له صوتٌ، حتّى عن قربٍ. وبما أنّه بات عاجزًا عن إدارة رأسه، كان راهبٌ يضع كتاب القدّاس نصبَ عينيه، ويشير إلى النصّ الذي يجب تلاوته.

في الواقع كان محتضرٌ يقيم القدّاس.

ومع ذلك، أصرّ الأب پيّو على تأكيد إيمانه بالعقائد الكاثوليكيّة، وخضوعه للبابا بولس السادس، وفي الآن عينه استنكاره النزعة التحديثيّة الممعنة في التخلّي عن التقاليد الكنسيّة، والتهاون بشأن العقائد، والانزلاق إلى الهرطقات، والتصفيق لكلّ خارجٍ عن المألوف.

ومساء ذكرى مرور خمسين سنةً على ظهور سماته، جرى تطوافٌ بالمشاعل حول الدير، ولكنّ الإعياء منع الأب پيّو من القيام بالمبادرة الغالية على نفسه، مبادرة الإطلال من نافذة صومعته، والتلويح، طويلًا، بمنديله الأبيض الكبير، تعبيرًا عن محبّته وشكره لأبنائه ومحبّيه.

اليوم التالي كان سبتًا، وشخّص طبيبه لديه إصابةً حادّةً في الرئتَيْن، مصحوبةً بازرقاق شفتَيْه، وخَوَر عمل شرايينه، وتصبّب عرقٍ باردٍ منه.

ومع ذلك بذل الأب پيّو ما تبقّى له من طاقاتٍ، واشترك في صلاة المساء، المقامة احتفالًا بمؤتمر اتّحاد جماعات الصلاة الأوّل، وبارك أبناءه الروحيّين، المنضمّين إلى تلك الجماعات.

وكان يوم الأحد موعدًا للاحتفال العلنيّ بانقضاء خمسين سنةً على ظهور سمات صلبه، وقد تدافعت للمشاركة بهذا العيد، أفواج الحجّاج الحريصين على إظهار محبّتهم للأب القدّيس. وكان الهيكل قد زُيّن بخمسين باقة ورودٍ حمراء، ترمز إلى خمسين سنة صلبٍ دامٍ وخلاصيّ.

ورغب رئيس پادري پيّو في أن يحتفل الأب، شخصيًّا، بالقدّاس العلنيّ، فامتثل متحدّيًا خَوَر قواه. وإمعانًا في إطاعة رئيسه، حاول ترتيل القدّاس، ولم يستطع، وتجلّت عليه أمارات الانهيار والاضطراب، وفي نهاية القدّاس أُغمي عليه، وهوى، فتداركه إخوانه المحيقون به. وفيما كان مساعدوه يبتعدون به، ألقى نظرة وداعٍ إلى أحبابه المحتشدين، ومدّ نحوهم ذراعيه، وكأنّه يودّ احتضانهم، وتمتم: "يا أبنائي الأحبّاء".

واتّفق أنّ صديقه ومناصره "پانيوسِّين"، كان يصوّر المشهد من رواقٍ عالٍ، بجهاز تصويرٍ حديثٍ وفائق الدقّة، ونَعِم بسَبَق التقاط اختفاء سمات الصلب من يديه، ولم يلبث أن تأكّد إخوان الأب من هذه الظاهرة عند وفاته، إذ وجدوا مكان الجراح في يديه، ملتئمًا، وقد اكتسى بجلدٍ أملس نقيّ، مثل جلد طفلٍ وليدٍ.

لقد انتهت سنوات آلامه الخلاصيّة على الأرض، وحان أوان تمجيده، وكان امّحاءُ جراحه مصداقًا لقداسة حياته.

وكان برنامج ذلك اليوم، يقتضي أن يبارك الأب پيّو المحتفلين به، وأبناءه الروحيّين، ويزوّدهم بإرشاداته الأخيرة، عقب صلاة التبشير، ظهرًا، غير أنّه، من جرّاء خَوَره المتفاقم، سبّق ذلك الموعد، وظهر من نافذة عليّة الكنيسة، فبدا شديد الشحوب، شفّافًا، ولوّح للمحتشدين بمنديله الأبيض، وباركهم بيده، وبدا ظهوره كأنّه ظهورٌ أثيريٌّ من عالمٍ آخر.

بعدئذٍ، اقتاده إخوانه الرهبان إلى صومعته، وأمضى فترة بعد الظهر، بلا حراكٍ، ولا قوّةٍ، وعند الساعة السادسة مساءً، جرّ نفسه إلى الكنيسة، من أجل المشاركة في صلاة المساء، وحاول منح بركته الأخيرة، ولكنّ قواه خانته، ولم يقوَ على النهوض. فأُعيد إلى صومعته، منتحبًا. وجفاه النوم. وعند منتصف الليل رغب في الاعتراف، وقال للراهب الساهر عليه: "إذا استدعاني الله هذه الليلة، اطلب، باسمي، صفح إخواني عن كلّ الهموم التي سبّبتها لهم، واطلب منهم، ومن أبنائي الروحيّين أن يصلّوا لراحة نفسي".

وانتابته رغبةٌ في تجديد إعلان نذوره الرهبانيّة، فسار بضع خطواتٍ نحو شرفةٍ قريبةٍ، وشهد إخوانه أنّه كان يسير بخطًى رشيقةٍ ومستقيمةٍ، وكأنّه لم يعدْ بحاجةٍ إلى مساندةٍ. وبغتةً، اكفهرّ وجهه وتصبّب عرقًا، وراح يردّد: "يا يسوع، ويا مريم، يا يسوع ويا مريم". وأخذت قواه تغادره، وعند الساعة الواحدة، استدعى مرافقه سائر الإخوان، وطبيبه الذي خفّ للحضور، ومنحه رئيس الدير سرّ الزّيت المقدّس أي مسحة المُدنفين.

عند الساعة الثانية، فجرًا، خفتَ نَفَسُه، وضعفت نبضات قلبه. وسدًى حاول أطبّاؤه الذين هرعوا إليه إنعاشه بشتّى الوسائل، وعند الساعة الثانية والنصف فجرًا، لفظ نفسَه الأخير.

كان ذلك يوم ١٩٦٨/٩/٢٣، واتّضح زوال سمات صلبه، منهيًا خمسين سنةً من النزف والآلام. وكان صلبه المتمادي قد انتهى به إلى مجد القيامة.

فأُلبِس حلله الكهنوتيّة، وسُجّي في نعشٍ مكشوفٍ، واستطاع محبّوه، يومي ٢٣ و ٢٤ أيلول، إلقاء نظرة وداعٍ وتكريمٍ، على راهبٍ لم يسعَ، طوال حياته، إلّا إلى تتميم مشيئة الله، والتوغّل في التمثّل بالمصلوب.

وكان شخصٌ قد وافى من الڤاتيكان، وحدّق إلى جثمانه وقال: "مات پادري پيّو أسًى، من جرّاء ما يحدث في الكنيسة".

ليلته الأخيرة

في ما يلي رواية الأخ "پيلّيغرينو" (Pellegrino)، المكلّف بالسهر على پادري پيّو، في تلك الليلة:

«كان الأب، في أيّامه الأخيرة، لا يكفّ يردّد: "كم اشـــتقتُ إلى القبر! فأنا في الجانب الآخر من الأرض، أكثر ممّا أنا هنا. اسألوا الربّ أن يُميتني!".

وبواسطة هاتف اتّصالٍ داخليّ، استدعاني الأب پيّو إلى حجرته. كان مستلقيًا على السـرير، وعلى جنبه الأيمن. طلب منّي أن أبيّن له السـاعة الظاهرة على المنبّه. فلبّيت طلبه، ومسحت عن عينيه المحمرّتَيْن قطرات دمعٍ صغيرةً، وعُدتُ إلى الحجرة المجاورة، مصغيًا إلى الهاتف الداخليّ.

ثمّ اسـتدعاني الأب خمس أو سـتّ مرّاتٍ، حتّى منتصـف الليل، وفي كلّ مرّةٍ كان يطرح عليّ السـؤال عينه، وكنت ألحظ عينيه محمرّتين، فقد كان يبكي بصمتٍ وسكونٍ. عند منتصف الليل، استحوذ عليه الخوف، مثل ولدٍ صغيرٍ، وطلب منّي المكوث معه، وفي كلّ لحظةٍ كان يستفسر كم هي السـاعة، ويحدّق إليّ بعينين متوسّلتَيْن، ويشدّ على يديّ.

وبغتةً سألني باللهجة المحلّيّة: "أيّها الفتى، هل احتفلتَ بالقدّاس؟".

– إنّي أُقيمه، في كلّ صباحٍ، وفقًا لنواياك".

ورغب في الاعتراف، وبعد اعترافه، قال لي: "يا بُنيّ، إذا اســتدعاني الربّ، اليوم، فاطلبْ صفح إخواني عن كلّ ما سبّبتُه لهم من مضايقاتٍ، واطلبْ منهم، ومن أبنائي الروحيّين، أن يصلّوا من أجل راحة نفسي". فأجبته:

– "يا أبتِ الروحيّ، أنا موقنٌ أنّ الربّ ســيبقيك على قيد الحياة طويلًا، ولكن

إذا صحّ تخمينك، فهل لي أن أطلب منك بركتك الأخيرة لإخوانك، ولأبنائك الروحيّين، ولمرضاك".

– أجل، أباركهم جميعًا. وأرجوك أن تطلب، أيضًا، من الرئيس أن يمنحهم هذه البركة الأخيرة باسمي".

ثمّ رغب في تجديد إعلان نذوره الرهبانيّة.

وعند الساعة الواحدة صباحًا، قال لي: "اسمع، يا بنيَّ، إنّي، في سريري لا أتنفّس جيّدًا، فأجلسني لعلّني أستطيع التنفّس، على نحوٍ أفضل.

من قبلُ، كان اعتاد النهوض منذ الساعة الواحدة والنصف، أو في الثانية، أو في الثالثة، استعدادًا للقدّاس. وكان، قبل جلوسه على الأريكة، يخطو بضع خطواتٍ في الرّواق، وقد لحظتُ أنّه، في تلك الليلة، كان يسير برشاقةٍ، سيرًا مستقيمًا، مثل شابٍّ، وبلا حاجةٍ، إلى سندٍ. ولمّا عاد إلى الغرفة، قال: "فلنذهب، لحظةً، إلى الشرفة". فتبعته، ويدي تحت ذراعه. أشعل المصباح بنفسه. ولمّا جلس على الأريكة، أجال، من حوله، نظرة فضولٍ، وكأنّه كان يبحث بعينيه عن شيءٍ. وبعد خمس دقائق، أراد العودة إلى صومعته، فحاولت إنهاضه، ولكنّه قال لي: "لا أقوى على النهوض". فشجّعته قائلًا: "لا تقلق، يا أبتِ الروحيّ، ورفعته من إبطَيْه، وأجلسته على الأريكة. حينئذٍ، رفع قدميه بذاته، ووضعهما على موطئ قدميه.

ولمّا عدنا إلى صومعته، أشار إليَّ بيده اليُسرى، وبعينيه، إلى المقعد المتحرّك، وقال: "ضعه خارجًا". فأخرجته، ولمّا عدتُ لحظتُ شحوبًا مُقلقًا في محيّاه، وشفتَيْه، ورأيت العرق يغمر جبينه، وكان يردّد باستمرارٍ: "يا يسوع، يا مريم!"، بصوتٍ لا ينفكّ يخفت. فارتعبتُ، ونهضتُ كي أنادي أحد الإخوة، ولكنّه أوقفني قائلًا: "لا توقظ أحدًا". ولكنّني كنت قد صرت في الممرّ الخارجيّ،

فناداني، ثانيةً، وظننت أنّه سيطلب منّي أمرًا آخر، غير أنّه كرّر قوله: "لا توقظ أحدًا". فأجبته: "يا أبتِ، دعني الآن أفعل".

وجدتُ باب غرفة أحد الإخوة مفتوحًا، فأشعلتُ المصباح، وهززتُ الأخ قائلًا: "حالة الأب پيّو سيّئةٌ"، وفي لحظةٍ كان ذلك الأخ أمام الأب پيّو، في حين سارعتُ إلى الهاتف، واستدعيت الدكتور "سالا"، الذي وصل، في غضون عشر دقائق، وسارع إلى إعداد حقنةٍ منعشةٍ. في هذه الأثناء كان الأب پيّو يردّد، بلا توقّفٍ: "يا يسوع، يا مريم!" ولكن حركة شفتَيْه كانت تضعف لحظةً فلحظةً، وصوته يكاد لا يُسمَع.

كان جرس الإنذار قد قُرِع، فتراكض أطبّاء "بيت تخفيف الألم"، ورئيس الدير، والإخوة الرهبان. وفيما كان الأطبّاء منهمكين في وضع قناع أوكسيجين على وجه الأب پيّو، كان الأب الرئيس يمنحه أسرار المحتضرين، وجميع الإخوة يصلّون، من حوله، راكعين. ونحو الساعة الثانية والنصف، أمال الأب رأسه، وأطلق نَفَسَه الأخير. وكان ذلك يوم ١٩٦٨/٩/٢٣».

أثار النبأ الفاجع، الذي سرعان ما ذاع في أقطار المسكونة الصدمة، والتأثّر، واستمطر الدموع، والصلوات. فقد كان القلب الذي طعنته رمح الحبّ الإلهيّ، قد توقّف عن النبض.

وتوالت طوابير الحشود المنتحبة، الخاشعة، تمرّ أمام الجثمان المسجّى في نعشٍ مغطًّى بلوحٍ زجاجٍ. ولم ينقطع تدفّق القادمين، من كلّ صوبٍ، حتّى الليل.

مسيرة تطويبه

وفاة پادري پيّو فتحت عهد حجٍّ كثيفٍ إلى مدفنه، ما انفكّ يتكثّف تدفّقه، يومًا فيومًا. فقد أدرك الشعب المؤمن فرادة ذلك القدّيس الاستثنائيّ، وبات على المسؤولين الكنسيّين أن يُسبِغوا على حركة الحجّ طابعًا رسميًّا يبرّره.

ويوم ١٩٦٩/٩/٤، طلب الرئيس العامّ على الجمعيّة الكبوشيّة، من أسقف "منفريدونيا"، الذي تتبع منطقة سان جُوڤانّي رُتونّدو لسلطته الأبرشيّة، الشروع بدعوى تطويب الأب پيّو. وفي تمّوز ١٩٧٠، وُزِّعت نشرةٌ عن حياته ورسالته. وانضمّ إلى المطالبة بتطويب پادري پيّو مجلس أساقفة پولونيا الأسقفيّ، فقدّم إلى السلطات الكنسيّة العليا طلبًا بهذا الشأن، وقّعه الكردينالان "ڤيزنسكي" و"فوتيووا"، الذي سيصبح البابا يوحنّا بولس الثاني، وثلاثةٌ وأربعون أُسقفًا.

غير أنّ مجمع العقيدة والإيمان اعترض، في شهر أيّار ١٩٧٦، على مباشرة هذه الدعوى، بحجّة أنّ بعض المسؤولين الكنسيّين الذين ساهموا في اضطهاد الأب پيّو، وفي مقاومته وإدانته، في ثلاثينات القرن العشرين، ما زالوا أحياءً، وأنّ إثارة تلك القضيّة قد تسبّب خلافاتٍ جديدةً وانشقاقاتٍ داخل الكنيسة.

ولكنّ وصول يوحنّا بولس الثاني إلى سدّة البابويّة، عام ١٩٧٨، أطاح بكلّ الاعتراضات والعوائق، ولا سيّما أنّه كانت له صلاتٌ مباشرةٌ بالأب پيّو أثناء حياته، رسّخت قناعته بسموّ قداسته.

رُفعت، إذن، الاعتراضات، وفي ١٩٨٠/٤/١٠، طلب أُسقف "مانفريدونيا"، افتتاح دعوى التطويب. وفي ١٩٨٣/٣/٢٠، كانت اللجنة الأبرشيّة قد جمعت ٥٧٥

شهادةً ومقالةً، تناولت سيرة الأب پيّو، منذ مولده حتّى مماته، وطريقة ممارسته الفضائل الإلهيّة: الإيمان والرجاء والمحبّة، والفضائل الإنسانيّة: الفطنة، والعدل، والقوّة، والقناعة، والنذور النسكيّة: الفقر، والعفّة، والطاعة. وضمّت الوثائق، أيضًا، شهادات لا أقلّ من ٦٩ شاهد عيانٍ، أدلوا بأقوالهم عمّا عهدوه بشأن حياته الصوفيّة، وقداسته، وتضحياته.

وقد ألّفت التقارير الطبّيّة المتعلقّة بجراح الصلب التي لازمته خمسين سنةً، ملفًّا ضخمًا لا نظير لضخامته في قضايا التطويب.

وعند انتهاء دعوى التطويب في ١٩٩٠/١/٢١، كانت قد تجمّعت مئةٌ وأربعة مجلّداتٍ، تضمّ آلاف الشهادات والوثائق، تناولت جميع القضايا الخلافيّة: تحقيقات الكرسيّ الرسوليّ المتناقضة وفق الغايات والأهواء؛ موقف الأب جيميلّي؛ قضيّة "جيوفّري"، علاقة پيّو بأبنائه الروحيّين، وبناته الروحيّات، ولا سيّما المدعوّة "كليونيس موركالدي"، الظواهر الصوفيّة في حياته.

وقد أوجزت لجنةٌ تلك الوثائق في ستّة مجلّداتٍ ضخمةٍ، وكان المجلّد الرابع منها، وحدَه، يضمّ نحو ألف صفحةٍ.

وأكبّت لجنةٌ من تسعة لاهوتيّين على دراسةٍ دقيقةٍ، ومتأنّيةٍ، لكلّ تلك الوثائق. وبناءً على دراستهم، أصدر مجلس الكرادلة، المكلّف بالقضيّة، وبحضور البابا يوحنّا بولس الثاني، قرارًا باعتبار الأب پيّو مكرّمًا، بتاريخ ١٩٩٧/١٢/١٨.

وبات على الأب پيّو أن يؤكّد قداسته من خلال عجائب تحدث بشفاعته بعد موته. واعتُمدت، لهذه الغاية، أعجوبة شفاء السيّدة "كونسيليا دي مارتينو"، التي حدثت عام ١٩٩٥، وتمّ الاعتراف بكونها معجزةً عام ١٩٩٨. (وقد سردنا تفاصيلها

في كتيّبٍ ملحقٍ، يحتوي عشرات الخوارق التي جرت بدعاء الأب پيّو في حياته، وبشفاعته بعد موته.)

ويوم ٢ نوّار ١٩٩٩، أعلنه البابا يوحنّا بولس الثاني طوباويًّا، بحضور مليون مؤمنٍ، وقد وصف الحبر الأعظم الطوباويّ بأنّه وجهٌ حيٌّ للمسيح المتألّم والقائم من الموت". وجاء في خطابه بهذه المناسبة:

"على محيّا الأب پيّو يتألّق نور القيامة، وجسده المدموغ بسمات الصليب كان يُظهر العلاقة الوثيقة بين الموت والقيامة، الرامزَيْن إلى السرّ الفصحيّ. لقد اتّسمت مشاركة الطوباويّ پيّو دي پْيترِلْشينا بآلام المسيح بصبغةٍ مميّزةٍ. فالهبات الاستثنائيّة، التي أُغدِقت عليه، والآلام الداخليّة الصوفيّة التي واكبته، أتاحت له المشاركة الدائمة بآلام الربّ، وبوعيٍ دائمٍ لأنّ "الجلجلة هي جبل القدّيسين".

"كان پادري پيّو الموزّع السخيّ للرحمة الإلهيّة، والمرشد الروحيّ. وكان، على نحوٍ فريدٍ، مانح سرّ التوبة. وقد نعمتُ، أنا شخصيًّا، في شبابي، بحسن وفادته للتائبين.

"لقد كانت مهمّة سرّ التوبة الكهنوتيّة من أبرز وجوه رسالته، وكانت تجتذب جموعًا من المؤمنين لا يُحصى عديدهم، إلى دير سان جُوڤانّي رُتونْدو. وحتّى عندما كان ذلك المعرِّف الفذّ يعامل التائبين بمظاهر القسوة، كان يجعلهم يعون جسامة خطاياهم، ويندمون عنها ندامةً صادقةً، ويتحوّلون كي يتلقّوا عناق السلام، والصفح المقدّس.

كتب الأب "جيرالدو دي فلوميري" (Geraldo di Flumeri)، الذي كان من المدافعين عن تطويب پادري پيّو:

"بسبب سمات صلبه، عُدَّ پادري پيّو محتالًا، ودجّالًا. ومريضًا نفسيًّا، ومسكونًا بالشياطين، ولم تصدر هذه الافتراءات فقط، عن ملحدين كفّارٍ، بل أيضًا، عن إخوةٍ له، ورؤساء، وعن سلطاتٍ كنسيّةٍ. وأدانه الكرسيّ الرسوليّ، وقُيِّدت حرّيّته في ممارسة رسالته الكهنوتيّة.

"وبعد تطويبه نُسيت كلّ تلك الإهانات والاضطهادات التي فتكت به، ولكأنّها انصبّت على حجرٍ، ولم تضطهد قدّيسًا ولم تُسمع كلمة اعتذارٍ أو تأسّفٍ. ولا يُستَبعد أن تلاحق مثل هذه الإهانات قدّيسين آخرين".

وغداة التطويب، قال البابا أمام وفد الحجّاج الذي شاركوا في الحدث:

«كانت الذبيحة المقدّسة هي قلب كلّ يومٍ من أيّام پادري پيّو، وهاجس كلّ ساعاته، وموعد الاتّحاد الأكبر بيسوع الكاهن والضحيّة. كان يشعر أنّه مدعوٌّ إلى مشاركة يسوع نزاعه المستمرّ حتّى نهاية العالم».

وكان إعلان القداسة يقتضي حدوث معجزةٍ ثانيةٍ، وهذا، غالبًا، يستلزم انتظار سنواتٍ، وعقودٍ أحيانًا. ولكنّ إعلان قداسة پادري پيّو تمّ بعد ثمانية أشهرٍ فقط، على إعلان طوباويّته. فيوم ٢١/١/٢٠٠٠، تمّت معجزة شفاءٍ مذهلةٌ، للطفل "متّيو پيّو كولّيلا"، بشفاعة پادري پيّو، واعترفت الكنيسة بأنّ الشفاء معجزةٌ بتاريخ يوم ٢٠/١٢/٢٠٠١.

وأعلن البابا يوحنّا بولس الثاني قداسة الأب پيّو دي پْيِترِلْشينا، يوم ١٦/٦/٢٠٠٢. وتقرّر الاحتفال بعيد "مولده في السماء" يوم ٢٣ أيلول، من كلّ عامٍ.

وبغيةَ استيعاب سيول الحجّاج المتدفّقين إلى سان جُوڤانّي رُتونّدو، أُشيدت كنيسةٌ بمزيجٍ من إسمنتٍ وزجاجٍ، تتّسع لثمانية آلاف جالسٍ. ودُشِّنت في ١/٧/٢٠٠١. ونقل إليها رفات القدّيس، عام ٢٠٠٩.

وقد سُجّل، في ذلك اليوم، وصول ثمانية ملايين حاجٍّ إلى سان جُوڤانّي رُتونّدو، جاعلًا من تلك القرية الصغيرة التائهة على هضاب جبال "غرغانو" بجنوب إيطاليا، المحجّ الثاني في أوروپّا، بعد روما، وقبل لورد.

ويبقى مقصد الحجّ الأكثر اجتذابًا للحجّاج، في العالم، بلا منازعٍ، هو مزار سيّدة "غوادالوپّي" في المكسيك، الذي يؤمّه، سنويًّا، أكثر من ثمانية عشر مليون حاجٍّ.

يومَ حجَّ البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني إلى سان جُوڤانّي رُتونّدو، عام ١٩٨٧، صرّح:

"لقد ساق پادري پيّو بسخاءٍ حياة الراهب الكبّوشيّ. مثلما ساق حياة الكاهن الكاثوليكيّ. أي ميزتَيْ تكريس جسد الربّ ودمه، وغفران الخطايا. وكان الهيكل وكرسيّ الاعتراف هما قطبي حياته.

"هذه الشهادة الكهنوتيّة، تحمل رسالةً حيويّةً ومعاصرةً معًا".

الجزء السادس

مَن هو پادري پيّو؟

"إنّ الذين يشتركون في آلام المسيح يحتفظون، داخل آلامهم الذاتيّة، بذرّةٍ مميّزةٍ من كنز فداء العالم اللامحدود، ويستطيعون اقتسام هذا الكنز مع الآخرين.

"وتشعر الكنيسة بحاجة اللجوء إلى ثمن الآلام البشريّة من أجل خلاص العالم".

"أحد الوجوه الجوهريّة للسرّ المقدّس الذي يمكن تبنّيه في حياة "پادري پيّو" هو تقدمة ذاته في المسيح، ومع المسيح، ضحيّة تكفيرٍ وتعويضٍ عن خطايا البشر".

(البابا يوحنّا بولس الثاني)

"يحيا الجنس البشريّ، بفضل نفرٍ من الناس"

(سينيكا)

كاهنٌ يصلّي ويحبّ

عقب وفاة پادري پيّو، اكتُشِفَ بين أوراقه برنامجٌ كان وضعه لحياته الكهنوتيّة، يتضمّن، في كلّ يومٍ:

- لا أقلّ من أربع ساعاتِ تأمُّلٍ، تتناول مختلفَ مراحل حياة الربّ، منذ ولادته، وتعليمه، وآلامه، وصلبه وقيامته.
- لا أقلّ من خمس مسابحورديّةٍ.
- تساعيّات صلواتٍ للقدّيس يوسف، وللملاك ميخائيل، وللقدّيس فرنسيس، ولقلب يسوع، والقدّيسة ريتّا، والقدّيسة تيريزا الطفل يسوع.

وعام ١٩٢١، استفسرَه زائرٌ رسوليٌّ عن وتيرة صلواته، فأجاب، تحت القسَم، أنّه، فضلًا عن صلوات الرهبان الجماعيّة، كان يُمضي لا أقلّ من ساعتَيْن، يوميًّا، في صلواتٍ ذهنيّةٍ صامتةٍ، وتلاوة عدّة مسابح ورديّةٍ، وصلاة الشكر بعد القدّاس التي تستغرق بين ربع ساعةٍ ونصف ساعةٍ، وكانت أدعيةٌ تلقائيّةٌ تتصاعد من قلبه، في كلّ لحظةٍ، وطوال ساعات النهار والليل.

كان ميّالًا إلى العزلة من أجل الاستغراق في الصلاة، ومع ذلك، طالما شكا من افتقاره إلى الوقت الكافي للصلاة. ومن المؤكّد تعذُّر توقيت اتّصالاته الصوفيّة المتواترة والمستمرّة بالله، فهي تفلت من قيود الوقت والقياس.

وذات يومٍ، كان صحافيٌّ، في سان جُوڤانّي رُتوندو، وسط حشدٍ من الحجّاج مُعملًا الفكر في صَوْغ مقالٍ طنّانٍ عن پادري پيّو، وإذ بالأب يناديه باسمه، ويصعقُه بنظرةٍ، قَرَنت الصرامة بالعذوبة، وقال له: "أهذا هو وقت التفكير بعباراتٍ تُثير فيها الدهشة

والإعجاب، والضجيج الفارغ، حول "كاهنٍ يُصلّي"؟ ولكأنّه كان يؤكّد رغبته في ألّا يرى فيه العالم سوى كاهنٍ منقطعٍ للصلاة، وينفر من كلّ ضجيجٍ صاخبٍ يُثار بشأنه.

فالصلاة له هي العلاقة التي تربطه بربّه وإلهه، وهي الجاهزيّة الدائمة لتلقّي النِعَم، التي تريد أن تهمي على المتأهّبين لتقبّلها وعلى المتسوّلين الفاتحين أيديهم.

حياته كلّها كانت صلاةً، وبحثًا عن الله، وتقبّلًا لنِعَمه، وتنفيذًا لمشيئته، واتّحادًا به. ولكم من ساعاتٍ أنفقَها راكعًا أمامَ القربان المقدّس، في شبه عتمة كنيسة الدير، أو صومعته، ليلًا، محاورًا السماء، مبلّغًا الربّ طلباتِ أبنائه الروحيّين واحتياجاتهم! ولكم من ملايين حبّات مسابح كرّت بين أنامله!

خشوعه المُحكَم كان يُعيده، دائمًا إلى ذاته، حيث يلتقي الله ويحيا معه. حتّى عندما كانت تنهال عليه الضربات، والمجالد والصلبان، لم يفقد، قطّ، ثقته بالله، ولم يعهد استكانةً. فمن يجعل من المطلق هدفه، لا يعرف للراحة طعمًا. وفي كلّ لحظةٍ كان يخيفه أن يكون مقصّرًا في واجباته، تجاه ربّه، وأبيه، أو خائنًا لحبّه.

فرجل الصلاة لا يُخيفه شيءٌ، سوى إهانة الله وخيانة حبّه، وهذا الخوف كان يطارد الأب پيّو، في كلّ لحظةٍ. وكان يرعبه، إلى أبعد مدًى، نأيُ العالم عن الله، وما قد يجرّه هذا النأي من مآسٍ، فكان يحرّض أبناءَه الروحيّين على مشاركته صلواته التكفيريّة، فيسعى إلى أن يقدّم لله الحبّ الذي أمسكه عنه البشر.

هذه الحياة الروحيّة، كانت تُضفي على محيّاه الصامت المشعّ تأثيرًا آسرًا، وتجعل منه "ملح الأرض، ونورَ العالم".

ولا غروَ أنّ حياته الروحيّة، حياته مع الله، وفي الله، التي كانت تتغذّى بالصلاة، قد دعمت إيمانه بالله. ومع ذلك، كم شكا من صعوبة الإيمان، فقد دأب الشرّير على تسريب الارتياب إلى نفسه في بعض بنود الإيمان، وعلى تشكيكه بصحّة اتّكاله على العناية الإلهيّة، التي تبدو، أحيانًا، صمّاء، غائبةً، وغير مباليةٍ. وكلّما تظاهر الله بالتواري

اختبارًا لابنه البارّ، كان يهرع إبليس، آملًا في احتلال مكانه، مستعينًا بكلّ وسوسات خداعه وكذبه. ومع ذلك، لم تفتر، لحظةً، حرارة ثقة الأب پيّو المطلقة بالعناية الإلهيّة وسهرها، ولم يكفَّ عن دعوة أبنائه الروحيّين إلى الاستسلام بين يدي الآب السماويّ العطوف، الممسك بخيوط مصيرنا.

وقد أذكت متانة إيمانه بالله اضطرامَ حبّه له، فهو كلّما زاد التصاقًا بالله، واندماجًا به، كان يزداد شعورًا بأنّ الله يطبق عليه، ويريده بكلّيّته له. وحينئذٍ، كان يرهقه الشعور بنقائصه ووهنه وتقصيره في مقابلة سخاء حبّ يسوع بمثله.

"يرى يسوع بوضوحٍ أنّ قلبي مكرّسٌ له ولآلامه، مدى حياتي كلّها، وأنّه يودُّ ألّا يخفق إلّا له، وألّا يفكّر إلّا به".

وقد حثّه حبّه ليسوع على تنفيذ مشيئته بحذافيرها، بلا تحفّظٍ ولا نقصٍ، وبالتالي على تجنّب أدنى خطيئةٍ أو وَهَنٍ، وفَرَض على ذاته أقسى التضحيات، تكفيرًا حتّى عن الهفوات الصغيرة، خشية أن تؤدّي هذه الهفوات، مع صغرها، إلى إبعاد الله عنه، أو إلى نأيه هو عن الله. وقد صرّح لمرشده الأب بينيديتّو، في ١٩٧٣/٧/٧:

"إنّ أصغر هفواتي، سيفٌ يخترق قلبي".

كان يسوع، للأب پيّو الجوهرة الثمينة التي تخلّى عن كلّ شيءٍ كي يمتلكها. فدمّر، في ذاته، كلّ ما ليس لله، ووجد في الله ازدهاره وثروته. فلم يُحجم عن الاستشهاد الكلّيّ كي يكون لله بكلّيّته، وإلى الأبد، وتسنّم، في ميدان تتميم مشيئة الله، بلا خطأٍ ولا تحفّظٍ، قمّةَ البطولة. وبلغ في مجال الاندماج بالله، أرقى قِمَم الصوفيّة، وهتف: "أجل، نفسي جريحةُ حبّ يسوع، وهي مريضةٌ بيسوع". وكتب ذات يومٍ إلى مرشده: "كم كان عذبًا حواري الصباحيّ مع الفردوس. لقد ذاب قلبي في قلب يسوع، ولم يعُدْ وجودٌ لقلبَيْن، يخفقان، بل صارا قلبًا واحدًا".

وساعدَته حياتُه المنسوجة بالصلاة على إبراز وجه الله الحقيقيّ، وعلى إبراز وجه

الكاهن، الذي ينبغي أن يكون "حاجَّ المطلق"، ومسيحًا آخر. وهو كان هذا الكاهن، لأنّه ارتضى أن:

- يُضطَهَد من أجل البرّ،
- يتحرّر من كلّ رابطٍ أرضيّ، ومن ذاته، ويقدّم ذاته ضحيّة فداءٍ،
- أن يكون فقيرًا وعطوفًا، في عالمٍ مهووسٍ بالامتلاك المادّيّ، والسلطة المسيطِرة،
- أن يتألّم مع المتألّمين، ويحزن مع الحزانى، ويجهد في كفكفة دموع الباكين، ومواساة أحزان المفجوعين،
- أن يضع السلام والرحمة في مرتبةٍ أعلى من الحقّ،
- أن يكون داعية سلامٍ.
- ألّا يفهمه، وأن يضيق به ذرعًا، من لا يعني لهم المُطلَق والتضحية شيئًا.
- كان، بفضل السلطة التي منحه إيّاها الربّ، يحوّل الخبز والخمر إلى جسد الربّ، غذاءً للنفوس، ولا يكفّ يجدّد تقديم ذاته عن الخطأة، في كلّ لحظةٍ.
- وكان وفيًّا لكهنوته، ويذكّر، بيدَيْه المثقوبتَيْن، أنّه، هو أيضًا، مصلوبٌ.
- وما انفكّ، على مدى أكثر من نصف قرنٍ، يصلّي، ويتألّم، ويضحّي بذاته، ويؤكّد سموّ الكهنوت.
- وقد أبى پادري پيّو، دائمًا، التذرّع بعذر كهنةٍ فاترين جبناء، يبرّرون خياناتهم بالضعف البشريّ، ويتذرّع أصدقاء لهم بهذا العذر دفاعًا عنهم، متناسين واجب كلّ من كرّس ذاتَه للربّ السهر، في كلّ لحظةٍ، على مصارعة الذات، والإقدام على تضحياتٍ بطوليّةٍ، وأن يعكس، باستمرارٍ، أبهى صورةٍ ليسوع، الذي وطّن العزم على أن يكون له صنوًا، وصورةً أمينةً ونقيّةً.

ولئن شكّك مسؤولون كنسيّون في قداسته، وقذفوه بأقذع التهم وأحقرها، غير أنّ عين الله التي لا تغيب عنها الحقيقة النيّرة قد ثمّنته أرفع تثمينٍ.

ولكَمْ من كهنةٍ اكتشفوا، بقربه، معنًى أعمق لكهنوتهم، وحبًّا للنفوس أشدّ اضطرامًا، وغيّر مثاله سلوكهم، ودفع رسالتهم إلى مواقع الخصب.

حبّ الأب پيّو ليسوع اقتاده إلى حبٍّ مماثلٍ لجسده السرّيّ، المتمثّل في الكنيسة التي تمنّاها دائمًا، نقيّةً مقدّسةً، جديرةً بمؤسّسها. وكان يؤلمه، في الصميم، كلّ ما يعتورُها من خلافاتٍ وخياناتٍ.

ومع كلّ ما أنزلته به السلطات الكنسيّة من قيودٍ جائرةٍ، ومن مهانةٍ، لم يخفُتْ حبُّه لها. وقُبَيْل وفاته، أي في ١٩٦٨/٩/١٢، بعث برسالته الأخيرة إلى البابا بولس السادس، وختمَها بقوله:

"أركعُ أمام قدمَي قداستِكم، وأسألكم أن تباركوني، وتباركوا إخوتي جمعيهم، وأبنائي الروحيّين، و"جماعات الصلاة"، ومرضاي، والمبادرات الخيريّة التي نسعى إلى تحقيقها، باسم يسوع، وتحت حمايتكم".

(أوضع أبناء قداستكم، الأب پيّو الكبّوشيّ)

ومن البديهيّ أن يولي ذلك الذي أحبّ، بكلّ طاقاته، يسوع والكنيسة، حبًّا جمًّا لأُمّ يسوع وأمّ الكنيسة، التي خصّها بحبٍّ بنويٍّ رقيقٍ وعذبٍ، حبّ طفلٍ لأُمّه، عبّر عنه بالألقاب التي كان يطلقها عليها، تحبّبًا، مثل "الماما الحبيبة"، و"الماما الجميلة"...

تكريمه للعذراء كان ركنًا أساسيًّا من روحانيّته، فقد كان يرى فيها القناة التي تقتاده إلى يسوع، والسبيل الأوفر أمانةً لحمله يسوع إلى إخوته البشر. وكانت هي سند كهنوته، وعامل قداسة ذلك الكهنوت، فالعذراء، مع ابنها، ومع ملاكه الحارس الأمين، كانوا منبع قوّته في مقاومة الشرّير، وفي اتّحاده الدائم بيسوع. ولَكَم عبّر عن أسفه، بسبب عجزه عن شكرها شكرًا لائقًا، فيقول:

"إنّي أخجل من ذاتي، كلّما أجَلتُ الفكرَ في عطاياها التي لا تُحصـــى. فأنا لم أُحدّقْ، بقدرٍ كافٍ من الحبّ، إلى قلبها ويدها عندما كانت تُغدِق عليّ كلّ تلك الهبات... كم أحجَمتُ عن البوح لها بهواجس قلبي، ومع ذلك، هي واســـتني. وكم تقاعستُ عن واجب عرفاني بجمائل تلك الأُمّ السماويّة الحنون!".

وكان شهر أيّار، في كلّ سنةٍ، يفجّر ينابيع حبّه لأُمّه الجميلة، وقد حفلت رسائله بمشاعر نشوته بعودة ذلك الشهر كلّ سنةٍ، وبمشاعر حبّه لتلك الأُميمة، وعرفانه بجمائلها. نورد، في ما يلي، نماذج منها:

- "ما أجمل شهر نوّار! إنّه أجمل شهور السنة، لأنّه يشيدُ بعذوبات مريم".
- "كم تحبّني "الماما". هذا ما تبيّنتُه في بدء شـــهر نوّار هذا. فبأيّة لهفةٍ واكبتني، هذا الصباح، إلى الهيكل، حتّى خُيِّل إليّ أنْ لا يشغل فكرها سواي. لقد ملأتْ قلبي حبًّا مقدّسًا، فشعرتُ، في منطقة القلب، باضطرام نارٍ سرّيّةٍ".
- "شـــهر نوّار هو لي شـــهر النِعَم. ففيه لا تنفكّ أُمّي السّـماويّة تسـبغ عليّ عنايتها بلهفةٍ. ما الذي فعلتُه كي أســتأهل كلّ تلك الرقّة؟ ألم يكن ســلوكي إنكارًا لكوني ابنها، بل حتّى لكوني مســـيحيًّا؟ ومع ذلك، هي، في عظمة عطفها، وحكمتها، ورحمتها، عاقبتني، على نحوٍ مدهشٍ، وســـكبت فيض نِعَمها في قلبي. في حضـــورها وحضـــور يســـوع، أشـــعر بنارٍ تحرقني، وبارتباطي، من خلالها، ارتباطًا وثيقًا بابنها".
- "كم أنا مدينٌ لهذه الأُمّ، في صـــراعي مع فخاخ العدوّ، لقاء النِعَم الفريدة التي تغدقها عليّ في كلّ حينٍ".
- "يحزنني افتقاري إلى وســائل شــكرٍ لأُمّنا العذراء الجميلة. ولســت أشــكّ بشــفاعتها التي آتتني كثيرًا من قوّة الربّ، على احتمال التضـحيات العديدة التي تحمّلتها بتسليمٍ، يومًا فيومًا".

وكانت عذراء الآلام تخاطب قلبه، فكتب:

"فلتحصل لنا العذراء، سيّدة الآلام، من ابنها فائق القداسة حسنَ فهم سرّ الصليب، كي ننتشي معها بآلام يسوع. إنّ أصدق دليلٍ على الحبّ. هو التألّم من أجل المحبوب. وبما أنّ ابن الله قاسى آلامًا جمّةً، بدافع حبّه الصِرف لنا، فلا ريب أنّ الصليب الذي حمله قد أضحى جديرًا بالحبّ".

عشيّة وفاة الأب پيّو، التمس منه أبناءٌ روحيّون، وإخوةٌ رهبانٌ نصيحةً، فقال:

"أحبّوا مريم العذراء، وحثّوا الآخرين على محبّتها. وثابروا على صلاة الورديّة".

وبسبب دأب پادري پيّو على صلاة المسبحة الورديّة، سُمّي "الورديّة الحيّة"، إذ لم تكن المسبحة تغادر يده. وقد استفسره، يومًا، زائرٌ رسوليٌّ، عن عدد المسابح الورديّة التي يصلّيها، يوميًّا، فأجاب: "عليّ أن أبوح لرئيسي بالحقيقة. لقد تلوتُ اليوم، أربعًا وثلاثين مسبحةً". فقد كانت له المسبحة الورديّة مناسبةً لتأمّل مرامي الربّ من أجل خلاص العالم، وكان يردّد، ذهنيًّا أسرار الفرح، والألم، والمجد، ومراحل حياة يسوع ومريم.

ولم يكن يرقد إلّا مسلّحًا بالمسبحة التي كان يعدّها سيفه، في صراعه الشرس مع الأبالسة، وعونه على كلّ شرٍّ ومرضٍ. أفلم تشفِه العذراء من علّةٍ طال أمدها، عندما التمس غوثها، يوم عبرَ تمثال سيّدة فاطمة في سماء سان جُوڤانّي رُتوندو؟

ولمّا كان حجّاجٌ يطلبون منه تبريك تماثيل للعذراء، كان يطيل التحديق إليها، ويأخذها بيده، ويطبع قبلةً طويلةً على قلبها الأموميّ، وتغرورق عيناه بالدموع. تُرى ما الذي كان يستشفّه من خلال تلك المادّة الجامدة؟

غادر الأب پيّو حياة الدنيا مسلّحًا بمسبحةٍ، ومردِّدًا بلا توقُّفٍ، اسمَيْ حبيبَيْه: يسوع ومريم.

وبما أنّ حبّ الله لا يكتمل، إلّا بحبّ القريب الذي يقوم مصداقًا على صدق حبّ الله، فقد تجلّى حبّ پادري پيّو ليسوع وأُمّه، من خلال حبّه البطوليّ "لإخوته في المنفى"، كما كان يدعوهم، جميع إخوته، وعلى نحوٍ خاصٍّ، إخوته الصغار، الفقراء والمتألّمين. وتلازم لديه حبّه العموديّ للربّ بحبّه الأفقي الشامل لإخوته. وقد كتب، في هذا السياق:

"للنفس الملتهبة بالمحبّة الإلهيّة، إغاثة احتياجات القريب هي حمّى تحرق على مَهَلٍ. وهي قد تهب ذاتها ألف مرّةٍ، لكي توجّه نفسٌ واحدةٌ، تسبيحًا إضافيًّا للربّ".

"لا أستطيع رفض أيّ شيءٍ لأيّ إنسانٍ، وكيف أستطيع ذلك، بما أنّ الربّ نفسه يريد ذلك، وبما أنّه، هو لا يرفض لي طلبًا؟".

وقد ارتدت محبّته للقريب وجوهًا عديدةً: تقديس نفسه وخلاصها، وتخفيف آلامه الجسديّة، وسدّ احتياجاته المادّيّة، وتهدئة هواجس وجوده، وإشاعة السلام في كيانه. وإن كان هذا هو واجب كلّ مسيحيٍّ ، فهو من أَولى واجبات الكاهن.

وقد زخرت رسائله إلى مرشدَيْه الروحيَّيْن، بنصوصٍ بليغةٍ تعبّر عن محبّته الراسخة المضطرمة لكلّ إنسانٍ، نورد، في ما يلي، بعضًا منها:

- "يبدو أنّ الله قد أودع في نفسي نِعَمًا كثيرةً، من أجل المحتاجين. وتشعر نفسي بتعاطفٍ جمٍّ لدى رؤية الفقير، وتعتريها رغبةٌ عارمةٌ في غوثه. وقد أنزع إلى التخلّي عن ثيابي كي أكسوه بها".

ومن نصائحه لأبنائه الروحيّين:

- لا ترفضوا، أبدًا، وبأيّة ذريعةٍ، تقديم عمل محبّةٍ لأيٍّ كان، ليس فقط عندما

تسنح الفرصة لهذا العمل، بل بادروا أنتم إليه. هذه هي إرادة الربّ، فاجهدوا في تحقيقها".

- "لا أملك لنفسي دقيقةً واحدةً، فأنا أقضي وقتي كلّه، عاكفًا على تحرير إخوتي من قيود إبليس... المحبّة الكبرى هي إعتاق النفوس من قيود إبليس، وإعادتهم إلى المسيح، وهذا ما أنا عاكفٌ على فعله، ليلًا ونهارًا".
- "أنا ضحيّةُ قوّتَيْن تبدوان متضاربتَيْن: رغبتي في الحياة من أجل غوث إخوتي في المنفى، ورغبتي في الموت، توقًا إلى الاتّحاد بالمحبوب. قوّتان تمزّقاني، وتحرماني السلام".
- "اسألوا الرحمة الإلهيّة، ألّا أهوي تحت عبء العمل الذي يرهقني، بلا هوادةٍ، ليلَ نهار، وتحت عبء الآلام الجسديّة التي لا تني تحتدّ. إنّي أعمل دائمًا في جوٍ من الألم. ولا تفسح لي كثافة العمل فرصةً للعناية بذاتي. وإنّها لمعجزةٌ حقّةٌ، أنّي لم أفقدْ عقلي بعد".

كان يوجعه وجع الآخرين، ويتمنّى أن يقاسيه عنهم. وأنفق حياته كلّها تحقيقًا لهذه الأمنيّة.

وأكثر من أوجاعهم الجسديّة، كانت توجعه في الصميم، أمراضهم النفسيّة. وهذا ما عبّر عنه بقوله:

- "إنّ دمي يتجمّد في عروقي عندما أشاهد كيف يقابل البشر حبّ يسوع الجمّ لهم، ولكأنّه لم يحبّهم قطّ... ولكم سألت الآب السماويّ أن يُنهي هذا العالم، أو أن يُنهي هذا الظلم".
- "كيف لي أن أشهد حزن الربّ بسبب الشرّ، ولا أحزن أنا مثله! وكيف لي أن أرى الله هامًّا بإطلاق صواعقه، ولا أسعى إلى الحؤول دون ذلك، رافعًا

إحدى يديّ للإمساك بيد الله، ومادًّا يدي الثانية، بسرعةٍ، إلى إخوتي ساعيًا إلى جعلهم يعزفون عن الشرّ، وإلى إبعادهم، سريعًا، عن حيث هم، لكي لا تهوي عليهم يد الديّان!".

وبالإجمال، كان يحمل في قلبه، حقًّا، جميع المتوجّهين إليه، ويحمل صلبانهم وأوجاعهم، ويسعى إلى تخفيف وطأتها، ويشفع من أجل شفاء أسقامهم.

سمعه كاهنٌ، يومًا، يتمتم: "آه! لو استطعتُ أن آخذ آلام كلّ إنسانٍ، لكي يكون كلّ إنسانٍ سعيدًا!".

كان لجميع طالبي معونته، مثلما كان سمعان القيرينيّ، ليسوع، حامل صلبانهم. ولطالما صلّى، قائلًا: "يا ربّ، لمَ كلّ هذا البؤس، وكلّ تلك الأوجاع. أعطني أوجاع جميع هؤلاء البائسين!".

ولاحظ المقرّبون منه أنّه كان يعاني أوجاع الذين وعدهم بالصلاة من أجل شفائهم. وكان يدفع ثمن الأشفية التي يحصل عليها أوجاعًا، وجراحًا، ودماءً، وتضحياتٍ بكلّ كيانه.

وقد سخّر الكرامات الخارقة التي ميّزه الله بها، من أجل شفاء أمراض إخوته النفسيّة والجسديّة.

وهل من دليلٍ على حبّه الصادق للقريب، وحرصه على غوث المحتاجين، روحيًّا وجسديًّا، أبلغ من إنجازَيْه الكبيرَيْن: "بيت تخفيف الألم"، و"جماعات الصلاة"؟

ضحيّةٌ طوعيّةٌ

منذ فجر حياته النسكيّة استحوذت على "پادري پيّو"، الرغبة في تقديم ذاته ضحيّةً لخلاص الخطأة، وللتكفير عن الإهانات التي يقابل بها سوادُ البشر حبَّ المخلّص الذي صُلِب حبًّا بهم، وافتداءً لنفوسهم. وقد جاء في إحدى رسائله الأولى إلى مرشده الروحيّ، الأب بينيديتّو:

"منذ فترةٍ أشعر بالحاجة إلى تقديم ذاتي للربّ ضحيّةً عن الخطأة، وعن النفوس القابعة في المطهر، وهذه الرغبة تشتدّ في قلبي إلحاحًا، بحيث يسعني القول إنّها صارت هوًى طاغيًا. ولطالما قدّمت هذه التضحية للربّ متوسّلًا إليه أن يحيل إليّ العقابات المُعدّة للخطأة، وللنفوس المطهريّة، مضاعَفَةً مئة ضعفٍ، شرط أن يستجيب الربّ، ويخلّص الخطأة، وأن يقبل في الفردوس، سريعًا، النفوس المتألّمة في المطهر. ويبدو أنّ يسوع يريد حقًّا منّي هذه التقدمة.

"إنّ يسوع، رجل الآلام، يودّ أن يتمثّل جميع المسيحيّين به. وها إنّه قد قدّم لي هذه الكأس، فتقبّلتُها، وهو لا ينفكّ يقدّمها لي بسخاءٍ.

"إنّي أعلم أنّ ألمي الزريّ لا يساوي شيئًا. ولكنّه يطيب ليسوع، لأنّ حبّي له جمٌّ. ولذلك، كلّما تذكّرتُ أيّام معاناته أقسى الآلام على هذه الأرض، يشتدّ إحساسي بالألم".

لقد أوردتُ في مطلع هذا الكتاب تأمّله المسهب في نزاع يسوع، الذي دوّنه بيدٍ نازفةٍ، وبدم استشهاده اليوميّ الذي ارتضى أن يكون ضحيّته الطوعيّة، تعاطفًا مع نزاع يسوع، المستمرّ حتّى نهاية العالم، وتكفيرًا عن خطايا البشر، التي لا تني تطعن قلب المخلّص في كلّ لحظةٍ.

هذا التأمّل الذي دوّنه بنجيع قلبه، ونفسه العاشقة، العطشى إلى البذل والتضحية، كان تعبيرًا صادقًا وبليغًا عن التساوق التامّ بين جسده المكلوم النازف، والدليلَ الدافع على تلازم نزاع يسوع مع نزاع الراهب الضحيّة الطوعيّة.

ومنذ البدء اتّضح للأب پيّو أنّ حبّ المخلّص والألم متلازمان، بلا انفصالٍ، وغالبًا، ما تقترن، تحت قلمه، لفظتا الحبّ والألم معًا، فيكتب، مثلًا:

"آه! يا يسوع، ليتني أستطيع أن أحبّك، وأن أتألّم كما أودّ!

"لا يُعرَف الحبّ إلّا من خلال الألم".

"نفسي تتّسع بالألم وبالحبّ، بالمرارة والعذوبة، في آنٍ واحدٍ.

لقد اختار أن يكون ضحيّةً متألّمةً، فاجتاز درب الجلجلة خطوةً خطوةً، وأمسى الألم جزءًا أساسيًّا من الرسالة الكبرى التي كلّفه بها الربّ، ومن قسطه الشخصيّ في إتمام آلام الصلب. وهو، في سبيل أدائه هذه الرسالة، بصفته شريك فداءٍ، قضى حياته كلّها، ضحيّةً طوعيّةً، متقبّلًا بسخاءٍ، وبلا تحفّظٍ، تبعات التقدمة الطوعيّة، بحيث غدا الألم الذي أراده باندفاعٍ، وتقبّله بحبٍّ وسخاءٍ، هو الجوّ الذي يحيط به، والهواء الذي يتنشّقه، وفي معزلٍ عنه يفقد الحياة.

وقد أذكت فيه تقدمته الطوعيّة ضحيّة فداءٍ، حبّه للألم، تمثّلًا بآلام المسيح الخلاصيّة، وهذا ما عبّر عنه، بأقوالٍ مثل:

- "إنّي أتلظّى ظمأً إلى الاستغراق في الألم، وأشعر بحاجةٍ دائمةٍ إلى أن أقول للربّ: "الألم أو الموت"، وبالحريّ "ألمٌ دائمٌ ولا موتٌ".
- "لو لم أكن أُصغي إلّا إلى صوت القلب، لسألتُ الربّ أن يعطيني كلّ أحزان العالم. ولكنّي أحجم عن هذا الطلب، خشيةَ أن أكون مغرقًا في الأنانيّة، باحتكاري كلّ أحزان العالم، وهو النصيب الأفضل".

- "ما أجمل أن يصبح المرء ضحيّة حبٍّ!".
- "لا رغبة لي سوى الموت أو حبّ الله، فالحياة بلا حبٍّ هي أسوأ من الموت".
- "لقد استحوذ يسوع على قلبي حتّى أحرقني كلّيّةً بنار حبّه الإلهيّ".

لقد رغب في التمثّل بيسوع الذي تألّم وصُلب افتداءً للبشر، واستجاب الربّ لرغبته الشخصيّة الصادقة هذه، فأغدق عليه آلامًا من كلّ لونٍ، وتقبّلها هو بفرحٍ وشكرٍ، إسهامًا في افتداء الخطأة، وفي تخفيف وطأة آلام كلّ الأمراض الجسديّة والنفسيّة، التي يقاسيها إخوته البشر.

فمنذ فتوّته كانت الآلام خبزَه اليوميّ، فضلًا عن معاناته آلامًا روحيّةً ونفسيّةً، واضطهاداتٍ غير متوقّعةٍ، وصراعاتٍ حادّةً مع قوى الجحيم.

جسديًّا، لم تخلُ فترةٌ في حياته من الوجع. فقد كان هشّ البنية، ومنذ صغره كان يعاني آلامًا في رئتَيْه، واعتبره محيطه مصدورًا، فتجنّبوا الاتّصال به، أو لمس أيٍّ من الأغراض التي كان يستعملها يوميًّا. وقاسى آلامًا في عموده الفقريّ، وفي معدته التي كانت تنفر من كلّ طعامٍ، وكانت تنتابه، غالبًا، حمّياتٌ تحطّم كلّ الأرقام القياسيّة في ارتفاعها، ونوباتُ سعالٍ عنيدٍ تمزّق صدره.

وأُضيفت إلى هذه كلّها آلامٌ صوفيّةٌ، قدّم ذاته ضحيّةً لها، فأوسعه الربّ بها. فعانى جراح الصليب، التي ظلّت تنزف مدى نصف قرنٍ، وإكليل الشوك، وجراح الكتف التي كانت توجعه بلا هوادةٍ.

وكان احتمالُ جسده الواهي لكلّ تلك الآلام لغزًا حيّرَ الطبّ.

لقد أحبّ أن يتمثّل بيسوع الذي صُلب افتداءً للبشر. واستجاب يسوع لرغبته السخيّة الصادقة، فأغدق عليه الآلام ألوانًا، وتقبّلها، هو، بفرحٍ وشكرٍ، تحقيقًا لرغبته في التضحية من أجل افتداء الخطأة، وتخفيف وطأة أوجاعهم الجسديّة والنفسيّة.

وقد زخرت رسائله التي كان يدوّنها نزولًا عند رغبة مرشده الروحيّ، الأب بينيديتّو، أو بُغية إرشاد أبنائه الروحيّين. بوحًا بما كان يتجرّعه من آلامٍ، مثل أقواله:

"يودّ يسوع، رجل الآلام، أن يتمثّل به كلّ مسيحيٍّ. وها إنّه قدّم لي هذه الكأس، فقبلتُها، وهو لا يضنّ بها عليّ أبدًا.

"أعلم أنّ ألمي الزريّ لا يساوي شيئًا، ولكنّه يطيب ليسوع، لأنّ حبّي له جمٌّ. ولذلك، في الأيّام التي تذكّر بأيّام معاناته على هذه الأرض لأقسى آلامه، تجعلني أشدّ إحساسًا بالألم".

لقد أيقن، يقينًا راسخًا أنّ التوّاقين إلى حبّ يسوع حبًّا جمًّا، يلازمهم ألم عجزهم عن بلوغ هذا الهدف، كما يتمنّون، ويؤلمهم، أكثر، خوفهم من إهانة يسوع، بأيّ شكلٍ. وكان يؤرّقه، حتّى الرعب والهوَس، خوفُ ارتكاب أخطاءٍ تُبعده عن الربّ أو تُبعد الربّ عنه. وكانت هذه الخشية وهذا القلق يضاعفان آلامه الأُخرى الناشئة بجسده وبنفسه.

ولطالما وردت تحت قلمه أقوالٌ تشيد بحبّه الحارق ليسوع، مثل:

- "يراودني شعورٌ بأنّ حبّ الله سيقضي عليّ، وأنّ نفسي تهمّ بمغادرة جسدي، بسبب عجزها عن حبّ يسوع، على هذه الأرض، بالقدر الكافي. أنا جريح حبّ يسوع، وعليل حبّه: أنا مصلوبُ حبٍّ".
- إنّي أرضى أن تتجمّع كلّ عذابات الأرض في باقةٍ واحدةٍ، وتكون نصيبي. ولكنّي لن أستطيع التسليم بأن تفصلني عن يسوع قلّة حبّي له.
- يا يسوع، ليتني أستطيع أن أحبّك، وأن أتألّم كما أرغب في إرضائك، وأن أكفّر، ولو قليلًا، عن خيانات البشر لك!
- أَسْمِعْني، يا يسوع، قولك بصوتٍ عالٍ، ليتجلّى حبّك لي، من خلال الألم الذي تقاسيه بحدّةٍ، في نفسك، وبمزيدٍ من الحدّة في جسدك".

- كلّ خطأٍ طفيفٍ أرتكبه، هو سيفٌ يطعن نفسي.
- لا أطلب التحرّر من المِحَن والضيق، بل أطلب التحرّر من إهانة الله.
- "إنّي أشعر بعجزي عن احتمال ثقل هذا الحبّ اللامحدود، وعن احتوائه بكامله في وجودي الضئيل. وإنّي أمتلئ رعدةً عندما تساورني فكرة احتمال هجر يسوع لي من جرّاء عجز قلبي الضيّق عن احتوائه. هذه الفكرة تعذّبني، وتحزنني، فأشعر بتحطّم قلبي في صدري".
- "خشيتي من تعرُّضي لفقدان يسوع، في كلّ لحظةٍ، يُسرِّب إلى نفسي خوفًا يتعذّر عليّ وصفه، ولا تستطيع فهمه إلّا نفسٌ تحبّ الله، حبًّا صادقًا. إنّ مجرّد خسران يسوع بكبوةٍ محتملةٍ، يجعل النفس المسكينة ترتعد ارتعادَ قصبةٍ في مهبّ الريح".
- "عدم معرفة هل ما نفعله يؤدّي إلى تمجيد الله أو إلى إهانته، يوجع أكثر من الموت. ولكم قاسيتُ من هذه المحنة التي حرمتني من شعاع نورٍ وعزاءٍ. فليتني أعرف، على الأقلّ، أنّ كلّ شيءٍ يساهم في تمجيد الله، وإذن، لَبَدَت لي حتّى الجحيم عذبةً".
- "في الألم يتجلّى الله قريبًا منّا، فهو يأتي ويستجدي منّا عقاباتٍ ودموعًا، يحتاج إليها من أجل النفوس".
- "لست أجد، في هذا العالم، راحةً. وكلّ شيءٍ فيه يصيبني بالسأم والوجع. ومع ذلك، أنا راغبٌ في مقاساة كلّ تلك العذابات، مدى العمر، بما أنّ ذلك يرضي الله، مع علمي بأنّ في ذلك احتضارًا لنفسي".
- "عندما يبتغي الله إشعاري بحبّه، يذيقني القروح والأشواك، وهواجس نزاعه. وعندما يريد إفراحي، فهو يملأ قلبي بروح نارٍ، ويحدّثني عن آلامه

ويدعوني، بجرْسٍ هو في آنٍ واحدٍ، صــلاةٌ وأمرٌ، بأن أهبه جســدي كلّه، تخفيفًا عن آلامه".

وكان الربّ، بين حينٍ وآخر، وخشيةً عليه من الانهيار تحت وطأة شدّة الآلام، يسرّب إلى نفسه بعض عزاءٍ، ولكنّه يقول في هذا السياق: "مأساتي أنّ نفسي التي اعتادت أطعمةً غليظةً، لم تألف بعد استساغة عذوبة أطعمة يسوع المرهفة". ويقول أيضًا: "يسوع وأُمّه الحبيبة، وملاكي الصغير، يأتون كي يواسوني، ويؤازروني مردّدين على مسامعي أنّ الضحيّة، كي تستحقّ هذه التسمية يجب أن تبذل دمها كلّه".

وهو كان يتوق، دائمًا، إلى أن تحرقه نيران الحبّ الإلهيّ وتفنيه، فتوحّده توحيدًا أبديًّا بيسوع، حبيبه.

فكانت حياته كلّه ضحيّةً مقدّمةً لله وللبشر، ولم يضنّ، قطّ، بذرّةٍ منها، في هذا السبيل، بل إنّه بذل حياته كلّها من أجل الخطأة، حتّى القطرة الأخيرة من دمه الذي ما انفكّ ينساب، بلا انقطاعٍ، من جراحه النازفة، مجدِّدًا في ذاته تضحية يسوع على الصليب. وكان يردّد، بلا هوادةٍ، "أجل، أحبّ الصليب، ولا شيء سوى الصليب، لأنّي أشهده على كتفَيْ يسوع"، مؤمنًا أنّ رسالته هي مشاركة الربّ تضحيته الفدائيّة، على حدّ قوله: "يا أبتاه، لقد أصعدتَني على صليب ابنِك، وأنا أسعى إلى الثبات عليه، والتوافق معه، بأفضل وسيلةٍ. وإنّي أرجو ألّا أنحدر عنه أبدًا".

وكان صليب يسوع دائم المثول أمام ناظرَي نفسه، ومن أجمل ما تخيّله، في هذا السياق، قوله:

"فلنتخيّل، دائمًا، يسوع حاملًا صليبه، صاعدًا على سفح الجلجلة، بمشقّةٍ، وفي إثره حشــدٌ من النفوس حاملةً صــليبها، متأثّرةً خطاه. ولْنُنْعِمِ النظر فنرى خلفه، مباشــرةً، أمّنا فائقةَ القداســة، مريم، متعقّبةً خطى ابنها بعنايةٍ، حاملةً صليبها، وفي إثرها الرسل والشهداء، ومعلّمو الكنيسة، والعذارى.

"كم هذه الجماعة مقدّســةٌ، وموقّرةٌ، وثمينةٌ، وعزيزةٌ! وكم الفرح المنبعث منها صـادقٌ، والسـلام عميقٌ، والمسـيرة جريئةٌ، والحياة كاملةٌ! وكم يحدوها الإيمان، وتدعمها الثقة، وتضرمها المحبّة، ويزيّنها الطهر والتوبة!...

ومع عدم استئهالنا يضمّنا يسوع إلى تلك الجماعة. فلنجهد كي نزداد التحامًا بصــفوفها، ولنقتفِ خطاها على درب الجلجلة محدّقين إلى غاية مســيرتنا، ولا ننفصل عن تلك الجماعة الرائعة، ولْنَأبَ انتهاج أيّ دربٍ غير دربها!

"ليس بين أفراد هذه الجماعة من لا يحمل الإيمان الحقّ مرسومًا على جبينه، والتجرّد في قلبه، والصــــليب على كاهله. فلنحثَّ الخطى في إثر هذا الجمع الباسل، حيث يقترن العزاء بالتضحية، والرجاء بالفضيلة...".

ومن أقواله، في الصليب:

- "كم الألم، بعيدًا عن الصــليب، لا يُطاق. وكم يُصــبح عذبًا عندما يُقدَّم عند أقدام الصليب! وكم يصبح كلّ شيءٍ سهلًا للنفس التي تسحقها كلّ أصناف الألم من كلّ صــوبٍ، لو لم تتململ في أعماقها خشــيةٌ مقدّســةٌ من تنفير المحبوب وتنغيصـه! أجهل ما سيحدث لي. ولستُ متيقّنًا إلّا من أمرٍ واحدٍ: أنّ الربّ لن ينكثَ وعده، فقد قال لي: "لا تخفْ، ســـأجعلك تتألّم. ولكنّي سـأهبك القوّة على احتمال الألم. أودّ أن تتطهّر نفسـك بمعاناتك استشـهادًا يوميًّا وخفيًّا. لا تهلع إذا أذنتُ لإبليس أن يعذّبك، وللعالم أن يصـــيبك بالقرف، ولأعزّ الناس على قلبك أن يؤذوك. واعلم أنّ لا شـــيء يقوى على مَن يئنّون تحت وقر الصليب، حبًّا بي، فأنا أتولّى حمايتهم.
- لن أكفّ عن رفع يديّ إليك، يا إلهي، وسأظلّ أباركك طالما احتفظتُ بنسمة حياةٍ. ســأتضــرّع إليك، فأنت حياتي، ومركبي، ومرفأي. لقد رفعتَني على

صليب ابنك، وأنا أجهد في الثبات عليه بأفضل السُبل. وإنّي موقنٌ أنّني لن أنحدر عنه أبدًا، وأنّني لن أشهد هدوء الأجواء، وأنّ عليّ أن أكلّمك وسط قصف الرعود والعواصف، وأن أشاهدك في العلّيْقة الملتهبة، ووسط الأشواك المحترقة. ولكن من أجل تحقيق هذا الهدف، لا بدّ لي من تدمير ذاتي، ومن التخلّي الكلّيّ عن إرادتي الخاصّة، وعن محبّتي لذاتي. إنّي متأهّبٌ لكلّ شيءٍ، ولكن هل تتجلّى لي، ذات يومٍ، على طابور، في غروب يومٍ مقدّسٍ؟ وهل أقوى على مواصلة التصعيد، بلا كلَلٍ، نحو رؤية مخلّصي؟ يساورني شعورٌ بأنّ التربة التي أطأها تنهار تحت أقدامي. فهل من يُثبّت قدميّ؟ مَن سواك، يا عكّاز ضعفي؟ ارأف بي، يا إلهي، وارحمني!

- إنّي أتألّم، وألمي حادٌّ. ولكن، بفضل يسوع الحبيب ما زلتُ أشعر بشيءٍ من القوّة. وهل هناك ما تعجز عن احتماله خليقةٌ يُعينها يسوع؟
- لا أطلب أن يخفّ وقر صليبي، لأنّي أحبّ التألّم مع يسوع. وعندما أتأمّل الصليب على منكبَيْ يسوع، أمتلئ قوّةً، وأضجّ فرحًا مقدّسًا.
- صحيحٌ أنّي أتألّم، ولكنّي لا أشكو، لأنّ يسوع يريد ذلك.
- تحت عبء الصليب، يتعلّم الإنسان الحبّ.
- في غمرة استشهادي، ما زلتُ أقوى على إعلان تسليمي الوجيع بمشيئة الله. آه! أيّها التسليم كم أنت عذبٌ ومرٌّ، في آنٍ واحدٍ! إنّك تجرح وتشفي، تُميت وتُحيي! ويا أيّتها العذابات، كم أنتِ، معًا، صعبة الاحتمال ومحبوبةٌ! ويا أيّتها الجراح العذبة، لِمَ تعطّرين الروح، مع أنّك موجعةٌ، وتعدّينه لتحمّل ضربات مِحَنٍ أُخرى؟".

ولا غروَ أنّ من أعتى مصادر آلامه كانت سمات الصلب التي كرّمه الربّ بطبعها فيه، والتي غالبًا ما انقلبت نقمةً عليه، ومنبع آلامٍ موجعةٍ، ومدعاة مهانةٍ، واتّهاماتٍ وقحةٍ مُذلّةٍ.

فهو نفسه كان يؤرّقه الشكّ هل هي بركةٌ أم عقابٌ. ومعظم الأطبّاء الذين كُلِّفوا بإبداء رأيهم فيها، كانوا يرفضون مبدئيًّا الاعتراف بأيّ فائقٍ للطبيعة، وبكلّ ما لا يستطيع علمهم القاصر تفسيره، فاستنبطوا من مخيّلاتهم المريضة أوصافًا مُنكَرةً، شوّهوا بها عظمة الحدَث الفريد.

وكان أسوأ أولئك كاهنٌ ينعم بتقديرٍ رفيعٍ في المحيط الكنسيّ، صوّر له عُجْبُه بنفسه وبعلمه، قبلَ أن يرى الجراح، تفسيرًا علميًّا حاسمًا لا يقبل الدحض. ثمّ جرح كبرياءَه إحجامُ الأب پيّو عن السماح له برؤية جراحه، عملًا بقرار الكرسيّ الرسوليّ، القاضي بحظر فحص جراح الأب پيّو، إلّا بإذنٍ خطّيٍّ، صادرٍ عن السلطات الكنسيّة العليا. وقد حرص پادري پيّو على الالتزام بهذا القرار، ولكنّ الأب "جيميلّي" عدّ نفسه أعلى من كلّ سلطةٍ، وصدَمَه إصرار الأب پيّو على احترامها، فاستشاط غيظًا، ووطّن العزم على الانتقام لكرامته الجريحة، ودوّن وهو شاهدٌ لم يشهد شيئًا، تقريرًا أوحاه الحقدُ، وبُني على الكذب والافتراء، ثمّ لم يتحرّج من التأكيد، بقسَمٍ مقدّسٍ، أنّه شاهدَ جراح الأب پيّو، وثبت لديه أنّها ناتجةٌ عن خداعٍ أوحاه له مرضٌ نفسيٌّ.

وبالإجمال، كان تمييز الربّ له، ودمغُه بما يثبتُ تمثّله به، سببًا لأسوأ تُهَم الخداع، والاعتلال النفسيّ، في حين كانت له، شخصيًّا، تلك الجراح، مدعاة خجلٍ جعله يتضرّع، باستمرارٍ، إلى الله إزالتها وإخفاءها، لأنّه كان يعدّ ذاته غير جديرٍ بها. وكانت له، فضلًا عن ذلك، مثار آلامٍ مضنيةٍ، ونزيفٍ دائمٍ لمعدن حياته الذي ما انفكّ ينثال، قطرةً قطرةً، على امتداد نصف قرنٍ، أثبت الأب خلاله تسليمه المطلق لمشيئة الله، وشكره على كلّ شيءٍ.

فعن نشوء تلك السّمات، كان الأب پيّو قد كتب:

"صباح يوم الجمعة الواقع في ١٩١٢/٨/٢٣، كنتُ في الكنيسة أقدّم الشكر عن القدّاس، عندما شعرتُ، فجأةً، بسهم نارٍ تجرح قلبي بعنفٍ كاد يميتني. لا أجد تعبيرًا عن هذا اللهب، فالنفس التي تقع ضحيّة هذه التعزيات تُصاب بالبكم. خُيِّل إليّ أنّ قوّةً غير مرئيّةٍ، كانت تُغرقني، بكلّيّتي في النار. ويا لها من نارٍ، ويا لها من عذوبةٍ".

وكتب أيضًا:

- "منذ مساء يوم الخميس حتّى يوم السبت، ويوم الثلاثاء أيضًا، من كلّ أُسبوعٍ، أعاني مأساةً وجيعةً، وأشعر أنّ سيفًا يخترق قلبي، ويديَّ، وقدميَّ، بسبب شدّة الألم الذي أُحسُّه. وقد ينال منّي ألمٌ يلزمني الفراش أيّامًا عديدةً، ولكنّني أسعد بذلك، وأحتفظ، دائمًا، بفرح الاستسلام، متذكّرًا تقديم ذاتي ضحيّةً للربّ... لو لم تمزّق نفسي الأحزان الروحيّة لظننتُ نفسي في نعيمٍ. ولكنْ، فلتكن مشيئة الله".
- "تباركت يد يسوع الحبيب الذي يضربني، ويعدُّني أهلًا، على غير استحقاقٍ، لمعاناة شيءٍ من الألم حبًّا به، وتكفيرًا عن أخطائي".
- "إنّي خجلٌ. فأنا أعلم أنّ الصليب هو دليل الحبّ، وهو مبدأ الغفران، وأنّ الحبّ الذي لا يتغذّى بالصليب ليس حبًّا حقًّا، وأنّه ليس سوى لهيب قشٍّ. ومع ذلك، فأنا تلميذٌ زائفٌ للناصريّ، أبحث عن قيرينيٍّ عطوفٍ يخفّف من عبئي، ويواسيني. كم عليّ أن أقاوم ذاتي أثناء المِحَن، كي أُخرسَ طبيعتي التي تطلب العزاء بصوتٍ عالٍ. إنّ هذا الصراع يستدرّ دموعي، فأبكي مثل طفلٍ، لأنّي أرى في ذلك وهنًا في الحبّ، وتقصيرًا في الاستجابة لله".

- "ما أحدّ الشـــوكة الناشـــبة بفكري، والتي تميتني حبًّا ، ليل نهارٍ. ويا لألم الحبّ الذي أقاسيه في أعضائي، وفي منطقة القلب!

وسـط هذه الآلام المُضـنية والعذبة في آنٍ واحدٍ، يتضـارب شـعوران، أحدهما يبتغي إقصـاء الألم إلى أبعد مدًى، والآخر يرغب فيه. إنّ مجرّد تفكيري باحتمال العيش فترةً من الزمن، بلا هذا الاسـتشـهاد المؤلم، يُرهقني، ويرعبني، ويجعلني أحتضر.

- لقد أفهمني يسـوع معنى أن يكون المرء ضـحيّةً، فعليه أن يبلغ مرحلةَ "لقد تمّ"، و"بين يديك أستودع روحي".
- "عندما يفرض الله صليبًا على أحد مختاريه، يُسبغ عليه من القوّة ما يُشعره بالدّعم، وهو رازحٌ تحت وقر الصـــليب، مظهرًا، بذلك، أنّه لا يعاقب تلك النفس، يل يُثبت اختباره لها، وعزمه على اجتذابها إليه".
- "كلّما بعث إليّ يســوع بصـــلبانٍ جديدةٍ، يذكّرني بأنّ الأحجار التي ســيقوم عليها الصرح الأبديّ تُعدُّ بضربات إزميلٍ متكرّرةٍ، وبصقلٍ متأنٍّ".
- "إنّ اضطرابات المِحن هي أثمن من الذهب، للنفوس التي تحبّ الله".

وإلى كلّ تلك الآلام أضاف الربّ مِحَنًا نفسيّةً أُخرى، إكمالًا لتطهير نفسه والارتقاء به إلى أسمى مراتب التضحية الفدائيّة. فسمح للمجرّب أن يسرّب إلى نفسه الشكوك في إيمانه، كي يحصّنه من كلّ زعزعةٍ، واستفاض الربّ ذاته في امتحانه، فحجب حضوره عنه، وتظاهر بالتخلّي عنه، وتجلّت تلك الامتحانات في مراسلاته، عبر عباراتٍ تفيض دمًا ودموعًا ووجعًا نفسيًّا. وحتّى الصلاة التي كان يستمدّ منها دعمًا وقوّةً، لم تعد تسعفه، على حدّ ما جاء في رسالته إلى الأب أغوستينو، يوم ١٩١٦/٢/٢٧.

"إنّي أُصـــلّي باســـتمرارٍ، ولكنّ صـــلاتي لا ترتفع عن هذه الأرض. فقد غدت

السماء من نحاسٍ، وهبطت على رأسي يدٌ حديديّةٌ، تدفعني إلى أبعد فأبعد. أحيانًا، يُخيَّل إلى نفسي أنّها كادت تبلغ هدفها. ويحدث ما لا يُصدَّق، إذ يتوارى مبتغاها عنها. وتدفعني إلى البعيد، يدٌ أصفها بالقاسية. وما عساني أن أصف هذه اليد إلّا بالثّقل. فلو سقطت كلّ كواكب السماء، دفعة واحدةً، على رأسي، لما ظننت أنّها ستستحقني مثل هذه اليد التي تُبعدني.

ويزيد وطأةَ محنته ثِقلًا، فشلُه في العثور على معنًى أو مبرّرٍ لها، فيقول: "تتكثّف عتمة نفسي ادلهمامًا، فأتساءل ما الذي يعدّه الربّ لي. لديّ أمورٌ كثيرةٌ أودّ أن أبوحَ بها لك، يا أبتِ، ولكنّي لا أستطيع، فأنا لذاتي لغزٌ".

وما انفكّ يُمعن توغّلًا وغوصًا في ظلام ليله الدامس. وفي غمرة بحثه المؤلم عن إلهٍ يتوارى عنه، يزداد إيمانًا بتلازم الحبّ والألم. ومع خوفه الدائم من جرح ربّه المحبوب بأخطائه، يوغل في البحث عنه، عبرَ ثنائيّ الحبّ والألم. سعيًا إلى اتّحادٍ وثيقٍ بالمسيح المصلوب. فكتب بتاريخ ١٩١٧/٣/٦:

"أودّ ألّا أفكّر إلّا بيسوع، وألّا يخفق قلبي إلّا له. وهذا ما لا أنفكّ أعده به، ولكن وا أسفاه، أتبيّن أنّ فكري تائهٌ، ولا سبيل لي إلّا التعفّن في هذا الألم".

"مؤكّدٌ أنّ كلّ ما فيّ مكرّسٌ ليسوع، وعزمي ثابتٌ على مقاساة كلّ شيءٍ إرضاءً له. ولكنّي عاجزٌ عن التأكّد من ذلك، فأنا محرومٌ من كلّ نورٍ، ويملأني الرعب والجزع، ظنًّا منّي بأنّ ذلك هو عقاب عدله الإلهيّ. وإنّ ما يثبّتني في هذا الظنّ هو رؤيتي أنّ الله يتعاظم في ذهني، في حين أنّه يُمعن نأيًا واحتجابًا في غمامٍ كثيفٍ".

"من أعتى مِحَني جهلي هل ما أفعله يُرضي الله أو يهينه؟ لا ريب أنّي أتلقّى تطميناتٍ كثيرةً بهذا الشأن، ولكنّي عاجزٌ عن رؤيتها..

"تنقضّ عليّ، أحيانًا، تجارب عنيفةٌ، تحاول تشكيكي بالإيمان. مؤكّدٌ أنّ فكري يرفضها، ولكنّ مخيّلتي تتأثّر بها، وتحاول إيهامي بأنّ الخطيئة ليست، فقط، أمرًا لا يستحقّ الاهتمام، بل هي عذبةٌ. وحينئذٍ، تولد فيّ أفكارٌ تدعو إلى القنوط. ويأخذني الرعب كلّ مأخذٍ، ويتعيَّن عليّ مضاعفة جهود المقاومة، وأخوض أعتى مقاومةٍ لكي لا أهوي، وأنا موقنٌ أنّ نعمة الله وحدَها هي التي تقيني من الوقوع".

وفي رسالةٍ إلى الأب أغوستينو، بتاريخ ١٩١٧/١١/٢٦، جاء:

"في هذه الأيّام هبطت نفسي إلى الجحيم. ومرّةً أخرى، عرّضني الربّ لسخط إبليس، الذي راح يشنّ عليّ هجماتٍ عنيفةً مستمرّةً، ساعيًا إلى أن ينتزع من قلبي أقدسَ ما فيه: الإيمان. فهو يهاجمني في كلّ ساعات النهار، ويعكّر صفو سُوَيْعات راحتي ليلًا. حتّى هذه اللحظة، أنا متأكّدٌ أنّي لم أمكّنه من الفوز. ولكن ما سيكون الأمر، لاحقًا؟ فأنا أعرف أنّ حتّى الإرادة الخاضعة بثباتٍ لله، تُضعِفها، شيئًا فشيئًا، الصراعات التي تخوضها. أرجو أن يستجيب الربّ لتوسّلاتي الملحاحة، وأن يستبدل هذه التجارب بأُخرى، حتّى إذا كانت أكثر شدّةً".

وفي ١٩١٨/١/٢٤، كتب: "ما زال فكري غارقًا في الظلمة، التي تزداد كثافةً. يا إلهي، أنا لا أطلب منك شمسًا ساطعةً، بل أتوسّل، على الأقلّ، إشراقة نور الفجر".

وفي مناسبةٍ أخرى، كتب:

"منذ بضعة أيّامٍ يشنّ عليّ القوقازيّ أعتى حربٍ، فهل هذه هجماته الأخيرة؟ إنّي أعاني آلامًا جمّةً، ولكن، بنعمة يسوع العطوف، ما زلتُ أشعر بامتلاك شيءٍ من القوّة. وما الذي يقوى على خليقةٍ يؤازرها يسوع؟ لستُ راغبًا في أن

يكون صليبي أخفّ عبئًا، لأنّ التألّم مع يسوع مستساغٌ، ومحبّبٌ إلى نفسي، فعندما أتأمّل الصليب مرهِقًا كتفَيْه، تتضاعف قوّتي، وأضجّ فرحًا بما أُعاني.

"ومع ذلك، أشعر بحاجةٍ حارقةٍ إلى أن أهتف مع ملفان النعمة، (القدّيس أغوسطينُس): "هبْ لي، يا ربّ، ما تقتضيه منّي، واقتضِ منّي ما تشاء".

"لا نبكينّ إذن، ولنُخفِ دموعنا عمّن يسبّبها، فلطالما سكب يسوع، وما زال يسكب كلّ يومٍ، الكثير منها، بسبب جحود البشر وعقوقهم، لكي يُكاتفه مختاروه في مهمّته الكبرى، مهمّة خلاص النفوس. وبقدر ما تعاني نفوسهم المختارة، وهي محرومةٌ من كلّ عزاءٍ، بنفس القدر تسهم في تخفيف آلام يسوع العطوف. هذا هو سبب رغبتي في التألّم أكثر فأكثر، بلا عزاءٍ".

عانى، إذن، الأب بيّو من الآلام أدهاها: احتجاب ظهور الله وتخلّيه عنه، وخوفه الدائم من ارتكاب أخطاءٍ تودي به إلى فقدان الربّ أبديًّا، والارتياب الدائم في صواب ما يفعله، هل هو يمجّد الله أو يهينه، وهل سيُفضي إلى خلاص نفسه، أو إلى هلاكها، كلّ ذلك، قد قذف به في جوف ليلٍ دامس الظلام، بعيدًا عن أيّ بصيص نورٍ.

وفضلًا عن كلّ ذلك، كانت آلامه الجسديّة التي واكبت كلّ مراحل حياته، تفتك به، بلا هوادةٍ. وقد أوجز هو وضعه، فكتب:

"هكذا تتأوّه نفسي في غور البؤس الذي أوصلها إلهها إليه. فقد قضى الربّ على نفسي أن تتعفّن في الألم. وضعي مريرٌ ومريعٌ إلى أقصى حدٍّ. كلُّ شيءٍ من حولي معتمٌ. فكري غائصٌ في الظلمة، وإرادتي غارقةٌ في البؤس، وذاكرتي تائهةٌ في القلق. ووحده إيماني صامدٌ. إنّي حزينٌ في قرارة نفسي، وحبّي لله يؤتيني من الحزن بقدر ما يؤتيني من القلق.

هل هذه الحال هي نعمةٌ، أو هي دليلٌ على تخلّي الله عنّي إلى الأبد، بسبب

ما تبعثه نفسي فيه من قرفٍ؟ وهل يجد روحي في الله أبًا مُحبًّا يحسن استقبالي، دائمًا، أو قاضيًا صارمًا ديّانًا؟ لا أستطيع أن أعرف. ويا للظلمة الرهيبة، ويا للشكّ المريع! لم أعد أُطيق احتمالًا، فقد ثقلت عليّ يد الله. وقد يؤتيني الموت راحةً.

إنّ أعتى ما يدمّرني، في هذه الحال، هو شعوري بأنّي لم أعد أهلًا لله، ولن أكون أهلًا له أبدًا، وهو رؤيتي بوضوحٍ وجلاءٍ مدى عدم استئهالي لا لله، ولا لأيّة خليقةٍ. وتخطر أمام ناظرَيّ الشرور التي اقترفتُها، واحدًا واحدًا، فأذوب خجلًا، وأتمنّى التواري عن أنظار الله، وعن أنظار الخلائق كلّها، وعن أنظار ذاتي. فكم يرهقني بؤسي السحيق، وترهقني عيوبي، وكم تختنق روحي في الظلمات!

حواسّي هائمةٌ في صحراء مريرةٍ مريعةٍ، ويستحوذ على كلّ طاقات نفسي أنّها تهوي إلى العدم، وتجتاحني خشيةٌ قصوى. ولا يبقى الجسد غريبًا عن الفكر الغارق في الظلمة، فحتّى عندما يكون الألم روحيًّا، يتأثّر به الجسد تأثّرًا شديدًا...

وفي لحظاتٍ تبلغ رهبة المرارة، شدّةً تشعر بها النفس أنّ الجحيم تُفتَح تحت قدمَيْها، وأنّ الإدانة الأبديّة قد صدرت. مَن يحرّرني من هذا البؤس، ومَن يؤازرني، ومَن يرأف بفقري، وأحزاني، وبمرارتي وحنظلي؟!

لقد أبعد الله عنّي أصدقائي ومعارفي، لقد أبغضوني، جميعهم، وبتُّ وحيدًا أنتحب، وأصارع ليلًا ونهارًا. ولا شيء يريحني أو يعزّيني.. لقد بلغتُ قمّة الجلجلة، محرومًا من كلّ سندٍ سماويٍّ أو بشريٍّ. آه! لو استطعنا الصلاة والصراخ، ولكن يبدو أنّ الله يرفض صلاتي. وهو يهدّدني ويجرّني نحو الظلمات، لا صوب النور، ويلقي عليّ يده الثقيلة..

حالتي الصحّية تسوء باطّرادٍ، أمّا نفسيًّا، فلياليّ تزداد قتامًا، والعاصفة تزداد هياجًا، والصراع يزداد حماوةً، وكلّ شيءٍ يهدّد مركبي الصغير بالغرق.

أشــعر أنّ الله فيّ، ولكنّي أراه محاطًا بضـبابٍ كثيفٍ، تتضـاعف كثافته، يومًا فيومًا. أوّاه! متى سينكشف لعينيَّ؟ ومتى ستشعّ شمسه عليَّ. هل أستطيع تأمّل زيارة هذه الشـــمس، أو هل يتعيّن عليّ أن أبقى، أبديًّا، غارقًا في هذا الليل الدامس؟

أتوق بشـــدّةٍ إلى النور، ولكن، كلّما ازددتُ توقًا إليه تزداد الظلمات كثافةً ورهابةً. وفي فوضـى هذا الجحيم لا أرى، ولا أشـعر إلّا بزئير أسـودٍ مفترسـةٍ، متأهّبةٍ لالتهام فريستها!

أين أنت، يا خير نفسـي، أين تواريتَ؟ ألا ترى، يا يسـوع، أنّ نفسـي تريد أن تشعر بك، بأيّ ثمنٍ؟".

ما عسـاني أفعل إلّا أن أرفع نحو عرشـك هذه الآهة: إلهي، إلهي، لِمَ تخلّيتَ عنّي؟!

مَن يحرّرني من ذاتي؟ مَن سينتشلني من جسد الموت هذا؟ مَن سيمدّ لي يده لكي لا تجرفني أمواج المحيط السحيق، وتبتلعني؟

كدتُ أفقد الإيمان، وبتُّ عاجزًا عن التحليق بأجنحة الرجاء الذي يُمكّن من الاستسلام لله. عندما تزأر العاصفة، ويفيض البؤس.

لســـتُ أرى مهربًا من دماري، ولا مخرجًا من أزمتي. لقد تهتُ عن الطريق، وفقدتُ كلّ وسيلةٍ، وكل سندٍ، وكلّ قاعدةٍ.

يا إلهي، لمَ خضّ العنف نفسـي المضـطربة، وقلَبَها رأسًا على عقبٍ، مع أنّها انتهت إلى حافّة العدم، بإرادتك، وبإذنك؟

ومع ذلك، لا بدّ لي من الحياة معك، وفيك، أو أن أموت. لم أعدْ قادرًا على احتمال ثقل عدله، فيده القديرة تحطّمني.

كم ثقيلةٌ هي هذه اليد الإلهيّة، مع أنّها، لمَن هو يشاء، يد أبٍ محبٍ! أُصلّي، ولكن يبدو لي أنّ يده تدفعني بعيدًا عنه، وترميني في مثل ظلمة المائتين أبديًّا، وتقيم حولي جدارًا من حنظلٍ ووجعٍ. لم أعُدْ أستطيع احتمال قبضته التي لا تنفكّ تُحكِم تكبيلي.

هل أستطيع أن أتأمّل من رحمة الله الخلاص؟ وما الذي فعلتُه كي أستحقّ كلّ هذا القدر من البؤس؟ وهل ستتمكّن نفسي من إطلاق نشيد الظفر، أم عليها أن تتحمّل، أبديًّا، قسوة عدل الله؟

إنّ أكثر ما يقلقني، في غمرة هذه الآلام، هو تساؤلي هل أنا أُحبّ الربّ، وهل أخدمه، حقًّا؟

لقد تخلّيتُ عن كلّ شيءٍ كي أحظى برضى إلهي. وكنت دائمًا، مستعدًّا، لأهب حياتي، مئة مرّةٍ، كي أُثبت له حبّي. والآن، يا إلهي كم مريرٌ، في أعماق قلبي الشعور بأنّك غاضبٌ عليّ. فلم أعُدْ، في خضمّ بؤسي، أجد إلى السلام سبيلًا. إنّ قلبي منجذبٌ إليه، انجذابًا لا يقوى، بكلّ قواه، على مقاومته. بيد أنّ يدًا من حديدٍ تُبعدني عنه...

يا يسوع، إنّ نفسي تتوق إلى الشعور بك بأيّ ثمنٍ. وهي تبحث عنك في كلّ مكانٍ. ولكنّك لا تسمح لها بالعثور عليك، إلّا في غمرة سُخطك، مالئًا إيّاها بأقصى الاضطراب وأشدّ المرارة".

ظلّ، إذن، الأب پيّو، حتّى منتصف عام ١٩١٨، يقاسي جحيم غياب الربّ الحبيب. ومع أنّ ومضاتٍ خاطفةً من سلامٍ ونورٍ، تخلّلت ذلك الجحيم، غير أنّه، خارج تلك اللحظات، ما انفكّت عاصفة المِحَن الهوجاء تنقضّ عليه، وتزداد هياجاً، على حدّ تعبيره.

إلى أن حدث، يوم ١٩١٨/٨/٥، اختراق سيف نارٍ لقلبه. وقال الأب پيّو إنّه، في تلك اللحظة، أصدر بمشقّةٍ، أنّةً، واستمرّ استشهاده حتّى صباح يوم السابع من آبٍ. وكان يمزّقه، آنذاك، شعورٌ بأنّ أحشاءه كانت تُنتَزَع منه، وأنّ كلّ شيءٍ فيه، قد تحوّل نارًا ودمًا.

ولا ريبَ أنّ ذلك الاختراق قد أدخل الأب پيّو في صميم سرّ الجتسماني. وفي دُوار تساؤلٍ مؤرّقٍ عن مرامي الله من وراء ذلك الحدث، وأدخله أيضًا في محراب التجربة الصوفيّة، التي أُقحِم في تيّارها، وقد عبّر عن ذلك بقوله:

"أرى نفسي غارقًا في يمٍّ من نارٍ، والجرح الذي أُشرِع، ما انفكّ ينزف وينزف، ويكاد يُميتني ألفَ مرّةٍ. يا إلهي، لِمَ لمْ أمُتْ؟ ألا ترى أنّ الحياة ذاتها قد غدت عذابًا للنفس التي أنت امتلكتَها. هل أصمَّتك القسوة عن سماع أنّات المتألّم، الذي تُمسِك، أنت، عنه كلّ عزاءٍ وكلّ راحةٍ؟".

وفي الواقع كان اختراق السيف الإلهيّ لنفسه تمهيداً لظهور سمات الصلب على جسده يوم ١٩١٨/٩/٢٠، وما سبّبته له من خجلٍ وارتباكٍ وبلبلةٍ، وما جرّته عليه من اضطهاداتٍ، واتّهاماتٍ، وافتراءاتٍ مُذِلّةٍ، ومن عقوباتٍ كنسيّةٍ جائرةٍ.

كان الأب پيّو إذن، قد عانى، منذ بدء حياته الرهبانيّة كلّ ألوان الآلام الجسديّة والنفسيّة التي لم تدع له مُتنفَّس راحةٍ وعزاءٍ، وواجه اضطهاداتٍ ممّن لم يتوقّع منهم سوى الدعم والمحبّة: مسؤولين كنسيّين كان يُجلّهم حتّى عندما يأخذ عليهم انتهاكاتهم، وإخوةً في الرهبانيّة التي طالما منّى نفسه باعتناق نظامها، الذي وضعه مؤسّسه السيرافيميّ فرنسيس الأسّيزيّ.

وخبر بعمقٍ مأساة غياب الله وتخلّيه عنه، وليل النفس الدامس. وعهدت كلّ مرحلةٍ لاحقةٍ من مراحل حياته آلامًا واضطهاداتٍ طاحنةً، وبها اكتملت تقدمة ذاته ضحيّة فداءٍ.

مَلامح قدّيسٍ فريدٍ

"على غرار الأشياء النقيّة الشفّافة التي يمسّها شعاع نورٍ، فتتألّق وتستنبط من ذاتها نورًا آخر، كذلك هي النفوس التي يُضيئها الروح القدس الساكن فيها، ويجعلها روحيّةً تعكس النعمة على الآخرين".

(القدّيس باسيليوس)

من أجمل ما قيل في وصف پادري پيّو، هو ما كتبته ابنته الروحيّة، "كليونيس موركالدي" (Cléonice Morcaldi):

"كان الأب پيّو لنا، دائمًا، يسوع: في كرسيّ الاعتراف، وعلى الهيكل، وأثناء محادثتنا وصلواتنا معه.

"أجل، يا أبانا، لم تكن قلوبنا مخطئةً عندما كانت ترى فيك يسوع، ولذلك لم ترتوِ، قطّ، من تأمّلك، ولم تقوَ، أبدًا، على النأي عنك. ولذلك كنتَ توبّخنا، وتتظاهر بالجفاء، كي تبعدنا عنك. وبعيدًا عنك، كنّا نعاني الاستشهاد.

"كنتَ محقًّا بقولك: "أنا وجعٌ للنفوس". فقد كنتَ تحتوي، في ذاتك، مَن هو الكلّ، حبيبَنا المخلّص، وكنت قدْسَ أقداس يسوع، ومخبأه.

"ولم ندرك، إدراكًا كافيًا، أنّ وراء اسم "پادري پيّو"، كان يختبئ أجمل بني البشر، الذي، في محبّته الأبديّة الكبرى، ابتغى السير وسط من خلّصهم. قبل موته عاش في فلسطين، وبعد مرور عشرين قرنًا على صعوده إلى السماء، سار هنا، في إيطاليا، حيًّا، حياةً ظاهريّةً".

وقد تساءل البابا بولس السادس:

"علامَ المجد الذي أحاق ببادري پيّو، وما سبب حشود محبّيه العالميّين؟ هل كان فيلسوفًا أو عالمًا مشهورًا، أو ثريًّا واسع الثروة؟ كلّا! بل كان، بكلّ بساطةٍ، يقيم القدّاس بتواضعٍ، ويسمع اعترافات المؤمنين والتائبين، منذ مطلع النهار حتّى حلول الليل، وفوق كلّ ذلك، كان الربّ قد دمغه بسمات صلبه... كان ممثّلًا لجراح صلب الربّ. كان رجل صلاةٍ وألمٍ".

وكان يطيب للبابا بينيدكتُس الخامس عشر القول: "إنّ پادري پيّو هو حقًّا رجل الله".

وأثناء تطويبه، قال البابا يوحنّا بولس الثاني، مُشيرًا إلى اضطهادات السلطات الكنسيّة له:

"إنّ المِحَن التي احتملها، من جرّاء الكرامات الإلهيّة الخاصّة، التي نالها، كانت موجعةً جدًّا، لا بل كانت، بشريًّا، أشدّ حدّةً ولذعًا.

"في ميدان القداسة، يسمح الله، أحيانًا، أن يكون مختاره موضعَ سوء فهمٍ. وعندئذٍ، تصبح الطاعة هي بوتقة تطهُّرٍ، ودربًا إلى التمثّل التدريجيّ بالمسيح، وترسُّخًا في القداسة الحقّة".

وقد اعترف رئيس أساقفة "الله أباد" في الهند "أنجيلو پولي" (Angelo Poli)، أنّه، إثر زيارته للأب پيّو تحوّلت حياته، تحوّلًا جذريًّا.

وقد تقاطر أساقفةٌ كُثُرٌ من كلّ بقاع العالم لمقابلته، ومعظمهم قالوا، إثر ذلك: "جئنا، ورأينا، واقتنعنا".

وشهد الدكتور "جيورجيو فيستا"، الذي انقلبت حياته بعد مراقبته المتكرّرة لجراح الأب پيّو:

"هذه الجراح التي قبّلتُها بحرارةٍ، لا يمكن الشكّ بحقيقتها... إنّها فوّهاتٌ شديدة البلاغة تمثّل خاتم الحبّ الذي يدمغ به الربّ أعزّ البشر على قلبه".

وپادري پيّو هو من وَصَفه القدّيس غريغوريُس الكبير بقوله:

"إنّ ميزة العظماء هي أنّهم، في غمرة آلامهم، واضطراباتهم، لا يكفّون عن تقديم العون إلى الآخرين. وفيما هم يحتملون بصبرٍ الرزايا التي تنقضّ عليهم، يدأبون على تلقين الآخرين ما يحتاجون إلى معرفته، محاكين، في ذلك، أطبّاء عظماء، معتلّين، ومع ذلك لا ينسون معالجة جراح الغير".

هكذا كان الأب پيّو، الذي ما انفكّ روح الشرّ يحاربه في داخله طوال حياته، وما انفكّت الافتراءات، من الخارج، تطارده، حتّى من قِبَل مَن كان عليهم مساندته، ومع ذلك، لم يُحجم، لحظةً، عن الانحناء على آلام الآخرين الروحيّة والجسديّة، في مثل حنان أمٍّ، حتّى آخر يومٍ من حياته.

لقد انحنى الأب پيّو على أمراض الجسد، مثلما انحنى على أسقام النفوس، تمثّلًا بالمخلّص في جلجلة الجتسماني، عندما أخذ خطايانا على عاتقه.

ولا ريب أنّ پادري پيّو كان:

من أبرز شهود الروح في القرن العشرين.

وأحد أعظم الصوفيّين على مدى العصور.

وأنّه:

حمل على مدى خمسين عامًا سمات صلب المخلّص، وظلّ معلّقًا على الصليب، ولا مطمح له إلّا أن يكون الصليب كلّ حياته. وهو بفضل التصاقه بالصليب، وتضحياته السخيّة والبطوليّة وآلامه، أثّر على قلب الربّ وخلّص كثيرين.

ومن خلاله حقّق الله عظائم، وقدّم للعالم إشاراتٍ فائقة الخطورة، لم يستطع البشر، حتّى الآن، إدراك عمقها، وعواقبها المقبلة.

ومن خلاله، أظهر لنا الربّ، أنّه ما زال حيًّا، فاعلًا، وأنّ له مكانًا جوهريًّا في حياتنا اليوميّة، وفي تاريخ البشريّة.

وبآلامه جدّد فداء المخلّص، وخلق عالمًا جديدًا.

وأكّدت سماته أنّ يسوع قام من القبر فجر يوم أحدٍ، ربيعيٍّ، وأنّه ما زال حيًّا بيننا، لأنّه آمن أنّ الله يتألّم في المريض وفي الفقير، ورأى في كلّ فقيرٍ ومريضٍ محرابًا، ومخبأ قربانٍ.

ولأنّه تلقّى فيضًا من النِعَم الاستثنائيّة: قراءة كوامن الضمائر، والاتّصال بالمحتاجين عن بعدٍ، من خلال فوحِ عذبٍ، وثنائيّة الحضور في مكانَيْن مختلفَيْن، في آنٍ واحدٍ، وموهبة التنبّؤ بالمستقبل، ولأنّه كرّس كلّ تلك المواهب لخدمة إخوته البشر.

ولأنّه كان قدّاسًا حيًّا، ومسبحةً ورديّةً حيّةً، ولم يكن بينه وبين الله تقاربٌ، بل كان اندماجٌ وتمثّلٌ وشراكةٌ. وكانت تحدوه غيرةٌ مقدّسةٌ على خلاص النفوس، وتجِلّةٌ بنويّةٌ للعذراء، وصداقةٌ مع ملاكه الحارس، وحبٌّ للقريب، وعطاءٌ بلا تحفّظٍ.

ولأنّ الإنسان فيه تألّه من خلال تمثّله الوفيّ بالمسيح، وعيشه شخصيًّا وحسّيًّا سرّ الموت والقيامة، على نحوٍ مأساويٍّ، ولكنّه مذهلٌ.

ولأنّ الله جرحه حبًّا، وصارعه إبليس حقدًا وانتقامًا، وأحبّته الجماهير اعترافًا بجمائله، وتقديرًا لبطولة قداسته. وكان موضع ريبة فئةٍ من العلماء، وهجاه من لم يرُقْ لهم سلوكه، ومجّده أصدقاؤه، وظلّ نازفًا ومبتسمًا. ولأنّ حبّ الله، وهمّ خلاص البشر، التهماه. ولأنّه بعث إلى العالم برسالةٍ تستحقّ أن تظلّ معاصرةً، ولأنّه ما زال يهزّنا بدعوته إلى تمعّن خطورة الخطيئة، وعظمة حبّ الله لنا، معًا.

شكرًا يا ربّ، لأنّك جُدْتَ على زماننا بالقدّيس پادري پيّو. وأنعم، أيّها الكريم الوحيد، على عالمٍ يجري بجنونٍ نحو فنائه، بأمثالٍ لپادري پيّو ينفثون في نفسه، شحنة روحٍ، وفهمٍ، وحياةٍ.

إيضاحٌ

لقد أكرهتني الأمانة التاريخيّة، في سياق روايتي للاضطهادات الجائرة التي أنزلت بالأب پيّو، على ذكر مخازٍ مخجلةٍ ارتكبها كهنةٌ وأساقفةٌ خانوا رسالتهم، وذكر مساقط وهنٍ تردّى إليها أحبارٌ كانوا ضحايا معاونين تدفعهم أغراضٌ حقيرةٌ.

ويؤسفني أيضاً ذكر خياناتِ رهبانٍ منتمين إلى مدرسة "الفقير الصغير"، الأسّيزيّ العظيم، انزلقوا إلى عشق المال، وألحقوا أعتى المظالم بأخيهم پيّو الذي أبى الحياد، ولو قيد أنملةٍ، عن نذوره، وعن مبادئ الزهد والفقر الطوعيّ، التي مارسها ممارسةً بطوليّةً، بكلّ قناعات ضميره، وبكلّ أوتار نفسه.

وأحرص على التأكيد أنّ بشاعة تلك الارتكابات الصادرة عن مكرَّسين أسلسوا القياد لأهوائهم، وانقادوا لدوافعهم الغريزيّة واستسلموا لمغريات العالم، فتردّوا إلى مستنقعاتٍ وخيمةٍ، لم تُنقِصْ ذرّةً من إيماني الراسخ بقداسة الكنيسة، جسد يسوع الحيّ، ومن إجلالي لخدّامها الأُمناء المخلصين.

فما خُدّام الربّ سوى قنواتٍ تنقل ماء حياةٍ من نبعٍ طاهرٍ، وقد توصله نقيّاً إلى غايته، وقد تجرّ، أحياناً، في مسيرتها، أقذاراً، ولكن هذه الأقذار لا تدلّ على فساد النبع.

ولا نخافنَّ، فمُنشئُ الكنيسة وعدها بأن يظلّ معها، صادّاً عنها هجمات الجحيم، وإلّا لعفا أثرُها، ولأضحت أطلالاً دارسةً. وها إنّ الربّ يستنهض، في كلّ جيلٍ، من صُلبها، أبطالاً شجعاناً، ونفوساً طاهرةً مخلصةً وسخيّةً، أمثال فرنسيس الأسّيزيّ، وجان–باتيست ماري ڤيانّي (خوري أرس)، وڤنسان دي پول، وپادري پيّو، يمسحون عن وجه الكنيسة الرائع الأقذار التي لوّثها بها، أتباع يهوذا.

ومهما طغى الشرّ وبغى، فهو لا محالة زائلٌ، لأنّ الربّ هو المهيمن، وإليه ترجع الأمور.

المراجع

- Ennemond BONIFACE : Padre Pio de Pietrelcina : Vie, Œuvres, Passion La Table ronde 1966
- René HAMEL
  Auprès du Père Pio
  La Colombe, Paris,1955
- Maria WINOVSKA
  Le vrai visage de Padre Pio
  Fayard, Paris, 1976
- Yves CHIRON
  PADRE PIO
  le stigmatisé
  Perrin, Paris, 2002
- Yves CHIRON
  Padre Pio : vérités,mystères , controverses
  Tallendier, Paris, 2014
- Enrico MALATESTA
  Un prêtre sous le poids de La Croix
  François-Xavier de Guilbert, Paris, 1993
- Antonio SOCCI
  Le secret de Padre Pio
  Téqui, Paris 2013
- Jean DEROBERT
  St Pio de Pietralcina, Trensparent de Dieu
  Bovine, Belgique, 2021
- Alberto Allegri
  La douceur du feu
  Salvatore, 2021
- P. Costantino Capobianco
  Paroles et anecdotes de Padre Pio
  Ed. Resiac 1999
- Joachim. Bouflet
  Le témoin
  Ed Points 2009

الفهرس

إهــداء ٥

تقديم...٩

الجُزءُ الأوّل

نشأةٌ فقيرةٌ ورعةٌ، وسعيٌ إلى الكهنوت ١٥

نشأته ١٦

استعدادٌ للكهنوت.................................٢٢

الكبّوشيّ المبتدئ ٢٦

من ديرٍ إلى ديرٍ ٣١

صراعٌ مع الشرّير ٤٠

الجُزءُ الثّاني

الكاهن المدموغ بسمات الصلب ٤٣

الأب پيّو...٤٤

خدمةٌ عسكريّةٌ مضطربةٌ...............................٥١

أمَلٌ في نزاع يسوع ٥٥

الكاهن الضحيّة ٦٦

هجماتٌ شيطانيّةٌ.....................................٧٠

استعدادٌ للرسالة الفدائيّة: صراعاتٌ مع قوى الجحيم وظهوراتٌ سماويّةٌ ٧٣

قدّاس پادري پيّو ٨٣

پادري پيّو المعرّف...................................٩١

الجزء الثالث

سمات الصلب وارتداداتها ٩٩
بوادر السمات ١٠٠
عودةٌ إلى الدير ١٠٣
تقدمةٌ واختراقٌ ١٠٨
كيف ظهرت سمات صلب پادري پيّو ١١١
حذر الرؤساء، وتسابق الصحافيّين ١١٥
تهافتٌ على سان جُوڤـانّي رُتونّدو، وحملات افتراءٍ وتشهيرٍ ١٢٠
كراماتٌ فريدةٌ، ومِحَنٌ طاحنةٌ ١٢٣
عدوّ پادري پيّو الأشد شراسةً: الأب أغوستينو جيميلّي ١٣١
إدانةٌ كنسيّةٌ، ومقاومةٌ شعبيّةٌ عنيدةٌ ١٣٧
الاضطهاد يزداد قسوةً، وتكوين هيئة دفاعٍ عن پادري پيّو ١٤٤
جلاء الحقيقة، واستمرار المِحَن ١٤٩
دفاعٌ متهوّرٌ، وعقابٌ قاتلٌ ١٥٣
التحرير ١٥٨
انتصار القداسة، وأنوارٌ تشعّ من جراح پادري بيو ١٦٦

الجزء الرابع

إنجازان عظيمان ١٧١
"بيت تخفيف الألم" ١٧٢
جماعات الصلاة ١٩٠
اضطهاد عَبَدة "ممّون" (إله المال) ١٩٥
افتراءاتٌ وعقوباتٌ جائرةٌ ٢٠٩
نقل ملكيّة "بيت تخفيف الألم" ٢١٤
أنصار "الأب پيّو " ٢١٦
حجّاجٌ مُيتّمون، ورجال دينٍ حَذِرون، ومواطنون ثائرون ٢١٩
"كتابٌ أبيض" ٢٢٣

تحرير الأب پيّو ٢٢٥
إمعانٌ في صلب الراهب القدّيس ٢٢٩

الجزء الخامس

أيّامه الأخيرة ٢٦١
شيخوخةٌ وجيعةٌ وبوادر عزاءٍ مؤثّرةٌ ٢٦٢
وفاته وزوال سمات صلبه ٢٦٧
ليلته الأخيرة ٢٧١
مسيرة تطويبه.. ٢٧٤

الجزء السادس

مَن هو پادري پيّو؟.. ٢٧٩
كاهنٌ يصلّي، ويحبّ.. ٢٨٠
ضحيّةٌ طوعيّةٌ ٢٩٠
ملامح قدّيسٍ فريدٍ.. ٣٠٨

إيضاحٌ.. ٣١٢
المراجع.. ٣١٣
الفهرس ٣١٥
صدر للمؤلّف ٣١٨
أوّلًا. منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان ٣١٨
ثانيًا. دور نشر أخرى ٣٢٠

صدر للمؤلّف

أوّلًا. منشورات المكتبة البولسيّة - جونية - لبنان

- سلسلة النوابغ

١. السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢
٢. فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨
٣. صوت من لا صوت لهم: الأب پيير – ١٩٩٧
٤. حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و٢٠٠٣
٥. أنا الأخت إيمانويل، أشهد – ١٩٩٩
٦. بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣
٧. جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣
٨. سيرة المسيح (مترجم عن جوڤانّي پاپّيني) – ٢٠٠٣
٩. البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥
١٠. الكاهن القدّيس جان ماري ڤيانّي "خوري أرس" – ٢٠١٩
١١. عملاق المحبّة القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠١٩
١٢. معجزة العناية الإلهيّة "البيت الصغير" (القدّيس جوزيف كُتّلينغو) – ٢٠٢١
١٣. راوول فولّيرو رسول البرص ومتشرّد المحبّة – ٢٠٢١
١٤. دون بوسكو، ملاذ المشرّدين، ومربّي المهملين،
ومؤسّس الجمعيّة الساليزيّة – ٢٠٢٢
١٥. مارتن لوثر كينغ، شهيد تحرير السود الأميركيّين – ٢٠٢٣

- مؤلّفات متفرّقة

١. قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠
٢. يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦
٣. يسوع في حياته – الجزء الأوّل – ٢٠٠٦
٤. يسوع في حياته – الجزء الثاني – ٢٠٠٦
٥. أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩
٦. مختارات مريميّة – ٢٠٠٩
٧. أمّ الرحمة – ٢٠١١
٨. باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – ٢٠١٦
٩. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (١) السيرة – ٢٠١٩
١٠. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٢) الرؤى * – ٢٠١٩
١١. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٣) الرؤى ** – ٢٠١٩
١٢. مقتطفات من خواطر القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠٢٠
١٣. قصائد وصلواتٌ وخواطر وأقوال (راوول فولّيرو) – ٢٠٢١

- سلسلة الظهورات

١. ظهورات لورد – ٢٠١١
٢. ظهورات فاطمة – ٢٠١١
٣. ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١
٤. ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١
٥. ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢
٦. ظهورات كيبيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢
٧. ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (المداليّة العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢
٨. ظهورات لوس وغيتشڤاود – ٢٠١٢

٩. لِمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢
١٠. الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢
١١. الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣
١٢. ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣
١٣. ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

- سلسلة صفحات روحيّة

١. أبانا – ٢٠٠٥
٢. كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – ٢٠٠٧
٣. العذراء في حياتنا (مترجم) – ٢٠٠٥ و ٢٠٠٧
٤. المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – ٢٠١٥
٥. على درب الحياة مع ألكسي كاريل،
الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – ٢٠١٦

- كتب مترجمة

١. يد الله – ١٩٨٨ (سلسلة الشهود)
٢. ثلاث عشرة قصّةً – ١٩٩٠ (سلسلة الوداع)
٣. أيدٍ ملطّخةٌ بالدم – ١٩٩٥ (سلسلة الوداع)
٤. اذكروا الله: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – ١٩٩٥
٥. حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – ٢٠٠٥ (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

ثانيًا. دور نشر أخرى

١. على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – ١٩٨٤
٢. حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجيّ – دمشق) – ١٩٩٨ و ٢٠٠٠